رسالة ماجستير

السعادة في المنظور الإسلامي

تأليف
عبد الله محمد غانم العامري

دار ابن حزم

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

ISBN 9953-81-172-5

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: 14/6366
هاتف وفاكس: 701974 - 300227 (009611)
بريد إلكتروني: ibnhazim@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

صدق الله العظيم

[هود: ١٠٥ ـ ١٠٨]

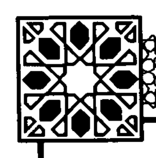

إقرار المشرف

أشهد أن إعداد هذا البحث التكميلي الثاني الموسوم بـ(السعادة في المنظور الإسلامي) المقدم من قبل الطالب (عبدالله محمد غانم العامري) جرى تحت إشرافي في (كلية الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية ـ في الجامعة الإسلامية ـ بغداد ـ صدام سابقاً ـ) وهو جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير تخصص (دعوة).

التوقيع:

أ. د. عماد إسماعيل النعيمي

التاريخ

بناء على هذه التوصيات المتوافرة أرشح هذا البحث للمناقشة

التوقيع

أ. د. محمد رمضان عبد الله

عميد الكلية

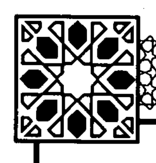

إقرار لجنة المناقشة

نشهد نحن أعضاء هيئة المناقشة بأننا اطلعنا على البحث الموسوم بـ(**السعادة في المنظور الإسلامي**) المقدم من قبل الطالب (**عبدالله محمد غانم العامري**) في كلية الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية وقد ناقشنا الطالب في محتوياته وفيما له علاقة به في يوم الأحد الموافق ٢٠٠٣/١١/٢٩م ونقر أنه جدير بالقبول لنيل درجة الماجستير تخصص (دعوة) بتقدير (امتيـــاز).

التوقيع

اسم عضو المناقشة

د. عبد الله الحديثي

التوقيع

اسم رئيس اللجنة

د. وليد البدري

التوقيع

عضو المناقشة المشرف على البحث الاستاذ الدكتور عماد إسماعيل النعيمي

صادق مجلس كلية الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية) على قرار اللجنة:

التوقيع

أ. د. محمد رمضان عبد الله

عميد الكلية

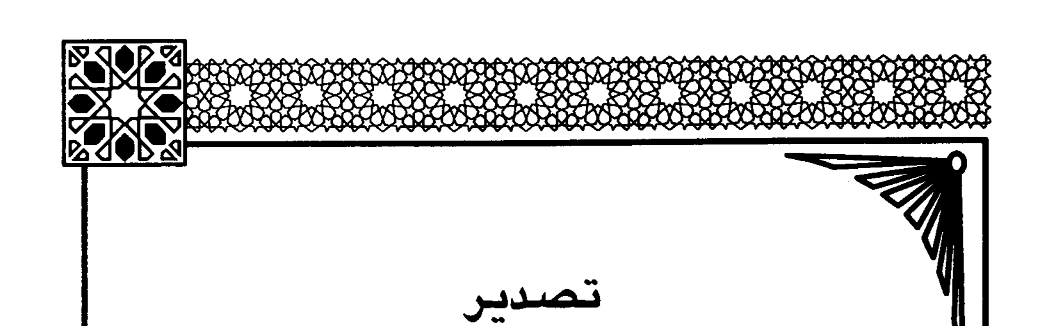

تصدير

بقلم: القاضي إسماعيل بن علي الأكوع

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة ولسلام على رسوله الأمين أهل بيته الطاهرين وأصحابه أجمعين والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن الباحث النشيط والمجد المكين عبدالله بن محمد غانم العامري قد أحسن بي الظن وذلك بأن رغب إليّ في أن أكتب له تقديماً لكتابه (السعادة في المنظور الإسلامي) الذي نال به درجة الماجستير من (الجامعة الإسلامية) في بغداد، ففكرت في موضوع هذا الكتاب وماذا عسى أن أكتب عنه؟ وكيف يمكن لمثلي أن أفسر كلمة السعادة لأكتب عنها؟ مع أنها معنى قائمٌ في النفس غير محسوس بالبصر حتى أصفها وصفاً جامعاً مانعاً بكلمة مرادفة لها في المعنى فقلبت هذا الأمر على جميع الوجوه حتى بلغ بي الحال إلى حال (من فسَّر الماء بعد الجهد بالماء) مع أن مدلول هذه الكلمة معروف وأثرها واضح ذلك لأن من مستلزمات معناها خلو البال من هموم الحياة والرضاء بالأمر الواقع مهما تفاقمت المصاعب والمتاعب، ولمَّا لم أجد ما يحلل به عقدةً من قلمي لإيضاح معنى السعادة طلبت من الباحث العامري مساعدتي في استخراج معنى السعادة ـ فصاحب البيت أدرى بما فيه ـ لأنني لم أتمكن من قراءة رسالته وذلك لمتاعب في

نظري حدَّت من قدرتي على القراءة والكتابة بعد أن نيفت على الثمانين. فأجاب بأن الأستاذ الدكتور حسن بن محمد مقبولي الأهدل قد كتب كلمة عن هذا الكتاب وأخرى مماثلة لها عن كتاب للباحث نفسه (الحسد وعلاجه في القرآن الكريم والسنة النبوية) فوجدت بعد الاطلاع عليهما أن كاتبهما قد حوى وأوفى.

ولكنني مع هذا ومن خلال كتابتي لهذه السطور تذكرت حادثة مشهورة وقعت بمرأى ومسمع ومشاركة مني قولاً وعملاً. والشيء بالشيء يذكر، فقد عادت بي الذاكرة إلى سني سجن نافع في مدينة حجه في عهد الإمام أحمد حميد الدين، وكيف اصطفى الأحرار فيه وأنا منهم أنواعاً من التعذيب والترويع والتهديد، وقطع رؤوس من يريد الإمام أحمد أن يشفي غيظه منهم، مما كان يثير الرعب والخوف في أنفس السجناء الأحرار كلهم حتى الذين لا تحوم حولهم أدنى شبهة بأنه قد يمسهم أي نوع من أنواع العقوبة، ومع ذلك فقد كان الخوف لا يبارحهم حتى من مجرد دخول حراس السجن علينا، بينما نجد الزميل الأخ عبدالسلام بن محمد صبره لا يبال بهذه المخاوف، ولا يعير لها بالاً، ويردد مقولته الشهيرة: هنا تكمن (السعادة الخالدة) وذلك ليطمئن القلوب الواجفة بأن ما يصيبها هو السبيل الأمثل لنيل رضاء رب العباد فهو ولا شك كان ينظر إلى ما وعد الله به عباده المتقين، وأن ما يحدث لهم إنما هو من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى يهبها لمن يشاء، ولا سيما لذوي النفوس المطمئنة الذين شرح الله صدورهم بالإيمان ورضي لهم قولاً وهم الذين وصفهم الله جلَّ جلاله بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٨].

وحسبنا الله ونعم الوكيل، وما توفيقي إلاَّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

إسماعيل بن علي الأكوع عفا الله عنه
٢٩/ ربيع الأول سنة ١٤٢٦ هجرية
٢٠٠٥/٥/٨م

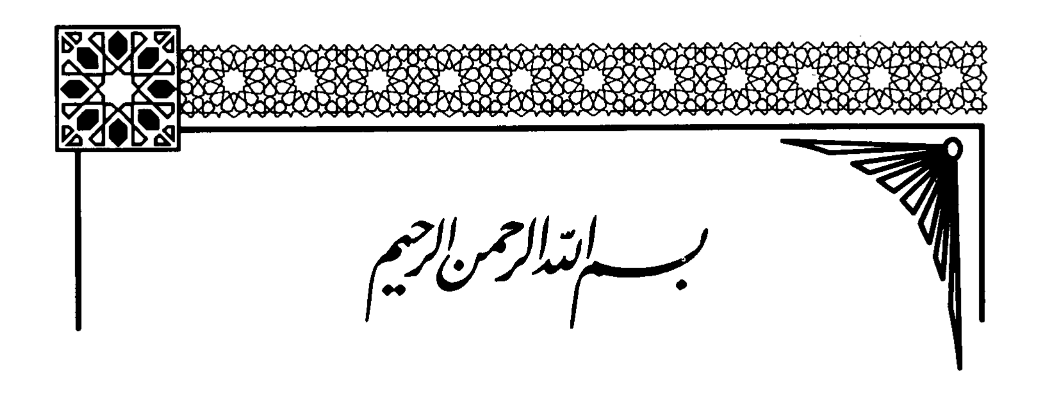

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين لقد اطلعت على ما كتبه الأخ/ الباحث عبدالله محمد غانم العامري في بحثه الموسوم (السعادة في المنظور الإسلامي) فرأيت الباحث قد أفاد وأجاد من خلال كتابته وعرضه للمعلومات واختيار الأسلوب الأمثل مع الدقة والأمانة في النقل والقدرة على الاستنباط والاستدلال من النصوص وقد كان الباحث متواجداً وشخصيته ظاهرة في بحثه ملتزماً بمنهجية وقواعد البحث العلمي وهذا البحث يعتبر من الأبحاث القيمة والمفيدة في موضوعها ولقد أحسن الباحث وأفاد وهو يستحق التقدير والشكر على جهده وبناء على طلبه أن أعمل كلمة تقريظه لهذا البحث فقد قلت ما رأيت وما لمست من إيجابيات وجد واجتهاد في هذا البحث ونسأل الله التوفيق للباحث والسداد وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد.

أ.د. حسن محمد مقبولي الأهدل
أستاذ الحديث وأصول الفقه
بكلية الشريعة والقانون
جامعة صنعاء

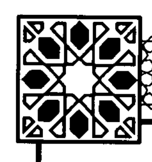

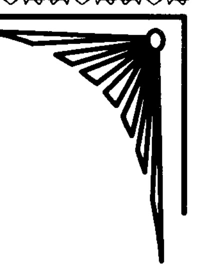

الإهداء

إلى من تحمل عناء نشر دين الإسلام الحنيف من أجل إسعاد البشرية جميعاً فتحمل في سبيل ذلك كل صور العداء من غلٍ وحسدٍ وكراهيةٍ وبغض معلم الإنسانية الأول محمد ﷺ.

وإلى آل بيته وأصحابه الكرام البررة الذين تجشموا معه المتاعب من أجل إسعاد الأمة بهذا الدين فنشروه إلى كل بقاع الأرض، وإلى التابعين وتابعي التابعين ومن اقتفى الأثر إلى يوم الدين.

إلى والدي العزيز الذي كان له الفضل في تشجيعي ودعمي لطلب العلم منذ مراحله الأولى وإلى والدتي الحنونة براً وإحساناً.

وإلى زوجتي التي شاركتني متاعب الحياة، وتحملت معي آلام الغربة وفاءً وعرفاناً.

وإلى فلذة كبدي سجى ومن انتظر من الله مجيئه امتداداً وأملاً.

إلى أهلي وإخواني وأبناء عمومتي جميعاً فخراً واعتزازاً.

إلى بلدي الحبيب الثاني العراق المجاهد الصامد.

إلى إخواني وأحبائي في الله أينما كانوا حباً واحتراماً.

وإلى كل من مد لي يد العون لمواصلة دراستي، ومن كان له الفضل بعد الله سبحانه وتعالى في نصحي وتوجيهي من أساتذتي الكرام - في الجامعة الإسلامية ببغداد حباً ووفاءً.

المؤلف

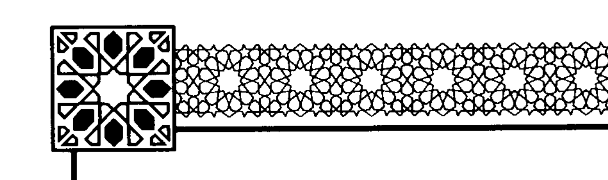

شكر وتقدير

عرفاناً بالجميل ووفاءً لأهل الفضل، وعملاً بقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾[1]، وتأسياً بهدي الحبيب محمد ﷺ في نسبة الفضل لأهله في قوله ﷺ: **«من لم يشكر الناس لم يشكر الله»**[2].

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من مد لي العون والمساعدة في إعداد هذا البحث بتوجيهاتهم السديدة، والقيمة، وأخص منهم بالذكر فضيلة أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عماد إسماعيل النعيمي الذي تفضّل بقبول الإشراف على هذا البحث، والذي أحاطني برعايته وفضله، ولما قام به معي من جهدٍ في القراءة والملاحظة والمتابعة وذلك قبل سفري إلى اليمن من جراء هذه الأحداث المؤلمة التي جرت على هذا البلد الحبيب الصامد، وكذلك متابعته لي بعد عودتي ورعايته وتوجيهاته المستمرة فأسأل الله أن يشكر سعيه على ما بذله معي وأن يجعل ذلك في ميزان حسناته، وجزاه الله عني خيراً. ووفقه لما يحبه ويرضاه خدمة للإسلام والمسلمين.

---

(١) الرحمن: (٦٠).

(٢) رواه أحمد في مسنده ـ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ـ المتوفى (١٤١هـ): ٢٥٨/٢، رقم (٧٤٩٥)، مؤسسة قرطبة ـ مصر، ط: (ب: ت)، وأبو داود في سننه ـ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ـ المتوفى (٢٧٥هـ) في كتاب الأدب ـ باب (في شكر المعروف)، ٢٥٥/٤، رقم (٤٨١١) تحقيق/ محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر ـ ط: (ب: ت).

كما أتقدم بخالص الدعاء وحسن الثناء لرئيس الجامعة الأستاذ الدكتور/ عبدالستار حامد الدباغ الذي لم يبخل على طالب من هذه الكلية بنصحه وتوجيهاته وما ذلك إلَّا لمحبته وتشجيعه لطلبة العلم، منذ أن كان عميداً للكلية؛. حتى هذا الوقت فجزاه الله عن الجميع خيراً، وجعل ذلك في ميزان حسناته.

كما أتقدم بخالص الدعاء وحسن الثناء لأساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الذين شرّفوني بقبول مناقشة هذا البحث وتشجموا المتاعب في قراءته فأشكر لهم جهودهم وملحوظاتهم السديدة التي ستزيّن البحث أمدهم الله بالصحة، والعافية، وجعلهم ذخراً لطلبة العلم.

كما أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى أساتذتي الأفاضل الذين تشرفت بالاستفادة منهم، ونهلت من علومهم خلال دراستي في هذه الجامعة الموقرة منذ مرحلة البكالوريوس حتى اليوم فأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الدعاء وحسن الثناء إلى عمادة الكلية وأخص منهم بالذكر الأستاذ الدكتور محمد رمضان عبدالله عميد الكلية، والدكتور محمد بشار الفيضي معاون العميد.

فجزى الله الجميع خير الجزاء على ما بذلوه معي ومع كل زملائي فأسأل الله أن يمد في أعمارهم وأن يجعلهم ذخراً لطلبة العلم، وأن يوفقهم لما يحبه ويرضاه.

كما أرى من الواجب عليّ تقديم الشكر والثناء ولا سيما لكل أخ وزميل قدّم لي خدمة أو رأياً أو توجيهاً فجزاهم الله عن ما بذلوه مع أخيهم الباحث خير الجزاء كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل لجميع العاملين في الدراسات العليا وموظفي الكلية المنتسب إليها الباحث، وكذا العاملين في المكتبات العامة والخاصة داخل العراق وخارجه خصوصاً كادر مكتبة الجامعة الإسلامية ببغداد سائلاً من الله تعالى أن يوفقهم لما يحبه ويرضاه.

وأخيراً لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل للأخ الحبيب الأستاذ محمد عبدالله محمد عبدالرحيم نعيم على ما بذله معي من جهد كبير في المراجعة اللغوية لهذا البحث وذلك قبل طباعته ونشره، سائلاً الله تعالى أن يجعل ذلك في ميزان حسناته وأن يجعله من السعداء في الدارين.

والله ولي التوفيق

المؤلف

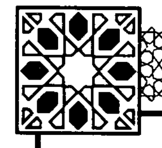

المحتـــويات

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

❊ ❊ ❊

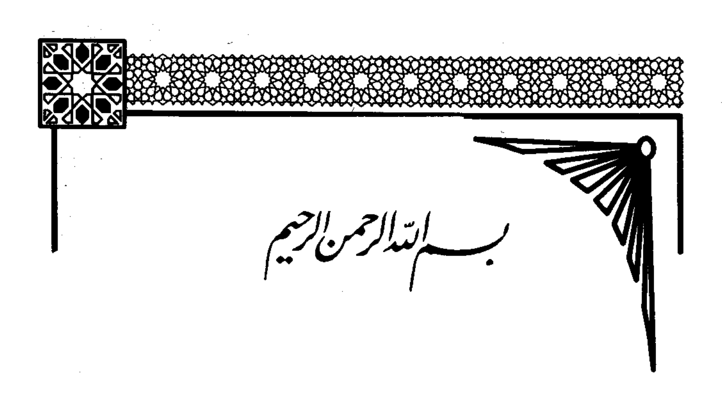

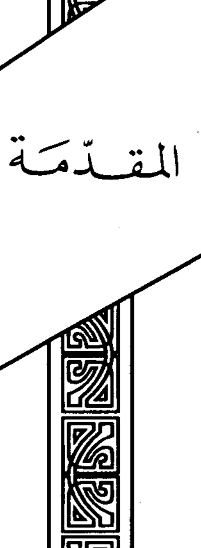

المقدّمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلَّمه البيان، ووهبه أدوات الفهم والعلم ليميز بين الخير والشر، والحق من الباطل، الذي أرسل رسله وأنبيائه لهداية العباد إلى عبادته وطاعته التي فيها سعادتهم. وأصلي وأسلم على من بعثه الله رحمةً للعالمين الذي أنار لهم طرق الهداية وحثهم على سلوكها فإن في ذلك سر سرورهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأمرهم باجتناب طرق الضلال والغواية فإن في ذلك سر غمهم وشقاءهم في الدنيا والآخرة. أما بعد:

أما بعد فإن مثل هذا الموضوع لابد أن يعطى حقه من قبل الباحثين والعلماء والدعاة في كل زمان ومكان لما له من أهمية كبيرة، فلو نسأل البرَّ والفاجر، والمؤمن، والكافر، ماذا تريد؟ ولأي شيءٍ تهدف في هذه الحياة؟ لقالوا جميعاً: نطلب السعادة.

إذ هي جنة الأحلام التي ينشدها كل البشر من الفيلسوف في قمة تفكيره أو تجريده إلى العامي في قاع سذاجته، وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد، إلى الصعلوك في كوخه الصغير، ثم إنها أملٌ يداعب أحلام الكبار والصغار، الرجال،

والنساء عبر مسيرة الحياة، وهي هدف يسعى إليه الآباء، والأمهات بصورة غريزية، وفطرية لتوفير أسباب السعادة لهم ولأبنائهم. وبما أن الباحث تناول البحث في هذا الموضوع من منظور إسلامي فإن دين الإسلام قد بين لكل مسلم كيف يبحث عنها إذ هي في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولقد كان لعلماء السلف والخلف دورهم المتميز في كل زمان ومكان في توجيه الناس إلى السعادة الحقة حيث تزخر مؤلفاتهم بذلك. لذا كان من أسباب اختياري لهذا الموضوع ما يأتي:

١ ـ ما تعانيه أمة الإسلام من متاعب ومآسي وتكالب على مصالح الدنيا حتى دبّ الحسد المذموم إلى قلوبهم، وتمزقت أواصر وحدتهم، وبلغ الزيغ مبلغه في نفوسهم فضلّوا الطريق الصحيح في البحث عن السعادة الحقة، وما ذلك إلّا بسبب انحراف الكثير منهم على مبادئ الإسلام وتعاليمه وهجرهم لكتاب ربهم وسنة نبيهم كل ذلك من أجل البحث عن السعادة.

٢ ـ تعدد رؤى الناس في البحث عن السعادة:

فمن يسعى لجمع المال، يهدف إلى الوصول إلى السعادة.

ومن يسعى للحصول على الشهادة بأي طريق للحصول على منصب حيث يرى سعادته في ذلك. ومن يلهث خلف الشهوات البهيمية، يهدف إلى الوصول إلى السعادة.

ومن يسعى للشهرة في فن من الفنون، هدفه الحصول على السعادة.

ومن يسعى للجاه والسلطان، هدفه في ذلك الحصول على السعادة.

كما أن من يؤمن بالله ويعمل صالحاً يطلب السعادة.

إن كل هذه الأمور الناتجة عن تعدد رؤى الناس في البحث عن السعادة تجعل كل ذي بال يقول: لماذا وما السبب في أن كثيراً من المسلمين أصبحوا في حيرة من أمرهم؟ على الرغم أن دين الإسلام قد

دلهم على السعادة الحقة وبيّنها لهم. نعم أن السؤال ذو أهمية ومكانة كبيرة عندما يرى المسلم الغيور ـ الذي عرف حقيقة السعادة ـ كثيراً ممن ينتمون إلى الإسلام، ضلوا الطريق، وتنكبوا الطريق المستقيم من أجل ذلك. ليس ذلك عن عدم وضوح في الحق ولا عن قلة دلائله وبراهينه، ولا تقصير من جانب الرسول ﷺ ـ حاشاه ـ وصحابته الكرام والعلماء والدعاة، من السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ ولا من الخلف أيضاً فأين الخلل إذاً إنه في المدعوين أنفسهم مما يجعل الموضوع جديراً بالدراسة خاصة في ميدان الدعوة كي تنجلي معالم الحق فيه.

ومن هذا المنطلق وللأسباب المذكورة عزمت على خوض الكتابة في هذا الموضوع وقد وجدت تأييداً كبيراً من الأساتذة الأفاضل ـ الذين نهلت من علومهم في هذه الجامعة ـ وبعض الأخوان من طلبة الدراسات العليا الذين سبقوني في ميدان البحث، وقد استفدت منهم جميعاً جزاهم الله خيراً، ومنهم من وجدته مشفقاً عليَّ نظراً لطول الموضوع وضيق الوقت وصعوبة الطريق، وهذا ما كان بالفعل ـ لكنه وافق التشجيع رغبة في النفس فكان هو الغالب والحمد لله رب العالمين.

ولعل من الإنصاف الإشارة إلى أن هناك كتابات جزئية حديثة في الموضوع لدراسات سابقة تظهر للقارئ في هوامش البحث أو قائمة المصادر والمراجع، غير أنه لم يكن منها الدراسة التأصيلية الشاملة لما أردت دراسته، وإبرازه كإسهام أقدمه للأمة، وأصحاب الرأي والفكر والدعاة والمرشدين من أمة محمد ﷺ لذا عقدت النية وتوكلت على الله المستعان.

وقد طرح الباحث التساؤلات الآتية باعتبارها مشكلة الدراسة قائلاً:

ما هي السعادة؟ وما حقيقتها؟

وما مدى حاجة الناس اليها؟

وما أصناف الباحثين عنها؟ ومن بحث عن حقيقتها، ومن بحث عن وهميتها، ومن بحث عنها في مجالات شتى؟

ثم ما أنواعها، وما هي الفضائل المكملة لتحقيق كل نوع؟

وما هي منغصات السعادة؟ وما هو علاج تلك المنغصات؟

كل هذه التساؤلات سيجيب عنها ما أورده الباحث في هذا البحث إجابة نافعة وشافية ومفيدة إن شاء الله تعالى.

منهجية البحث:

وقد كان منهجي في إعداد هذا البحث كما يأتي:

١ ـ نسبت الآيات القرآنية المستشهد بها إلى سورها والتي تدل على ما أوردته من أقوال العلماء عن السعادة ثم رجعت إلى بعض كتب التفسير القديمة والحديثة. لتوضيح ما يراد توضيحه.

٢ ـ قمت بتتبع النص أو النصوص مقتطفاً الشاهد منها ثم أدلل على ذلك بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أو من السيرة حيناً آخر أو أكتفي بدليل من القرآن أو من السنة النبوية ثم أعلق على ذلك بما فتح الله عليَّ إن لزم الأمر، وغالباً ما أقدم كلاماً تمهيدياً قبل الشروع في الحديث عن أي فصلٍ أو مبحث أو مطلب من هذا البحث.

٣ ـ اعتمدت على كتب الحديث، ولا سيما الكتب الستة، ومسند أحمد وغيرها واعتمدت أيضاً على بعض الكتب الأخرى في الحديث مثل صحيح ابن حبان والأدب المفرد للبخاري والمعجم الكبير والأوسط للطبراني والمستدرك للحاكم وغيرها إلَّا أنه كان لصحيح البخاري وصحيح مسلم أوفر النصيب، وعزوت الحديث إلى مصادره في الهامش ذاكراً في ذلك الجزء والصفحة ورقم الحديث، وما ذلك إلَّا محاولة لتكون الدراسة موثقة قدر الإمكان.

٤ ـ اعتمدت على أمهات المصادر القديمة لترصين البحث مع الاستفادة من المصادر الحديثة، فالقديمة مثل أدب الدنيا والدين للماوردي المتوفى (٤٥٠هـ) وكتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين

للراغب الأصفهاني، المتوفى (٥٠٠هـ)، وإحياء علوم الدين، وميزان العمل والأربعين في أصول الدين للإمام الغزالي المتوفى (٥٠٥هـ)، ومفتاح دار السعادة، ومدارج السالكين، وزاد المعاد لابن قيم الجوزية المتوفى (٧٢٨هـ) وغيرها من المصادر القديمة. أما بالنسبة للكتب الحديثة فمنها: إسلامنا للسيد سابق، أصول الدعوة، والسنن الإلهية في الأمم والجماعات، والأفراد في الشريعة الإسلامية د/ عبد الكريم زيدان، والعبادة في الإسلام/ د. نظام الدين عبدالحميد، وجدد حياتك للشيخ محمد للغزالي، والإيمان والحياة للقرضاوي، وصلاح الأمة في علو الهمة لسيد بن حسين العفاني وهو عشرة مجلدات وغير ذلك من المصادر والمراجع.

هذه هي الخطوات المنهجية التي اتبعتها وإن كان هناك بعض الخطوات لم أذكرها وما ذلك إلّا خوف الإطالة، وكما هو معروف بأن كل باحث لا بد من أن يواجه الكثير من المتاعب والصعوبات أثناء كتابة البحث.

أما الصعوبات التي واجهتني في أثناء البحث فأهمها ما يأتي:

١ ـ ضيق الوقت بعد الانتهاء من الدراسة إذ أن مثل هذه المدة القصيرة لا تكفي لمثل هذا الموضوع الطويل وهذا ما جعلني أعاني متاعب كثيرة نظراً للآتي:

أ ـ سعة الموضوع وتشعبه، وصعوبة اختصاره فهو أكبر من أن يكون بحثاً تكميلياً، وهذا ما جعلني أتأخر هذه المدة وما ذلك إلَّا لكي أعطي الموضوع حقه كوني باحثاً على مرحلة دراسات عليا.

ب ـ تناثر المادة العلمية وسط روايات الخبر مع طولها إذ كان هذا هو منهج الأقدمين.

٢ ـ الظروف القاهرة التي مرّ بها بلدي الثاني العراق الحبيب من جراء الاعتداء بالغزو الغاشم من قبل أعداء الأمة الإسلامية أمريكا وإنجلترا، فأسأل الله تعالى أن يرفع عنهم هذه الغمة، وهذا بدوره قد أثر على كل الدارسين بجميع المراحل.

خطة البحث:

وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة وستة فصول:

الفصل الأول: مفهوم السعادة الحقة، وحقيقتها، وحاجة الناس اليها، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم السعادة لغة، واصطلاحاً.

المبحث الثاني: حقيقتها.

المبحث الثالث: حاجة الناس إليها؟

الفصل الثاني: أصناف الباحثين عن السعادة. ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ.

المبحث الثاني: الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

المبحث الثالث: التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ.

المبحث الرابع: الأولياء، والعلماء، والدعاة.

الفصل الثالث: أصناف الباحثين عن السعادة الوهمية ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: صنف بحث عنها وحصرها في جانب معين.

المبحث الثاني: صنف بحث عنها في مجالات شتى.

الفصل الرابع: أقسام السعادة في رأي بعض علماء السلوك: ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد

المبحث الأول: رأي الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ.

المبحث الثاني: رأي الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ.

المبحث الثالث: رأي الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ.

المبحث الرابع: استنتاج الباحث ورأيه.

الفصل الخامس: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة. ويشتمل على أربعة مباحث

المبحث الأول: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة الروحية.

المبحث الثاني: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة البدنية.

المبحث الثالث: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة الخارجية.

المبحث الرابع: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة التوفيقية.

الفصل السادس: منغصات السعادة وطرق علاجها ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: منغصات السعادة.

المبحث الثاني: علاج المنغصات ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: الإيمان واتباع سنة النبي ﷺ وأثرهما في الوصول إلى السعادة.

المطلب الثاني: تعهد العبد نفسه بالطاعات، وأثرها في سعادته وسعادة العباد في الدارين وقد اخترت منها ما يأتي:

أولاً: الصلاة .

ثانياً: الصيام.

ثالثاً: الزكاة.

رابعاً: الحج.

أما الخاتمة: فقد أوجزت فيها أهم الاستنتاجات والتوصيات التي توصلت إليها وأخيراً فهذا جهدي المتواضع لا أدعي أنني قد أعطيت الموضوع حقه وأشبعته نظراً لطوله وضيق الوقت والظروف التي طرأت فالكمال لله سبحانه وتعالى، وحسبي أنني بذلت ما في وسعي لإخراج هذا البحث في الصورة المطلوبة فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي

فأستغفر الله وأسأله تعالى أن يجعل جهدي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة إنه سميع مجيب.

والله الموفق

المؤلف

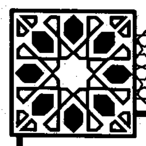

الفصل الأول

مفهوم السعادة، وحقيقتها، وحاجة الناس إليها

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم السعادة لغةً، وإصطلاحاً.

المبحث الثاني: حقيقتها.

المبحث الثالث: حاجة الناس إليها.

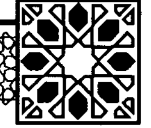

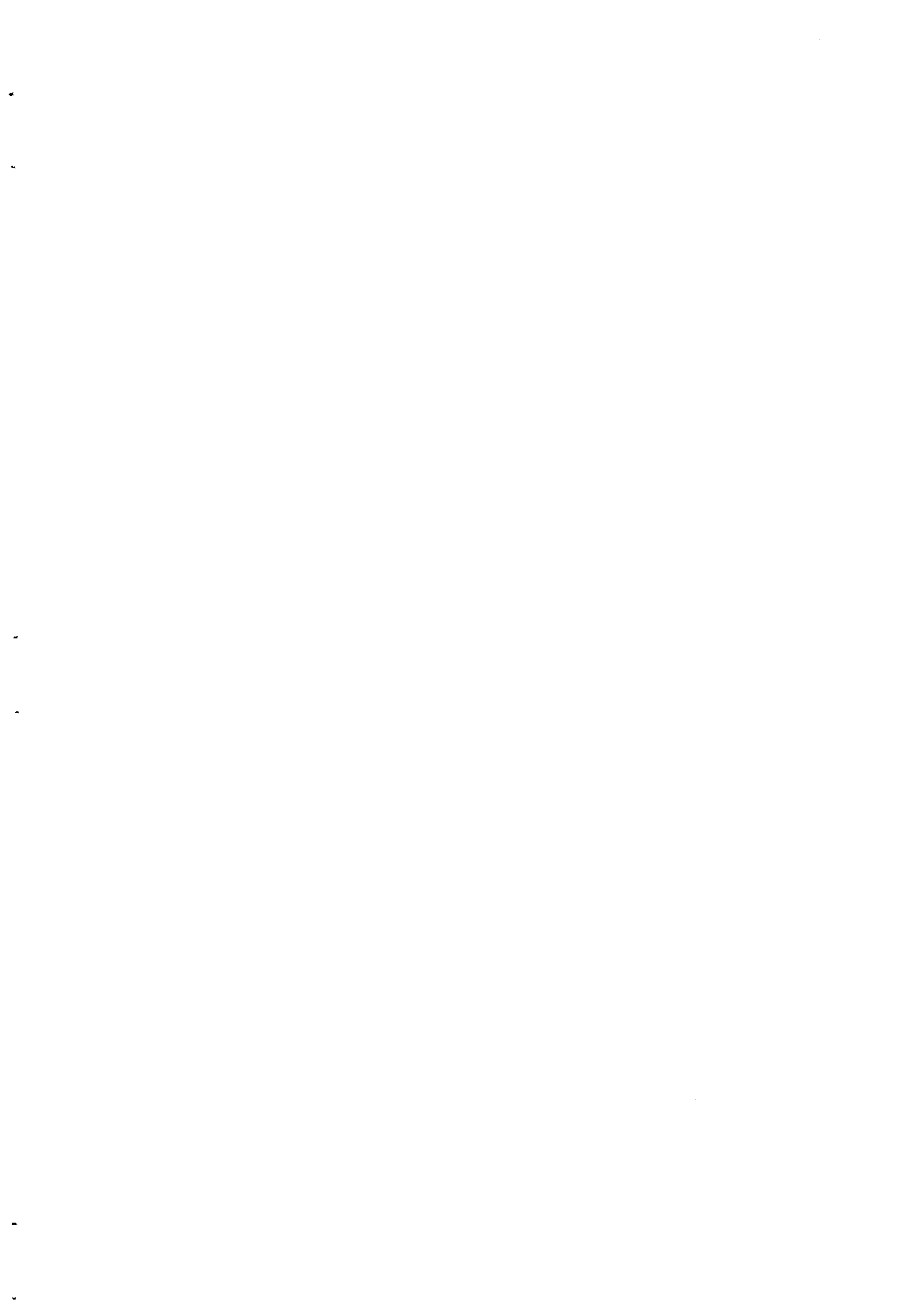

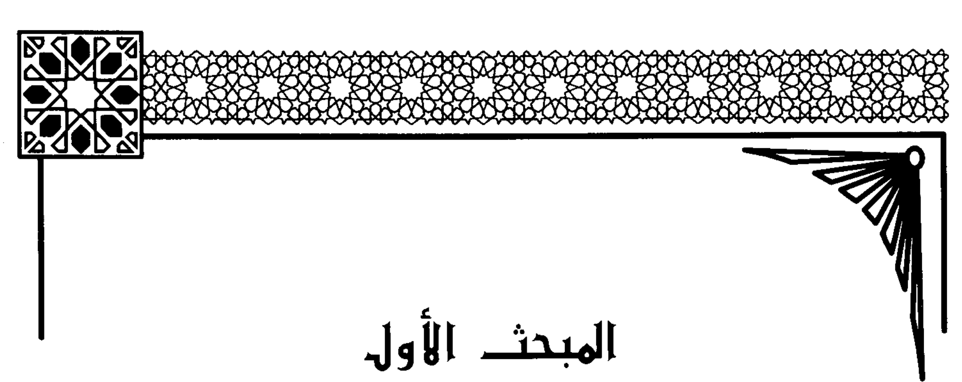

المبحث الأول

مفهوم السعادة وحاجة الناس إليها

أولاً: السعادة لغةً

عرف اللغويون السعادة لغةً فقالوا: من سعد، والسعد: اليمن تقول (سعد) يومنا من باب خضع، وهو نقيض النحس، والسعودة: خلاف النحوسة والسعادة خلاف الشقاوة، يقال: يوم سُعْد ويوم نحس، وقد سعد يسعدُ سعداً وسعادةً، فهو سعيد نقيض شقي مثل سلم فهو سليم، أو سُعد بالضم، فهو مسعود والجمع سُعداء والأنثى بالهاء[1].

والإسعاد: المعونة. والمساعدة: المعاونة في كل شيءٍ، والإسعاد لا يكون إلّا في البكاء خاصةً[2] وساعده مساعدةً وساعده وأسعده أعانهُ

---

(١) ينظر: معجم (مجمل اللغة) مادة (سعد)، أحمد بن فارس ـ أبي الحسين بن زكريا اللغوي ت(٣٩٥هـ): ٤٦١/٢، تحقيق/ زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط(ب: ت).
ولسان العرب ـ أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري: ت(٧١١هـ) مادة (سعد): ٢١٣/٣ ـ ٢١٤، دار صادر ـ بيروت، ط٢ (ب: ت).
ومختار الصحاح ـ محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي ـ مادة (سعد)، مكتبة لبنان، ط(١٩٨٧).

(٢) مجمل اللغة، مادة (سعد): ٤٦١/٢.

وسعديك من قولك لبيك وسعديك أي: إسعادٌ لك بعد إسعاد... ثم مساعد وإسعاداً لإمرك بعد إسعاد، وساعدتُ طاعتك مساعدة بعد مساعدة وإسعاد بعد إسعاد[1]، وأصل الإسعاد والمساعدة: متابعة العبد أمور ربه ورضاه[2].

ثانياً: السعادة إصطلاحاً:

لقد تتبعت أثناء البحث بكل دقةٍ في كثير من المصادر الإسلامية القديمة لعلماء السلف علّي أجد عدة تعريفات للسعادة ولكني لم أجد سوى تعريف واحد قال به أكثر من عالم، ولعل السبب في عدم وجود أكثر من تعريف يرجع إلى أن السعادة المنشودة لديهم تتمثل في اتباع الأوامر الإلهية في الدنيا من أجل نيل السعادة المنشودة في الآخرة. كما وجدت أن التعريف الاصطلاحي عند من عرفها من علماء السلف يقرب جداً لتعريف أهل اللغة الآنف الذكر.

فالراغب الأصفهاني يعرفها بقوله: السعادة: «هي معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير ويضادها الشقاوة»[3]، وقال ابن علان بمثل هذا التعريف[4] وذكر الألوسي في تفسيره ما قاله الراغب أيضاً[5] وبمثل هذا قال مصطفى زين الدين الألوسي[6] هذا ما قاله بعض علماء

---

(١) لسان العرب، مادة (سعد): ٣/٢١٤.

(٢) تاج العروس ـ محب الدين أبي فيض محمد مرتضى الحسين الواسطي الزبيدي، مادة (سعد): ٣٧٦/٢، دار الفكر، بيروت، ط(ب:ت).

(٣) المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني ت(٥٠١هـ)، باب (سعد)، الطبعة اليمنية، مصر، ط١(١٣٠٦هـ)

(٤) ينظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ـ محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي المتوفى سنة (١٠٥٧هـ): ٩/٤، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط: (ب:ت).

(٥) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ شهاب الدين محمد الألوسي ت (١٢٧٠هـ): ١٢٦/١٢ إدارة الطباعة المنيرية ـ مصر، ط: (ب:ت).

(٦) ينظر: كليات البقاء ـ مصطفى الدين الألوسي، ص٢٠٦، بدون دار نشر، ط: (١٢٨١هـ).

السلف عن تعريف السعادة، ولو تتبعنا ما قاله بعض أهل العلم المعاصرون فالحقيقة أن هناك وجهات نظر مختلفة في تعريف السعادة، فقد عرفها كل معرف حسب مفهومه لكنها تكاد تتفق في معانيها وإن اختلفت في صياغة ألفاظها كما سنبين فيما يأتي: فقد عرّفها العلامة محمد أحمد جاد المولى بقوله: (السعادة هي راحة البال) ثم فسر ذلك قائلاً: «أقصد بالبال: القلب النقي، والضمير الحي، والوجدان الحساس والنفس اللوامة التي أقسم الله بها في سورة القيامة»[1] وفي موطن آخر من كتابه عرّفها بتعريف آخر بقوله: «السعادة: في القناعة، بل لا أكون مغالياً إذا قلت: إن السعادة هي القناعة، والقناعة هي السعادة، لأن الغاية من القناعة غرس الطمأنينة في النفس في كل شيءٍ في السراء والضراء، والشدة والرخاء، وهذه الطمأنينة هي عين السعادة لأننا عرَّفنا السعادة بأنها: راحة البال»[2].

وعرفها الدكتور جميل صليبان قائلاً «السعادة ضد الشقاوة وهي: الرضا التام بما تناله النفس من الخير»[3] وعرّفها الشيخ القرني قائلاً: «السعادة: سلوة خاطر بحقٍ يحمله وانشراح صدرٍ لمبدأ يعيشه، وراحة قلبٍ لخير يكتنفه»[4].

ومن الكتّاب المعاصرين في مجال الدعوة إلى الله الأستاذ عمر محمود عبدالله[5] فإنه يرى أن عقلاء البشر لم تتفق على تعريف دقيق

(١) الخلق الكامل ـ محمد أحمد جاد المولى: ٢٢٩/١، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ، دار قتيبة ـ دمشق، ط: (ب:ت).

(٢) المصدر نفسه: ٤٣٣/٣.

(٣) المعجم الفلسفي: ص٦٥٦، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ لبنان، دار الكتاب المصري ـ القاهرة ط: (ب:ت).

(٤) لا تحزن ـ د. عايض بن عبدالله القرني: ص٢٣٢، مكتبة ابن تيمية القاهرة ط٢: (١٤١٨هـ ـ ١٩٨٩م).

(٥) من الكتّاب المشهورين في العراق ـ محافظة الموصل.

للسعادة حيث قال: هناك أجوبة كثيرة ووجهات نظر مختلفة نستطيع أن نوجز تلك المقولات بالقول الآتي: «إن السعادة شعور بالرضا عن الذات، صحبه شعور بأن هذا الإنسان له مبرر لوجوده وخير لنفسه وللآخرين»[1] وقد جعل هذا التعريف رداً على من يرى أن السعادة عند كثير من الناس هي: الإفلات من دائرة الحرمان لكل حاجةٍ افتقدها الإنسان باختلاف تلك الحاجات.

هذا ما استطاع الباحث الحصول عليه من تعريفات اصطلاحية للسعادة من وجهات نظر مختلفة. بينما هناك من يعترض وينتقد على من حدد للسعادة تعريفاً. وهو الأستاذ خالد رشيد الجميلي لأنه يرى أنه ليس بالإمكان لأحد تعريف السعادة مطلقاً[2] وبناءً على التعريفات الآنفة الذكر فقد أيد الباحث كل من حاول أن يعرف السعادة وهذا مما جعله يهتدي بدوره إلى تعريف يعتقده أقرب إلى الصواب قائلاً: السعادة هي: شعورٌ نفسي يصحبه رضاً يجده المرء عند توفيقه بين مصالحه الدنيوية والأخروية وفق ضوابط شريعة الإسلام.

(١) مجلة الفتوى (إسلامية ثقافية، شهرية): ص٩، دار الأنبار ـ بغداد المتنبي ـ العدد (١١) رجب ١٤٢٣هـ مقال بعنوان (مفهوم السعادة).

(٢) مجلة التربية الإسلامية، حيث قال: (السعادة عرض لا يمكن تحديده وهي بحرٌ لا قرار له وإن أردنا أن نتفق على معناها فلزاماً علينا أن لا نتفق...)، العدد السادس للسنة الثامنة، دار التربية الإسلامية ـ بغداد ـ الكرخ، محرم الحرام (١٣٨٦هـ ـ مايس ١٩٦٦م)، مقال بعنوان: (السعادة، والشقاء في ضوء العقيدة الإسلامية)..

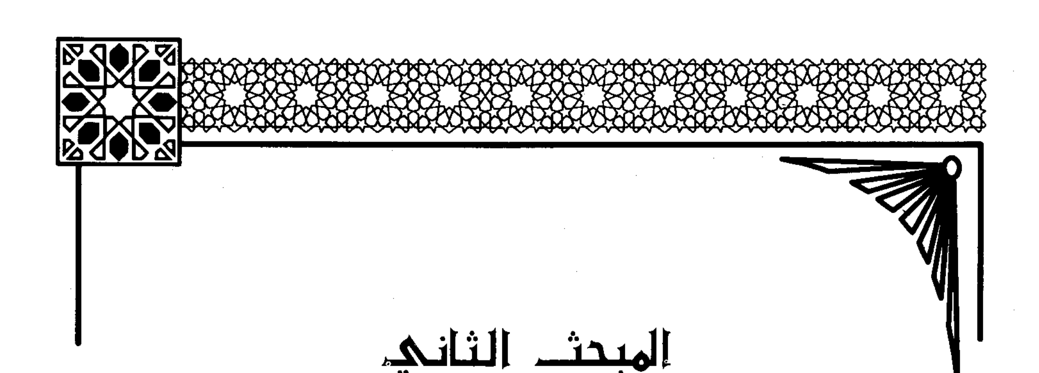

المبحث الثاني

حقيقة السعادة

إن نعم الدنيا وإن كانت لا تحصى فقد أطلق عليها سعادات إما مجازاً أو غلطاً كما يرى بعض أهل العلم يقول الإمام الغزالي - رحمه الله - (اعلم أن السعادة الحقيقية هي الأخروية وما عداها سميت سعادة إما مجازاً أو غلطاً كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة، وإما صدقاً ولكن الاسم على الأخروية أصدق)(١) ويقول الراغب الأصفهاني - رحمه الله - (والنعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات فهي كسراب بقيعة وغرور وفتنة، وعذاب كما وصفه الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾)(٢)، ثم نجد الإمام الغزالي أيضاً عندما قسم السعادة جعل في مقدمة ذلك السعادة الأخروية. أما بالنسبة لنعم الدنيا فإنه لم يطلق عليها سعادات وإنما أطلق عليها الفضائل: النفسية، والبدنية، والمطيفة بالإنسان (الخارجية)، والتوفيقية،

(١) ميزان العمل - الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد ت (٥٠٥هـ) -: ص ١٠٤، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط١ (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).

(٢) يونس: (٢٤)، وينظر: تفصيل النشأتين وتحقيق السعادتين - الراغب أبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب الأصفهاني ت (٥٠٠)، مطبعة الفرقان - صيدا (ب:ت).

قلت وما ذلك إلّا من باب الورع والزهد عن الدنيا على الرغم أنه قد ورد ذكر السعادة الدنيوية في السنة النبوية كما جاء في الحديث: «**من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهني**»[1] وجاء في حديث آخر: «**من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح**»[2].

وهناك أحاديث أخرى وهذا إن دل إنما يدل على أنه توجد سعادة دنيوية لكن لعل ذلك من باب المجاز كما تفضل الإمام الغزالي، كالحسد المباح الذي يقصد به الغبطة، فعلى كل حال فإن السعادة الدنيوية لا تساوي شيئاً بالنسبة لسعادة الآخرة التي أعد الله للمؤمنين فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم إن المقصود بهذه السعادة هو كل ما يفرح الإنسان ويدخل عليه السرور بحيث يصبح سعيداً، فلو أننا تطلعنا في صفحات هذا الكون، وما أودع الله فيه من آيات بينات وواضحات ومن أسرار لم يتم اكتشافها إلى وقتنا الحاضر على الرغم من التقدم العلمي للإنسان لوجدنا أن هذه النعم العظيمة التي لا تعد ولا تحصى ما خلقها الله سبحانه وتعالى إلّا لإسعاد الإنسان يقول الراغب الأصفهاني: «وللإنسان سعادات أبيحت له وهي النعم المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[3]، ثم قال: وجميع النعم والسعادات على القول المجمل ضربان: ضرب دائم لا يبيد ولا يحول وهو النعم الأخروية، وضرب يبيد ويحول وهو النعم الدنيوية»[4] قلت: أما نعم الدنيا فكل الناس فيها مشتركون

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المتوفى (٢٥٦هـ): ١/٥٤ رقم (١١٦)، تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط٣: (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م) عن نافع بن عبدالحارث.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك ـ محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري المتوفى (٤٠٥هـ): ١/١٥٧ رقم (٢٦٤٠)، تحقيق/ مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، عن سعد بن مالك وقال صحيح الإسناد.

(٣) إبراهيم: (٣٤)، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: ص ٤٣.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٣.

وإن كان هناك تفاوت بين الناس فتلك سنة الله يرزق من يشاء بغير حساب ويرفع أهل العلم درجات عن الجاهلين، ويفضل بعضهم على بعض في الرزق، لكن مصير سعادات الدنيا ولو تعددت معرضة للزوال، وإن من أعظم النعم التي منَّ الله بها على الإنسان هي نعمة العقل الذي جعله في أعلى هذا الجسم المادي كحاكم عادل يميز بين الخير من الشر والحق من الباطل والتفريق بين الأفعال من حسنها وقبيحها فإن أرشده العقل إلى طريق الخير والحق والأفعال الحسنة وجد السعادة فيها وإن سلك طرق الشر والباطل والأفعال القبيحة وجد عكس ذلك فالإنسان مخيّر فيما يقدر عليه ومسيّر فيما لا يقدر عليه، وعلم الله سابق لا لاحق يعلم تصرفات عباده فيعلم من سيسلك سبل الهداية كي يحصل على السعادة في الدارين ويعلم من سيسلك سبل الضلال والغواية فتحصل له الشقاوة. لذلك جاء في الحديث عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ـ وهو الصادق المصدوق ـ: «**يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله عز وجل إليه ملكاً من الملائكة فيقول: اكتب عمله وأجله ورزقه واكتبه شقياً أو سعيداً، ثم قال: والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبين الجنة غير ذراع ثم يدركه الشقاء فيعمل بعمل أهل النار فيموت فيدخل النار.** ثم قال: **والذي نفس عبد الله بيده إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبين النار غير ذراع ثم تدركه السعادة فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت فيدخل الجنة**»[(١)].

فهذا هو حال الإنسان في علم الله سبحانه وتعالى. إما من أهل

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١١٧٤/٣ رقم (٣٠٣٦)، تحقيق/ د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير ـ اليمامة ـ بيروت، ط٣ (١٤١٦هـ ـ ١٩٨٧م)، ومسلم في صحيحه ـ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ـ، المتوفى (٢٦١هـ): ٢٠٣٦/٤، ورقم (٢٦٤٣) تحقيق/ محمد فؤاد عبدالباقي، دار الحرمين ـ القاهرة، ط: (١٤١٥هـ).

الشقاء، وأما من أهل السعادة، إذاً فما على الإنسان المسلم إلَّا أن يستخدم هذه الوسيلة التي أمده الله بها المتمثلة في العقل فيما يعود عليه بالنفع لنيل السعادة في الدنيا من أجل نيل السعادة الأبدية في الآخرة قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[1]، أي طريق الخير وطريق الشر. وقد جاء في الحديث «... وكلٌ ميسَّرٌ أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء»[2] قلت: وهذا أيضاً هو حال من استهوت نفسه سبل الشقاوة وحال من استهوت نفسه سبل السعادة فإن الناس على هذه الدنيا ثلاثة أصناف: صنف بحث عن السعادة في الدنيا من أجل سعادة الآخرة فأسعد نفسه وأسعد الآخرين وهم الأنبياء والأولياء والعلماء والدعاة إلى الله والصالحون وصنف بحث عن السعادة من أجل الدنيا فحصرها في جانب معين من جوانب الحياة فانقلبت سعادته شقاوة فخسر الدنيا والآخرة، كالنمرود وفرعون وهامان والوليد بن المغيرة وغيرهم، وصنف حصر السعادة في جانب معين من جوانب الحياة وجعل ذلك معياراً لها وصنف بحث عنها في مجالات شتى من مجالات الحياة كما سنوضح ذلك في الفصل القادم الذي هو بعنوان (أصناف الباحثين عن السعادة الوهمية) وعلى كل حال فمن أراد السعادة الحقيقية في الدنيا فليطلبها من ينابيع الشرع الإسلامي كما طلبها الرعيل الأول من الصحابة والتابعين الذين وجدوها في الإيمان بالله والتقوى واتباع منهج الإسلام كما جاء عن النبي ﷺ ولا يعني أن طريق الإيمان بالله والتقوى لنيل السعادة أن يأخذ المسلم نفسه بالشدة والحرمان من لذَّات الدنيا الحلال على الدوام فهذا ليس من منهج الإسلام فقد كان بعض صحابة رسول الله ﷺ والتابعين يزهدون عن

---

(١) البلد: (١٠).

(٢) رواه الترمذي في سننه ـ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي ـ المتوفى (٢٠٩هـ): ١١٧٤/٣، رقم (٣٠٣٦)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط: (ب:ت)، وأحمد في مسنده ـ أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني ـ المتوفى (٢٤١هـ): ٢٠٣٦/٤، رقم (٢٦٤٣)، مؤسسة قرطبة ـ مصر، ط: (ب: ت).

كثير من متع الدنيا رغم امتلاكهم لها طمعاً في بلوغ الدرجة السامية طمعاً في نيل السعادة العظمى المطلقة في الآخرة وليس لأن ذلك كان واجباً عليهم فشريعة الإسلام مرنة قد أباحت التنعم بالطيبات من الرزق في غير سرف ولا تبذير ودون تجاوزٍ لحدود تعاليم الإسلام ومبادئه فلا مانع في أن يساير المسلم عصره الحاضر وتقنياته الخدمية للإنسان وفق منهج الشرع الإسلامي وضوابطه وليس حراماً أن يتمتع بالأكل الطيب واللبس الجميل لأن (حرمان الإنسان نفسه أو جسده من الطيبات والمتع الحلال ليس من منهاج الإسلام وإنما منهاجه الاعتدال، فإذا وجد الإنسان أو تيسر له شيء من الطيبات بطريق الحلال أخذه وتناوله ولا يقدح ذلك في تعلقه بمثالية الإسلام، وإذا لم يجده لم يأس عليه، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ وفي كتاب الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾[1]، فالمطلوب لبلوغ الكمال تقوى الله تعالى وليس تحريم الطيبات وحرمان النفس والجسد منها، ومع هذا فقد يسوغ أو يندب أو يجب أخذ الإنسان نفسه بالشدة، وخشونة العيش، ورضاه بالضيق، إذا كان ذلك لغرض مشروع أو مقصد نبيل أو لسبب مقبول، كما لو كان المسلم في القدوة أو بسبب إيثار الغير على نفسه أو بسبب امتناعه عما لا يجوز، فيتعرض إلى ما ذكرنا، وعلى هذا الأساس يجب أن نفهم سيرة أسلافنا الصالحين وما روي عنهم من أخذ نفوسهم بالشدة وامتناعهم عن كثير من طيبات العيش ونعومته)[2]. قلت: فإن هذا السلوك الذي سلكوه ليس بخلاً على أنفسهم وأهاليهم وإنما لترويض النفس على الزهد والتقشف وإنفاق المال في وجوه البر، من تفريج كربة مكروب، وإدخال السرور في قلوب المحتاجين، وهكذا كان حالهم وبهذا نكتفي من الحديث عن حقيقة السعادة.

---

(١) المائدة: (٨٧).

(٢) أصول الدعوة ـ د. عبد الكريم زيدان: ص٧٣، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٣: (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م).

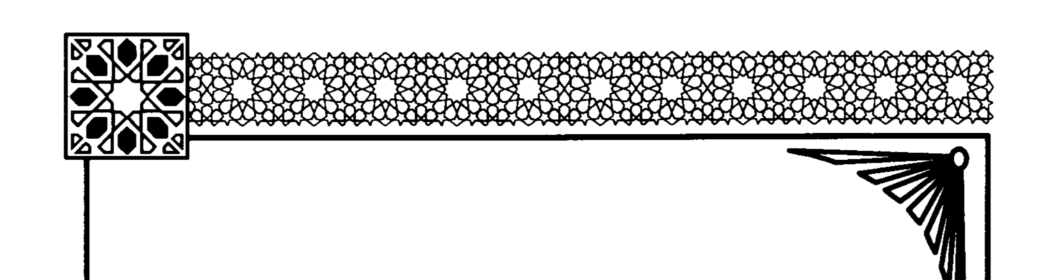

المبحث الثالث

حاجات الناس إلى السعادة

إن للسعادة أهمية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع فهي سر الحياة ونور بهجتها في الدارين وبالذات حين تطلب وفق المنهج الذي يريده الله، لأنه سبحانه وتعالى خلق عباده وتكفل بأرزاقهم وفضل بعضهم على بعض في ذلك، ومن ثَم إسعاد من يريد السعادة في الدنيا والآخرة، لذلك نجد أنه سبحانه وتعالى قد أسبغ عليهم نعمه ظاهرةً وباطنة، فكل نعمةٍ من نعم الله تعد مصدر إسعاد ومصادر إسعاد الله لعباده كثيرة لا تعد ولا تحصى وما ذلك إلَّا لحاجة عباده إليها لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ولا عن بعض الضروريات منها قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1]، وقد جعل الله جميع الناس مشتركين في بعض مصادر الإسعاد من النعم التي تؤدي إلى بقاء النوع الإنساني الصالح منهم والطالح لكنه وعد الذين سخّروا عقولهم في العمل بمقتضى منهج الله من طاعة وعبادة وعدهم بالسعادة العظمى في الآخرة بما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر لأن نِعَم الدنيا كلها زائلة يقول: الراغب

---

(١) إبراهيم: (٣٤)، النحل: (١٨).

الأصفهاني: «والنِّعم الدنيوية متى لم توصلنا إلى تلك السعادات فهي كسراب بقيعة وغرور وفتنة وعذاب كما وصفه الله تعالى في كتابه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

وما أصدق قول الشاعر:

إنما الدنيا كرؤيا أفرحت ... من رآها ساعةً ثم انقضت[2]

إذاً فالله سبحانه وتعالى قد جعل الناس كلهم مشتركين في النعم الدنيوية التي تدخل السرور والبهجة في نفس الإنسان، فتكون مستمرة في نفس المؤمن بسبب إيمانه، أما غير المؤمن فلا. لأن المؤمن عندما ينظر إلى كل منظر من مناظر هذا العالم فإنه يرى ذلك سبباً من أسباب الابتهاج والسرور المؤدي إلى السعادة وهي كثيرة:

منها: السماء وما صنع الله فيها من أسرار عجيبة فلو تأملنا في هذه القبة الزرقاء التي فوق رؤوسنا وما أودع الله فيها من بدائع صنعه مرفوعة بلا عمد، لرأينا العجاب وقوى إيماننا فإنه قادر صانع حكيم، وبأنه ما أودع في هذه القبة من شمس وقمر ونجوم وكواكب ولوّنها بهذا اللون إلّا لحكمة عظيمة لتهتدي مخلوقاته بضيائها الذي بدوره يدخل السرور عليهم في الليل والنهار، وكل هذه الأجرام السماوية تؤدي وظيفتها بحركةٍ مستمرة منظمة دقيقة ليلاً ونهاراً دون توقف ودون أن يصطدم كوكب بآخر ولا نجم بآخر وإنما الكل يدور في فلكه بنظام هندسي دقيق فسبحان الصانع الحكيم، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3]، «فإشراق الشمس مشهد عجيب، يغري بإمتاع النظر إليه وكذلك الغروب منظر يأخذ بمجامع القلوب، وصحو السماء يدعو إلى التأمل، والابتهاج، وكذلك تلبدها بالغيوم، ونزول الأمطار، وهكذا قل في مناظر القمر وضوئه الفضي

---

(١) يونس: (٢٤).

(٢) تفصيل النشأتين، وتحصيل السعادتين، ص٤٣.

(٣) يس: (٤٠).

اللطيف كل ذلك يفيد الأنظار وبجلب المسرة، ويدعو إلى الفكرة والعبرة»[1].

ومنها: خلق الله الليل والنهار وما ذلك إلّا لحكمةٍ فالليل للنوم والراحة والسكن، والنهار للعمل والبحث عن الأرزاق قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾[2].

ومنها: نعمة الماء الذي ينزل من السماء، فهو أساس حياة كل مخلوق قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[3]. كذلك خلقه للقيعان التي تحتوي هذه المياه من بحارٍ وأنهار وعيون كل ذلك من أجل إدخال البهجة والسرور على الإنسان.

ومنها: خلق هذه الأرض وجعلها ممهدة وجعل فيها رواسي لكي لا تهتز وتضطرب وزينها بالأشجار الخضرة «فكم يشعر المرء بعظم الحبور في مرأى البحار المضطربة والساكنة، وفي مشاهدة الجبال الراسيات والقمم الشاهقات والوديان، والوهاد، والمرتفعات والأنجاد، والسهل، والصعب، والحزن والوعر، والأشجار المورقة والأزهار المونقة ذات الروائح العطرة التي إذا تضوعت أنعشت الإنسان، وطيبت ما يستنشقه من هواء»[4]، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ۝٣٥﴾[5].

ومنها: سنة التزاوج للاستمتاع وتكثير النسل قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ

---

(١) الخلق الكامل ـ ٤٣٦/١.

(٢) النبأ: (١٠، ١١).

(٣) الأنبياء: (٣٠).

(٤) الخلق الكامل ـ ٤٣٧/١.

(٥) يس: (٣٣ ـ ٣٥).

﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، هذه بعض من نعم الله تعالى التي تفضل بها على عباده لإدخال البهجة والسرور عليهم في هذه الدنيا بل لقد ورد ذكر معظم هذه النعم في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

ومنها: بعثة الأنبياء والرسل الذين لم يبعثهم الله سبحانه وتعالى إلا بالسعادة الحقيقية التي ارتضاها لعباده المتمثلة في العبادة له وحده والطاعة والانقياد لأوامره قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾[4].

ومنها: ما هو أعظم سبب للسعادة وهو بعثة نبينا محمدٌ -ﷺ- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[8]، هذه بعض نعم الله التي جعلها كمصادر لإسعادهم بها. بل إن

---

(١) الروم: (٢١).

(٢) إبراهيم: (٣٢ ـ ٣٤).

(٣) النحل: (٣٦).

(٤) النساء: (١٦٥).

(٥) الأنبياء: (١٠٧).

(٦) الشورى: (٥٢).

(٧) المائدة: (١٦).

(٨) الأعراف: (١٥٧).

شريعة الإسلام التي بعث بها سيدنا محمد - ﷺ - مليئة بينابيع السعادة للدارين، فطوبى لمن استقى من ينابيعها كي يسعد في الدنيا والآخرة، كما سنبين ذلك في فصل الفضائل المكملة لتحقيق السعادات إن شاء الله. كذلك نجد أن شريعة الإسلام جاءت متضمنة لجميع مصالح العباد وما ذلك إلَّا لإسعادهم وهي ثلاثة أنواع:

المصالح الضرورية، والحاجية، والتحسينية، وقد شرع الإسلام من الأحكام ما يحقق هذه المصالح ويحفظها فيتحقق للناس سعادتهم في الدنيا والآخرة[1]، «فالمصالح الضرورية هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال، أما الحاجيات، فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر والسعة في عيشهم وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وحرج، وأما التحسينات فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق، وإذا فاتت خرجت حياة الناس عن النهج القويم الذي تقضي به الفطرة السليمة والعادات الكريمة»[2] وأحكام الشريعة كلها تحقق وتحفظ مصالح الناس المتعلقة بالضروريات والحاجيات والتحسينات. فبالنسبة للضروريات شرع للدين - لإقامته وتحقيقه - العبادات وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة المرتد، وزجر من يفسد على عقيدتهم، والنفس شرع لإيجادها النكاح، وشرع لحفظها القصاص على من يعتدي عليها وتحريم إلقاء النفس بالتهلكة ولزوم دفع الضرر عنها. والعقل شرع لحفظه تحريم الخمر وعقوبة شاربها والنسل شرع لإيجاده الزواج، وشرع لحفظه عقوبة الزنى والقذف، وحرمة إجهاض المرأة الحامل. والمال شرع لتحصيله أنواع المعاملات من بيع وشراء ونحو ذلك وشرع لحفظه حرمة أكل مال الناس بالباطل أو إتلافه بلا وجه سائغ مشروع والحجر على السفيه، وتحريم الربا وعقوبة السرقة. وبالنسبة للحاجيات شرعت لها

---

(١) ينظر: أصول الدعوة. ص٣٠٢.

(٢) ينظر: أصول الدعوة: ص٣٠٢.

الرخص عند المشقة، وشرع الطلاق للخلاص من حياة زوجية لم تعد تطاق، وشرعت الدية في القتل الخطأ على عائلة القاتل، وفي التحسينات شرعت الطهارة للبدن والثوب، وستر العورة، وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهي عن بيع الإنسان على بيع أخيه والنهي عن قتل الأطفال والنساء في الحروب، فاستقراء نصوص الشريعة يدل على أن الإسلام ما قصد بتشريعه الأحكام للناس إلّا لحفظ هذه الضروريات والحاجيات والتحسينات وهذه هي مصالحهم في الدنيا والآخرة[١].

إذاً فالذي يحتاج السعادة فعليه باتباع الشريعة يقول العلامة ابن عبدالسلام: (السعادة كلها في اتباع الشريعة في كل ما ورد وصدر ونبذ الهوى فيما يخالفها[٢]وواصل حديثه قائلاً: فقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[٣]، أي فلا يضل في الدنيا على الصواب ولا يشقى في الآخرة بالعذاب. وقال ابن عباس في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٤]، الكتاب والسنة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٥]، ثم قال: ما من طاعةٍ يأتي بها الطالب على وجهها إلّا أحدثت في قلبه نوراً وكلما كثرت الطاعات تراكمت الأنوار حتى يصير المطيع إلى درجات العارفين الأبرار ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٦]، وهذا مما يعرفه المطيعون المخلصون فإذا خلّت عن الإخلاص لم يزدد العاملون إلا ظلمة في القلوب لأنهم عاصون بترك الإخلاص وإبطال ما أفسده الرياء والتصنع

(١) أصول الدعوة: ص٦٠.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام ـ عز الدين بن عبدالسلام: ١/ ١٧، تحقيق عبداللطيف حسن عبدالرحمن، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١ ـ (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

(٣) طـه: (١٢٣).

(٤) الأعراف: (٣).

(٥) الأحزاب: (٧١).

(٦) العنكبوت: (٦٩).

من الأعمال)[1]، بينما المطيعون والمخلصون فإنهم دائماً يشعرون بالمسرة وإن نالهم من منغصات هذه الحياة لانهم يعرفون ما أعد الله لهم من بديل عن ذلك في الآخرة لذلك نجد أن الرعيل الأول من الصحابة والتابعين عندما طبقوا شريعة الإسلام بحذافيرها نجد أن متاع هذه الدنيا وزخرفها وملاذها لم يلفتهم ويشغلهم عن ما هو أعظم من ذلك أي عن العلم بالشريعة في العمل بها ونشرها في أرجاء الأرض، لكنه عندما بدأ الانحراف عن مبادئ هذه الشريعة وفهمها فهماً صحيحاً كما فهمها الرعيل الأول أصبح الكثير من الناس يبحثون عن السعادة في ملاذ الدنيا ومتاعها وزخرفها وأصبح الكثير يرى أنه يفقد السعادة فهو محتاج لها لأنه جهل سر مكنونها بل أن السعادة أصبحت هي: جنة الأحلام التي ينشدها كل بشر، من الفيلسوف في قمة تفكيره، إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته، ومن الملك في قصره المشيد إلى الصعلوك في كوخه الصغير، بل أنها أمل يداعب أحلام الكبار والصغار، والرجال والنساء عبر مسيرة الحياة وهي هدف يسعى إليه الآباء والأمهات بصورة غريزية وفطرية لتوفير أسباب السعادة بتعاستها لهم ولأبنائهم والتي ربما حرموا منها ولا تجد أحد يبحث عن الشقاء لنفسه ويرضى بتعاستها[2]. إذاً الكل محتاج إلى السعادة ولكن السؤال الذي حير الكثير من قديم هو أين السعادة؟ لقد طلبها الأكثرون في غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء صفر اليدين مجهود البدن، كسير النفس، خائب الرجاء، أجل جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية، فما وجدوها ـ تحقق السعادة أبداً، وربما زادتهم ـ مع كل جديد منها، هماً جديداً[3]. بل تجد كثيراً من الناس على الرغم أنهم مسلمون عندما كثر الانحراف يقولون أين هي السعادة؟ وكثيراً من أخطأ الطريق في البحث عنها، وحصرها في جانب معين من

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ١٧.

(٢) ينظر: الإيمان والحياة ـ د/ يوسف القرضاوي: ص٧١، دار الكتب والوثائق بغداد لسنة ١٩٨٩م، مجلة الفتوى: ص٩، العدد ١١٥، مرجع سابق.

(٣) المصدر نفسه: ص٧١.

جوانب الحياة إلّا من رحمه الله فتجد كل يفسرها بما توحي به طبيعته وجبلته، وبما يمليه عليه عقله وعقيدته، وبما تطمح إليه نفسه وتتطلع إليه همته، حقاً أن الناس مختلفون في هذه السعادة الإنسانية، وقد أشكلت عليهم إشكالاً شديداً جعلهم يتفارقون في شأنها، ولا يهتدون إلى مكانها، فالفقير يرى أن السعادة العظمى في النزوة واليسر، والمريض يرى أنها في الصحة والسلامة، والذليل يرى أنها في الجاه والسلطان، والخليع يرى أنها في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها، والعاشق يرى أنها في الظفر بالمعشوق والخير يرى أنها في إفاضة المعروف على المستحقين، والبدوي الذي نشأ في الصحراء حيث صفاء السماء ورقة الهواء وتمتعه من أنواع الحريات بما يشاء يعتقد السعادة في عزة النفس ورفعتها وشرفها وسمو مكانتها يستميت في ذلك ولو رافقه شظف ورقة الحال، ويأبى الذلة كل الآباء ولو صاحبها رغد العيش وكثرة المال فهذا شاعر البادية يقول[1]:

لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

ولقد عبرت عن ذلك أبلغ تعبير تلك البدوية ميسون التي تزوجها معاوية أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ من البادية ونقلها إلى الشام، فلم يلائمها جو الراحة فعافت نفسها أرقى حياة في الحضر، وحنت إلى حياة خباء من الشعر؛ لأنها شعرت في الأولى بشيء من المذلة والإهانة، وقد ترعرعت في الثانية على كبير من العزة وسمو المكانة، قالت:

لبيت تخفق الأرياح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
وكلبٌ ينبح الطراق عني ... أحب الي من قطٍ ألوف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف[2]

(١) ينظر: الخلق الكامل: ١/ ٢٣٣.
(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١/ ٢٣٣.

إذاً نفهم من هذا أن الذي يبحث عن السعادة يجب عليه ألا يخطىء الطريق فيحصرها على جانب معين من جوانب الحياة ويجعل ذلك معياراً للسعادة، فهذه المرأة البدوية نجد أنها فضلت العيش في شظف عن الحياة الرغدة الهنية، فالسعادة لها علاقة بالجانب النفسي فالمال والرفاهية ليست مقياساً للسعادة كما تظن بعض النساء إذا أحظيت بالزواج من رجل ثري ستعيش سعيدة معه فهذا خطأ فلربما أصبح العكس وبالأخص عندما لم يكن في قلبه إيمان وتقوى ومخافة من الله فإنه لا يعرف الواجب عليه نحو زوجته، ولربما حظيت بزوج متوسط الدخل فأصبحت سعيدة والقصص الواقعية عن ذلك كثيرة[1]، وهكذا فالحياة مليئة بالمتناقضات فلا نريد أن نخرج عن عنوان الموضوع، وعلى كل حال، فقد كثر اختلاف الناس في وجهة نظرهم عن السعادة أصبح الكثير ينظر بمنظار كما رأينا. بل تجد أن الناشئ في الحضارة يرى أن السعادة في العمائر الضخمة والمراكب الفاخرة، والقناطير من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث، وقيل ليحيى بن خالد: ما السعادة؟ فقال: (سلامة الخلقة وجودة الحفظ، وذكاء العقل، والتأني في المطلوبات) بينما المتنبي يرى أن ذا العقل شقي في هذه الحياة، وأنها لا تصفو إلاَّ لجاهل أو غافل، أو مفاك نفسه حيث قال:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

وقال:

تصفو الحياة لجاهل أو غافلٍ عما مضى منها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ويسومها طلب المحال فتطمع[2]

(وقد بلغ من اختلاف الناس في نظرهم إلى السعادة أن كل مشتغل

---

(١) راجع إن شئت: لأبي القعقاع: محمد بن صالح بن إسحاق ـ قصص وعبر، قصص واقعية تربوية هادفة: ص١٩ ـ ٢٣، مطبعة النرجس ـ الرياض ط١ (١٤٢٠هـ).

(٢) ينظر: الخلق الكامل: ١/ ٢٣٣.

بناحية من نواحي الحياة ينظر إليها من تلكم الناحية، فالكاتب أو الشاعر مثلاً يرى سعادته في تأثير كلامه في النفوس وتغلغله إلى سويداء القلوب)[١]. ومنهم من يطلب السعادة من أجل نيل الشهادة لا للعلم وإنما لنيل منصب، وذاك يلتمسها في الشهرة فيقضي ساعته، في توجيه الناس إليه ليصبح معبود الجماهير وحديث الركبان، وشاغل الدنيا فيقتلعه ربك من جذوره ويمحق سعيه قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[٢].

وذاك يظن أن السعادة في الفن المتهتك الخليع الماجن، فيدغدغ الغرائز ويلعب بالمشاعر، ويفتن القلوب، ويسكب الغرام في النفوس فيحمّله الله ذنوب من أغواهم، دون أن ينقص من ذنوبهم شيئاً[٣]. والحديث ذو شجون عن اختلاف الناس في البحث عن السعادة كما رأينا، ولكن نكتفي بهذا القدر لننتقل إلى معرفة السعادة الحقيقية أين توجد لمن يبحث عنها؟ أين مكانها ما أنواعها وينابيعها؟ من الذي جاء بالسعادة وأدخلها في القلوب؟ إنه محمد ﷺ فهذا ما سيكون حديثنا عنه في الفصول الآتية.

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٣٢.

(٢) الرعد: (١٧).

(٣) ينظر: المسك والعنبر في خطب المنبر ـ د.عائض بن عبدالله القرني ـ مكتبة الإرشاد، ـ الجمهورية اليمنية ـ صنعاء ط١ (١٤١٣هـ).

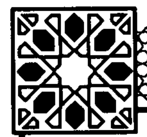

الفصل الثاني

أصناف الباحثين عن السعادة الحقة

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد.

المبحث الأول: الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ.

المبحث الثاني: ـ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ.

المبحث الثالث: التابعين ـ رضوان الله عليهم ـ.

المبحث الرابع: الأولياء، والعلماء، والدعاة.

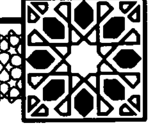

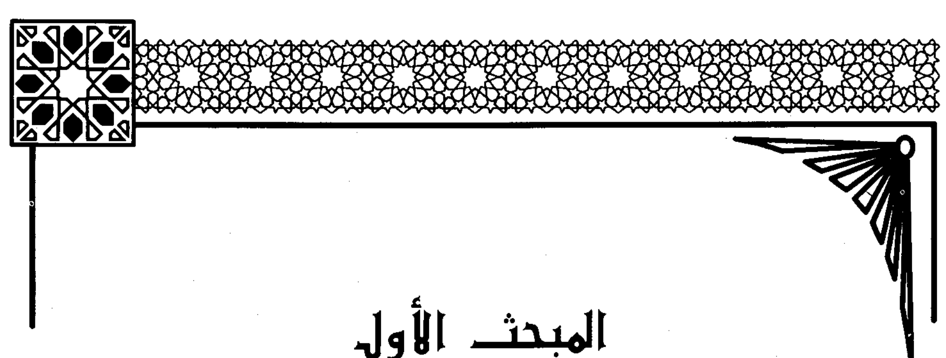

المبحث الأول

الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -

تمهيد

إن الأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والسلام - كانت حياتهم مليئة بالمواقف الثابتة على مبدأ الحق والعقيدة الصادقة، والإيمان الراسخ لأن الله اصطفاهم على سائر البشر، وكلّفهم الله بمهمةٍ عظيمة ألا وهي الدعوة إلى الله التي فيها سعادتهم وسعادة البشرية جمعاً، لذلك نجد أن نفوسهم كانت تغمرها السعادة والرضا على الرغم مما يواجهونه من الابتلاءات والمنغصات بسبب دعوتهم، لأن الهدف الذي ينشدونه أسمى وأعظم يتمثل في سعيهم الجاد في التوفيق بين مصالحهم ومصالح العباد على ضوء ما يكلفهم الله به فمصالحهم في الدنيا تنفيذ أوامر الله في هداية الأمة وإخراجها من الظلمات إلى النور بتطبيق شرع الله الذي يوحى إليهم واتباع سنتهم لأن في ذلك مصالح العباد المتمثلة في تنظيم شؤون حياتهم الذي فيه السعادة في الدنيا فضلاً عن سعادة الآخرة التي هي السعادة العظمى ألا وهي الجنة، والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[1]. فالأنبياء ذاقوا

---

(١) هود: (١٠٨).

السعادة في الدنيا في الصبر والقناعة والرضا وسيذوقونها في أعلى مراتب الجنة. فقد ذاقوها في الدنيا في شتى دروب حياتهم على الرغم مما واجهوه كما سنبين ذلك فيما يأتي مقتصرين على ذكر البعض منهم.

١ ـ نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ

إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو خليل الرحمن، وهو أبو الأنبياء، آتاه الله الرشد منذ صغر سنه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[1]. فلقد كان هذا التكريم الإلهي له كمحطة يتزود منها للبحث عن السعادة الحقة له ولذلك المجتمع الذي نشأ فيه. حتى أنه وجدها في أكثر من موطن من دروب حياته التي سلكها وهذا ما سنبينه في النقاط الآتية:

أ ـ حين اعتزل قومه

لقد بذل نبي الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ جهوداً كبيرة أثناء دعوته لقومه الذين كانوا على جهل وضلال من الشقاء عاكفين على عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ولا تغني من الله شيئاً فأراد إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يغير مسار ذلك الشقاء إلى المسار الصحيح الذي سيجدون فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة بترك عبادة تلك الآلهة، فإذا بأقرب الناس إليه والده يستنكر ما يدعوهم إليه قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾[2]. لأن إبراهيم رأى أنهم أصروا على الانحراف ففضل الاعتزال بحثاً عن السعادة.

ب ـ حين خرج من النار سالماً معافى

لقد بذل إبراهيم أكثر من أسلوب لدعوة قومه لتغيير مسار حياتهم

---

(١) الأنبياء: (٥١).

(٢) مريم: (٤٦ ـ ٤٨).

ولكنهم أصروا على عبادة تلك الآلهة. فما كان منه إلَّا أن اتخذ أسلوباً آخر تمثل ذلك عندما كسر آلهتهم. هنالك أجمعوا على إحراقه بالنار فجمعوا حطباً كثيفاً وأحرقوه حتى أصبحت ناراً مضرمة ثم رموه بالمنجنيق فيها، هنالك تتجلى العناية الإلهية بنبيه إبراهيم عليه السلام بتلك العناية التي حفته منذ صغره فأوحى الله إلى تلك النار بأن تكون برداً وسلاماً. قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾[(١)]. هنالك وجد إبراهيم عليه السلام السعادة حين انقلبت النار برداً وسلاماً، بينما القوم الذين أرادوا به المكيدة أصبحوا من الخاسرين للسعادة في الدنيا والآخرة. فهذه بعض مقتطفات لبعض المواطن التي وجد فيها السعادة.

٢ ـ نبي الله يونس عليه السلام

أصل هذا النبي من بلاد الشام أرسله الله إلى أهل (نينوى) في أرض الموصل بالعراق وكان أهل نينوى قد دخلت الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام حتى أصبحت الشقاوة تسود ذلك المجتمع فذهب يونس عليه السلام من بلاد الشام منفذاً أمر ربه لتغيير ذلك المجتمع بدعوتهم إلى الله التي فيها السعادة الحقة، فبقي معهم يذكرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله ولكنه لم يلق منهم إلَّا آذاناً صُمّاً وقلوباً غلفاً كما هو شأن المعاندين لدعوة الأنبياء والرسل من قبله ومن بعده هنالك ضاق بهم ذرعاً، ثم توعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم، ويظهر أن قومه توعدوه أيضاً وغضبوا منه ولاحقوه فأبق فاراً منهم، فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظن أن الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج ولن يضيق عليه بسبب تركه للقرية وهجره لأهلها قبل أن يؤمر بالخروج[(٢)]. قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن

---

(١) الأنبياء من: (٦٩ ـ ٧٠).

(٢) ينظر: النبوة والأنبياء ـ محمد علي الصابوني: ص٣٨٤، دار القلم ـ دمشق، ط٤: (١٤٠٩ ـ ١٩٨٩م).

لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾[1].

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف: «فلما خرج من بين أظهرهم، وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان فيهم من نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجّوا إلى الله عز وجل. صرخوا وتضرعوا، وبكى الرجال، والنساء، والبنون، والبنات، وجأرت الأنعام والدواب، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته، ورحمته عنهم العذاب الذي دار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم»[2]. هنالك وجد قوم يونس السعادة بهذه الرحمة الواسعة من الله قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ۝٩٨﴾[3]. إن الخزي الذي كان سيلم بهم في الدنيا من أعظم الشقاء فعندما تابوا وأنابوا إليه بإيمان صادق رأوا السعادة في النجاة، وبعد هذا الحديث الموجز عن قوم يونس ـ عليه السلام ـ نستأنف الحديث عن هذا النبي الكريم لنرى، إلى أي مكانٍ توجه؟ وما هو الابتلاء الذي ألم به؟ وما المواطن التي وجد فيها السعادة؟.

لقد توجه إلى شاطئ البحر فوجد سفينة على سفرٍ فطلب من أهلها أن يُركِبوه معهم فأركبوه فهاج بهم البحر عندما توسطوه فقالوا إن فينا صاحب ذنب ـ وكانت هذه عادتهم ـ فاستهموا فيما بينهم على أن من وقع عليه السهم يلقونه في البحر فوقع عليه السهم ثلاث مرات، هنالك سألوه عن شأنه وعجبوا من أمره وهو التقي الصالح فحدثهم بقصته فأشفقوا من أن يلقونه في البحر ولكنه تجرد من ثيابه وألقى بنفسه في البحر وهم يأبون عليه ذلك وكان هذا بداية الابتلاء له عليه السلام[4] وقد شاءت الإرادة الإلهية أن

---

(١) الأنبياء: (٨٧).
(٢) النبوة والأنبياء، ص: ٣٨٤ ـ ٣٨٥.
(٣) يونس: (٩٨).
(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم ـ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ت(٧٧٤): ٢١/٤، ٢٠، مكتبة دار التراث ـ القاهرة، ط: (ب: ت)، وينظر: النبوة والأنبياء، ص٣٨٥.

تلقن نبي الله يونس درساً بسبب ذلك التصرف وقد تجلت هذه الإرادة عندما أمر الله تعالى حوتاً من البحر أن يلتقم يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾[1]. لكن هذه الإرادة الإلهية رافقتها عناية الله له بالرحمة وذلك حينما أمر الله الحوت بأن لا يهشم له لحماً ولا يكسر له عظماً[2] وقد كانت هذه العناية تمهيداً للسعادات المستقبلية التي سيجدها بسبب إنابته إليه والاعتراف بذنبه فإذا به بعد ذلك يجد السعادة في مواطن عدة نذكر منها الأتي:

أ ـ في تضرعه إلى الله والدعاء وقت الشدة:

إن الإرادة الإلهية التي شاءت أن تعطي نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ درساً على تصرفه حين التقام الحوت له وانقطعت به السبل وأصبح في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، والبحر، وبطن الحوت قد رافقتها عناية الله بنبيه بأن ألهمته الدعاء بلسان ضارع حزين قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3]. وبهذا الدعاء تأتي الاستجابة الربانية فيقذفه الحوت إلى الشاطئ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[4]. ويؤكد الله سبحانه وتعالى عظمة هذه الدعوة التي ألهمه الله بها بقوله: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[5]. ولذلك جاء في الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت «لا إله إلا أنت سبحانك أني كنت من الظالمين» لم يدع بها رجل مسلم ربه في شيء قط إلا استجيب له»**[6].

---

(١) الصافات: (١٤٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢١.

(٣) الأنبياء: (٨٧).

(٤) الأنبياء: (٨٨).

(٥) الصافات: (١٤٣ ـ ١٤٤).

(٦) رواه أحمد في مسنده: ١/١٧٠، رقم (١٤٦٢)، ورواه الترمذي في سننه: ٥/٥٢٩ ورقم (٣٥٠٥)، والحاكم في المستدرك ١/٥٠٥.

⇦ ب ـ في الصحة والعافية:

لقد خرج نبي الله يونس عليه السلام من بطن الحوت منبوذاً بالعراء وهو بصحة غير اعتيادية سقيماً هزيلاً ـ لعل جلده قد ذاب بفعل التفاعل الكيميائي في بطن الحوت ـ ولم يبق عليه إلا جلدٌ رقيق، لكن العناية الالهية دائماً تحف الباحثين عن حقيقة السعادة أينما حلوا وظلوا، هنا تتواصل رعاية الله وعنايته بنبيه يونس ـ عليه السلام ـ حيث تمثلت في إنبات الله على جسده الطاهر شجرة من يقطين[1] وما ذلك إلا لكي يستعيد حيويته ونشاطه فرجع جسمه كما كان فشعر بالسعادة قال تعالى: ﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾[2].

⇦ جـ ـ في البعثة الجديدة:

وهذا موطن آخر من المواطن التي وجد فيها نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ السعادة حين كلفه ربه بأمر البعثة من جديد بأن يرجع إلى قومه الذين ذاق بهم ذرعاً من قبل ليمارس دعوته لهم، إذ توجه نبي الله يونس راجعاً إلى قومه، فإذا به يرى ما يسره حين وجدهم مؤمنين بالله تائبين إليه منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه فلبث فيهم يعلمهم ويهديهم، ويدلهم على الله، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم[3]. هنالك وجد السعادة معهم ووجدها معه قومه. وقد سجل لنا القرآن الكريم ذلك المشهد العظيم في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾[4]. أي إلى وقت آجالهم[5] هذه بعض مواطن السعادة التي وجدها نبي الله يونس ـ عليه السلام ـ.

---

(١) يقصد بشجرة (اليقطين): شجرة القرع، وتسمى (الدبا)، وقد خصت هذه الشجرة لأنه يجمع بين برد الظل ولين الملمس، وكبر الورق. وأن الذباب لا يقربه، ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤ ٢٢، وإعراب القرآن وبيانه ـ محيي الدين الدرويش: ٨ ٣١١، دار ابن كثير ـ دمشق ـ سوريا، ط٣: (١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م).

(٢) الصافات: (١٤٥، ١٤٦).

(٣) ينظر: النبوة والأنبياء: ص٣٨٥.

(٤) الصافات: (١٤٧، ١٤٨).

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢ ٢٢.

٣ - نبي الله موسى - عليه السلام -

لقد حفت العناية هذا النبي منذ صغره وهو في المهد حتى نشأ وترعرع في قصر عدّوه فرعون مصر، حين تبنته زوجته (آسيا) فعاش معهم في أرغد عيش معززاً مكرماً كما يعيش أبناء الملوك، فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس ما يلبس فرعون، بل كان الناس يدعونه (موسى بن فرعون) فيحترمونه ويعظمونه من أجل أنه ابن الملك[1]، هنا يتساءل الباحث قائلاً على الرغم من هذه الرفاهية التي عاش فيها نبي الله موسى فهل كان يشعر بالسعادة؟ وهل طال به المقام بأن يعيش تلك الرفاهية؟ حقيقة أن نبي الله موسى لم يكن يشعر بالسعادة التي ينشدها وإن كان هناك من النعيم المادي الذي يغري النفوس البشرية، فإن هناك كثير من المتاعب والآلام التي كان يعاني منها نبي الله موسى - عليه السلام - والتي منها الظلم والطغيان الذي كان يمارسه فرعون ضد بني إسرائيل فضلاً عن القمع الذي كان يأمر به من قتل أبنائهم واستحياء نسائهم وكذلك الفساد السائد في ذلك المجتمع وفوق ذلك ادعاء فرعون الربوبية أن مثل هذه الأمور لا تنسجم مع فطرة الأنبياء والصالحين بل تتناقض مع أهدافهم المنشودة، فقد كان هدف نبي الله موسى كهدف الأنبياء من قبله هو تغيير ذلك المجتمع متمنياً هلاك فرعون وحاشيته وإنقاذ بني إسرائيل وغيرهم من ظلمه وجبروته ومن ثم دعوتهم إلى الله تعالى فشاءت إرادة الله تعالى أن توجه هذا النبي الوجهة الصحيحة، فبمجرد أن بلغ أشده وهبه الله الحكم والعلم تكريماً من الله سبحانه وتعالى على سيرته الحسنة التي سلكها منذ صغر سنه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[2]. لقد كان هذا التكريم الإلهي بمثابة محطة يتزود منها بحثاً عن السعادة الحقة، وفي هذه الآونة التي بلغ أشده فيها لم يطل به المقام والعيش بمصر فلقد خرج منها فاراً من قوم فرعون كي لا يقتلوه، فذهب يلتمس السعادة

---

(١) ينظر: النبوة والأنبياء: ص ٢٣١ - ٢٣٢.

(٢) القصص: (١٤).

فوجدها في مواطن عدة اقتصرتُ على ذكر أبرزها كما سنبين ذلك فيما يأتي:

⇦ أ ـ أثناء لقائه بنبي الله شعيب عليه السلام وتزويجه إياه:

إنه حين توجه نبي الله موسى عليه السلام من مصر إلى صوب مدين التقى بنبي الله شعيب عليه السلام وقد أنهكه التعب من جراء ما عاناه في الطريق من الخوف والإرهاق هنالك أخذ نبي الله شعيب يهون عليه ويطمئنه بأنه أصبح في مأمن من الأعداء قال تعالى على لسانه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]. وقد أعجب به نبي الله شعيب لما رأى فيه من الصلاح والتقوى فقام عنده خير مقام، ثم إنه زاده إكراماً حين عرض عليه الزواج بإحدى بناته قال تعالى على لسانه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾[2].

لقد انتقل نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ من تلك الرفاهية وذلك العز وتلك المدنية إلى البادية حيث لا رفاهية ولا تمدن، وإنما إلى راعي أغنام ومع ذلك كله، فقد عاش في سعادة ورضا لم يذقهما من قبل أثناء عيشه في مصر لأسباب سبق الإشارة إليها، إنه في (مدين) يعيش مع نبي كريم زوجه ابنته إنه لمن أعظم وأجلّ السعادات في الدنيا وما ذلك إلّا جزاءً من الله له على حسن السريرة والعمل، وعاش نبي الله موسى تلك السنوات المتفق عليها مراعياً أوفى الأجلين (عشراً) كانت هي المهر لذلك الزواج.

⇦ ب ـ أثناء تكليم الله له وتكليفه بالدعوة:

بعد أن انقضت تلك المدة التي اتفق عليها نبي الله موسى ونبي الله

---

(١) القصص: (٢٥).

(٢) القصص: (٢٧ ـ ٢٨).

شعيب - عليه السلام - رغب كليم الله موسى في العودة إلى مصر فبينما هو في الطريق إذ رأى ناراً آتية فقال لأهله انتظروا حتى آتيكم بخبر تلك النار فإذا به يفاجأ بمناجاة الله له، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾[1]. هنالك جاءته البشارة العظمى بأن الله اختاره للرسالة فما عليه إلَّا أن يستعد ويستمع لما سيوحيه الله إليه قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾[2].

وبعد هذا التوجيه الإلهي لموسى - عليه السلام - تأتي البراهين الساطعة التي تؤكد هذه النبوة كي لا يكذبه المكذبون، حين أيده بمعجزات عظام منها: انقلاب العصا حيَّة، وضم اليد إلى جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء وغير ذلك قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ۝١٨ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ۝١٩ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ۝٢٠ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ۝٢٢ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾[3]. لقد كانت هذه المعجزات التي أيده الله بها استعداداً لمناظرة فرعون وملئه. لأن الله سبحانه وتعالى كلفه بعد ذلك بأن يواصل مسيرته إلى فرعون ويدعوه إلى عبادته سبحانه وتعالى. هنالك وجد موسى - عليه السلام - السعادة الحقة التي يبحث عنها. قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَـٰرُونَ أَخِى ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ

---

(١) طه: (٩ - ١٢).

(٢) طه: (١٣ - ١٤).

(٣) طه: (١٧ - ٢٣).

فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[1].

⇦ جـ ـ في نجاته هو وقومه من فرعون في البحر

وبعد تلك المناظرة التي دارت بينه وبين فرعون أمام الملأ وجميع السحرة بتلك المعجزات التي أيده الله بها أبى فرعون أن يذعن للحق ويؤمن برب العالمين. فما كان من موسى إلَّا أن أخذ قومه من بني إسرائيل ومن آمن معه صوب البحر. هنالك يضرب موسى البحر بعصاه واثقاً بمعية الله له قائلا بكل إيمان واعتزاز: ﴿... كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[2]. فشق الله البحر طرقاً له ولقومه فنجي هو ومن معه بينما فرعون وجنوده الذين لم يتبعوا دعوة نبي الله موسى ـ عليه السلام ـ أغرقهم الله في البحر جميعاً فوجد موسى ومن معه السعادة، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3].

٤ ـ نبينـــــا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ

إن بعثة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاءت خاتمة لبعثة الرسل فهو آخر الأنبياء بعثه الله إلى الناس كافة، لإسعاد البشرية جمعاء. ولما كان هدف الأنبياء وغايتهم دعوة الناس وهدايتهم للسعادة المنشودة، فقد جاء هذا النبي سالكاً تلك الطريق التي سلكها الأنبياء والرسل من قبله، باحثاً عن السعادة الحقيقية له وللناس كافة. لقد بحث عنها منذ طفولته حتى عنفوان شبابه لقد تمثل ذلك في سلوكه القويم الذي كان يتميز به. بين ذلك المجتمع الجاهلي حتى أنهم كانوا يلقبونه بالصادق الأمين لأنه كان «يمتاز

---

(١) طه: (٢٤ ـ ٣٦).
(٢) الشعراء: (٦٢).
(٣) الشعراء: (٦٣ ـ ٦٧).

في قومه بخلال عذبة، وأخلاق فاضلة وشمائل كريمة، فكان أفضل قومه مروءةً، وأحسنهم خلقاً، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلماً. وأصدقهم حديثاً، وألينهم عريكةً، وأعفهم نفساً، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وآمنهم أمانة»[1] ثم إنه كان يعايش ذلك الواقع المؤلم المرير الذي يمارسه قوم ذلك المجتمع الكافر الذي سلك طرق الشقاء فكانت نفسه تتحسر من ذلك الأمر لكنه «عاشر الناس على بصيرةٍ من أمره وأمرهم، فما وجد حسناً شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وكان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى»[2]. إنها العناية الإلهية تحيط به وتعده إعداداً تربوياً فريداً حتى يأتي التكليف الإلهي بالنبوة فيتحمل أعباءها، وتستمر تلك العناية الربانية في إعدادها لرسول الله - ﷺ - يتجلى ذلك الأمر في مواصلة رسول الله لسلوكه طريق الرقي في التقرب إلى الله بحثاً عن السعادة له ولذلك المجتمع، حتى أنه عقد نيته الصادقة على تغييره، هنالك حببت إليه العزلة والاختلاء «فقد دبر الله له هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات، ينطلق في هذه العزلة شهراً من الزمان، مع روح الوجود الطليقة، ويتدبر ما وراء الوجود من غيب مكنون، حتى يحين موعد التعامل مع هذا الغيب عندما يأذن الله»[3] وبعد أن تم ذلك الإعداد التربوي والروحي الذي أشرفت عليه العناية الربانية تأتي بشائر السعادات الحقيقية لرسول الله متتالية في كثير من المواطن ولو أنه كان هناك كثيرٌ من المتاعب والابتلاءات له ولاتباعه في بداية فجر الدعوة إلَّا أنه كان يشعر بالسعادة راضياً بما واجهه من ابتلاء فتلك سنةٌ إلهية لقيها الأنبياء من قبله فكل ما عاناه لا يهمه لأن

---

(١) الرحيق المختوم - بحث في السيرة النبوية - تأليف/ صفي الرحمن المباركفوري: ص٦٢، مكتبة الناس - بيروت - لبنان، ط٢: (ب: ت).

(٢) المرجع نفسه: ص٦٥.

(٣) المرجع نفسه: ص٦٣.

الهدف أسمى من ذلك وهو الحصول على السعادتين سعادة الدنيا والآخرة له ولأتباعه إلى يوم الدين. فقد حصل على سعادات الدنيا في كثير من المواطن طوال حياته كما سنبينه فيما يأتي مقتصرين على ذكر بعض المواطن التي وجدها فيها.

أ ـ حين أمره الله بالجهر بالدعوة:

بعد مضي ثلاث سنوات من الدعوة السرية التي كان يمارسها رسول الله ـ ﷺ ـ مع الذين آمنوا به من بداية فجر الدعوة، يأتي التوجيه الرباني لنبيه محمد ـ ﷺ ـ بأمر الجهر بالدعوة وقد تمثل ذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[1].

فقام رسول الله ـ ﷺ ـ وصعد على جبل الصفاء ينادي قومه يدعوهم إلى التوحيد والإيمان برسالته وباليوم الآخر التي فيها سعادتهم، في الدارين، فقد روى مسلم طرفاً من هذه القصة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2]. دعا رسول الله ـ ﷺ ـ فعم وخص فقال: «**يا معشر قريش انقذوا انفسكم من النار، يا معشر بني كعب؛ أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد؛ أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»[3] وبعد هذا التوجيه الإلهي يأتي توجيه آخر يأمر بأن يصدع بما كلف به قال تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾[4]. فقام رسول الله ـ ﷺ ـ يعكر على خرافات الشرك وترهاته، ويذكر حقائق الأصنام، وما لها من قيمة في الحقيقة، ثم بيّن لهم أن من عبدها فهو في

---

(١) الشعراء: (٢١٤).

(٢) الشعراء: (٢١٤).

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان ـ باب ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾: ١٠٩/١.

(٤) الحجر: (٩٤).

ضلال وشقاء[1] لقد واجه رسول الله - ﷺ - الكثير من المتاعب من قومه هو وأتباعه أثناء الجهر بالدعوة لكن ذلك الأمر لم يعقه لأنه يشعر بسعادة ورضا.

⇦ ب ـ في الإسراء والمعراج:

لقد كان الإسراء والمعراج عملية ترويحية من الله تعالى نتيجة لما لاقاه من ابتلاءات عدة تمثلت، في موت زوجه خديجة التي كانت تؤازره وتواسيه بل كانت سنداً له بالدعم المادي والمعنوي منذ أن اختارته للتجارة معها، ثم موت عمه أبي طالب الذي كان مدافعاً ومحامياً عنه بعد الله، لقد كان لتلك الحادثتين المؤلمتين أثر بالغ على نفسية الرسول - ﷺ - فقد اهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه، فقد كانوا تجرؤوا عليه، وكاشفوه بالنكال والأذى، واضطهدوا أصحابه الذين بقوا معه في مكة، فازدادت آلامه حتى يئس منهم، فما كان منه إلَّا أن خرج إلى الطائف، رجاء أن يستجيبوا لدعوته أو يؤوه وينصروه على قومه فلم يجد آوياً له ولا نصيراً، إنما آذوه مع ذلك أشد الأذى ونالوا منه ما لم ينله قومه منه[2]. لقد كان هذا العام عام حزن عند رسول الله - ﷺ - بعد هذه المعاناة التي عاناها رسول الله - ﷺ - تتداركه العناية الربانية التي اعتادها وقت الشدائد فيرسل إليه رب العالمين من يبلغه بتلك الرحلة السعيدة المتمثلة بالإسراء والمعراج حيث أراد الله تعالى أن يهون ويروح عليه بتلك النزهة السياحية التي لم يصل إليها نبي قبله، وكأن الله سبحانه وتعالى بهذه الرحلة المباركة يقول له: لا تحزن يا محمد على ما أصابك فأنا حاميك، وناصرك، ومعك فإن كربوها عليك في الدنيا فإني مقيل الكربات عنك، وإن جرحوك فإني طبيب جروحك، وإن أغلقوا عليك الأبواب في الدنيا فأبواب السماء مفتوحة لك، تعال إليَّ

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم: ص٧٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ص١١٣.

سترى ما يسرك وبالفعل فقد تم له ذلك في الإسراء حيث صلى بالأنبياء - عليهم السلام - في المسجد الأقصى إنها لسعادة عظمى حين يلتقي بالأنبياء الذين سبقوه ويصلي بهم إماماً وفي المعراج أراه الله من آياته الكبرى قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[1].

جـ - حين أعمى الله أبصار الأعداء عنه.

لقد ضاقت بطون قريش ذرعاً من دعوة الرسول - ﷺ - فآذوه هو وأصحابه بأنواع الأذى هنالك قرر الهجرة إلى المدينة بدءاً بأصحابه. وعندما جاء يوم موعد هجرته أحاط الأعداء بداره حاملين سيوفهم يريدون قتله فما كان منه إلَّا أن أبقى ابن عمه علي - رضي الله عنه - نائماً على فراشه إيهاماً أنه هو، ثم خرج رسول الله - ﷺ - واخترق صفوفهم وأخذ حفنة من البطحاء فأخذ يذره على رؤوسهم، وقد أخذ الله أبصارهم عنه فلا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾[2]. فلم يبق منهم رجل إلَّا وقد وضع على رأسه تراباً ومضى إلى بيت أبي بكر[3]، هنالك وجد رسول الله - ﷺ - السعادة وشعر بالطمأنينة حين أدرك أن العناية الإلهية تحرسه وتمنعه من الأعداء.

د - في غار ثور ومعه صاحبه (أبو بكر):

أتى رسول الله - ﷺ - بيت أبي بكر - رضي الله عنه - وقت الظهيرة. عند ذلك استعدا للخروج فكان خروجهما من خوخةٍ في دار أبي بكر ليلاً حتى لحق بغار ثور في اتجاه اليمن. فأخذ الأعداء في ملاحقتهم والبحث عنهم حتى أنهم انتشروا في الجبال والوديان، والوهاد والهضاب، فوصل بعضهم إلى باب الغار فإذا بالقلق يدب إلى نفس أبي بكر الصديق خوفاً أن يبصرهم

---

(١) الإسراء: (١).

(٢) يس: (٩).

(٣) ينظر: الرحيق المختوم: ص٥٨ - ٦٠ بتصرف.

الأعداء، فقد قال له، يا نبي الله لو أن أحدهم طأطأ بصره لرآنا[1] هنالك أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ يطمئنه ويهدئه وقد قصّ الله سبحانه وتعالى ذلك الموقف في كتابه الحكيم بقوله: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[2]. هنالك شعر الرسول ـ ﷺ ـ وصاحبه بالسعادة.

هـ ـ أثناء اقامته في المدينة

لقد هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة فاستقبله أهلها بأحسن استقبال لأن دعوته كانت قد وجدت لها صدىً قبل هجرته حتى أصبح له هناك أنصار كثيرون وهذا مما مهد له الطريق لتأسيس قواعد الدولة المركزية لدولة الإسلام فأول ما قام به بناء المسجد، ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار الذين أصبح بعضهم يؤثر أخاه في كثير من حظوظ الدنيا، بفضل نعمة الإسلام، وعندما كثر الأنصار لهذه الدعوة قام رسول الله ـ ﷺ ـ بوضع دستور التعايش السلمي فيما بينه وبين اليهود والقبائل المجاورة.

والحديث طويل عن بناء دولة الإسلام المركزية فإن هذا ليس مجال بحثنا. ولكنه عندما قامت دولة الإسلام شعر رسول الله ـ ﷺ ـ بالسعادة، لأنه حقق هدفاً عظيماً من أهداف دعوته وهي إقامة دولة الإسلام. وبناء مجتمع يدين بهذا الدين الإسلامي الحنيف.

و ـ حين فتح مكة:

بعد أن أصبحت دولة الإسلام قوةً عظمى لا يستهان بها وازداد صدى دعوة الإسلام ينتشر في الجزيرة العربية، فكثر أنصارها. ولم يقتصر ذلك على الجزيرة فقط بل ذاع صيت هذه الدولة إلى كثير من الدول التي

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم ص٦٠.

(٢) التوبة: (٤٠).

كانت تمثل قوى عظمى كفارس والروم وغيرهما من الممالك، وذلك من خلال سراياه وغزواته بالنسبة للجزيرة العربية، ومن خلال مراسلته - ﷺ - إلى ملوك الأقطار الآنفة الذكر، حتى أصبح الأعداء يهاب هذه الدولة ويخشى بأسها بمن فيهم قريش، عند ذلك أذن الله لنبيه - ﷺ - بفتح مكة ذلك الفتح العظيم الذي أكرمه الله به يقول ابن القيم موضحاً قيمة ذلك الفتح: [هو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين، من أيدي الكفار والمشركين، وهو الذي استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عدة على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دين الله أفواجاً وأشرق به وجه الأرض ضياًء وابتهاجاً][1]، وقد أكد لنا القرآن الكريم عظمة ذلك الفتح وثماره اليانعة المتمثلة في دخول الناس في دين الله أفواجاً طواعية دون قتال قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[2]، ثم أنه بعد تمام هذا الفتح العظيم تأتي البشارة العظمى من رب العالمين لنبيه وللمؤمنين بتمام نعمة الله عليه وعلى المؤمنين المتمثلة بإكمال هذا الدين الخالد فما على أتباعه إلَّا أن يستقوا من ينابيعه السعادة التي لا تنفد قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[3].

***

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد - لابن قيم الجوزية - شمس الدين أبي عبدالله بن أبي بكر الزرعي الدمشقي: ٢/١٦٠، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٤: (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

(٢) النصر: (١ - ٣).

(٣) المائدة: (٣).

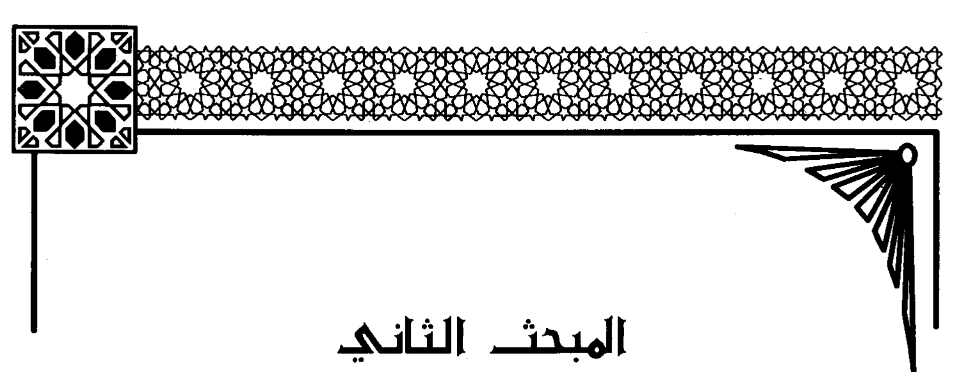

المبحث الثاني

الصحابة - رضي الله عنهم -

تمهيد

لقد فارق رسول الله - ﷺ - هذه الدنيا، وترك جيلاً فريداً من نوعه لا يوجد في الشعوب الأخرى التي لم يصلها الإسلام لأنه رباهم تربية إيمانية صادقة، روحية، وعقلية، وبدنية، رباهم على القرآن الكريم، فكانت لا تنزل آية منه إلّا وفهموها وحفظوها وعملوا بمقتضاها، كذلك طبقوا سنته - ﷺ - واتبعوها وعملوا بها فكانوا يتبعون ما أمرهم به ويجتنبون ما نهاهم عنه في حياته وبعد مماته أصبحوا ذوي أخلاق رفيعة وهمم عالية، هدفهم المنشود ما كان ينشده رسول الله - ﷺ - في نشر دعوة الإسلام إلى الناس كافة في جميع أقطار الأرض. هدفهم إسعاد الناس كما سعدوا بهذا الدين مع نبيهم محمد - ﷺ - الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور فعرفوا به ربهم وخالقهم، وهداهم إلى الإخاء والألفة والمحبة والتراحم والتواد حتى شعروا بالسعادة فأصبحوا فداءً لهذا الدين وللداعي إليه سيدنا محمد ﷺ بالمال والنفس، لأنهم زهدوا عن الدنيا وملاذها ومتعها غايتهم العظمى نيل السعادة الحقيقية في الآخرة. لذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى وفقهم وأيدهم بنصره في جميع ميادين الجهاد لقد وجدوا السعادة تحققت لهم في مواطن عدة سنحاول جادين ذكر بعض المواطن التي وجدوها فيها بصورة جماعية، وذكر

بعض من وجدها بصورة فردية موضحين ذلك فيما يأتي:

أ ـ نماذج لمن وجدها بصورة جماعية

١ ـ أصحاب بيعة الرضوان:

إنه لما عزم رسول الله ـ ﷺ ـ لأداء العمرة (عمرة الحديبية) أرادت قريش منعه وأصحابه من دخول مكة. عند ذلك حصل التفاوض بينهم وبين الرسول ـ ﷺ ـ وتم إرسال رسل من الطرفين فكان آخر من بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ ليخبرهم بأن الرسول ـ ﷺ ـ ما جاء إلا لعمرة لا يريد قتال. فما كان من قريش إلّا أن رحبت به ثم احتبسته عندها وطالت مدة احتباسه حتى شاع في الناس خبر مقتله، وبلغت تلك الإشاعة إلى الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه. حينها قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه لا نبرح حتى نناجز القوم ثم دعاهم إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على أن لا يفروا وبايعته جماعة على الموت وقد أخذت هذه البيعة منهم تحت شجرة، ثم أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ بيد نفسه وقال هذه عن عثمان ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، وقد سميت هذه البيعة ببيعة الرضوان[١]، وبسبب هذه البيعة نال الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رضوان الله تعالى وقد جاء ذكر تلك النعمة العظمى التي منّ بها عليهم في محكم كتابه الكريم قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾[٢]. بهذه النعمة وذلك الوعد المحتوم شعروا بالسعادة، فأي نعمة أفضل من رضوان الله تعالى؟

٢ ـ المقاطعون لمن حادّ الله ورسوله:

إن هذه الفئة المؤمنة من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قطعوا صلتهم ومودتهم بأقرب الناس إليهم حتى ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم

---

(١) الرحيق المختوم: ص٣٣٨.
(٢) الفتح: (١٨، ١٩).

أو العشيرة بأكملها طالما لا يزالون على شرك وضلال محادين لله ورسوله ولدين الإسلام الذي جاء به لأن ذلك جعلهم سعداء بدون من قطعوا مودتهم بهم ولهذا أثنى عليهم رب العزة في محكم كتابه الكريم بقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾(١). قال ابن كثير: أي من اتصف بأنه لا يوادّ من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أي كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته... وفي قوله تعالى: ﴿رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ وقف ابن كثير وقفة المتأمل حيث قال: سرٌّ بديع وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم. ثم قال عن هؤلاء الذين اعتبرهم الله حزبه: هذا تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة(٢).

⇦ ٣ ـ السابقون الأولون والذين اتبعوهم:

المقصود بالسابقين الأولين هم المهاجرون والأنصار الذين اتبعوهم فيما ساروا عليه فالمهاجرون رأوا أن سعادتهم الحقة ستكون في الدين الذي جاء به محمد ولو عانوا من المتاعب والآلام فهم راضون بذلك، لذلك نجد أنهم آثروا الهجرة من مكة إلى المدينة تاركين ديارهم وأموالهم وأهليهم، حتى أنهم وصلوا إلى المدينة فقراء يبتغون بذلك مرضاة الله ورسوله لكنهم لما وصلوا إلى المدينة فإنهم لم يحسوا بالفقر وشظف العيش، نظراً لما قام به الأنصار لهم من حسن الاستقبال وكرم الضيافة وإيثارهم على أنفسهم في كثير من حظوظ الدنيا حتى أحسوا بنعمة هذا

(١) المجادلة: (٢٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٢٢٩.

الدين الذي غرس في قلوبهم معاني ومشاعر الأخوّة فشعر المهاجرون بالسعادة بين إخوانهم وقد أثنى الله على كلا الفريقين في محكم كتابه العزيز بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾[1]، وبهذه السمات التي اتسم بها كلا الفريقين نجد أن الله تعالى رضي عنهم ووعدهم بالفوز العظيم في الجنة قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٠٠﴾[2]، قال الشعبي: (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية)[3]، هذه بعض نماذج أحببت أن أستشهد بها على من وجد السعادة بصورة جماعية من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وما هذه إلّا شذرات لأن الذي يتبع سيرتهم فإنه سيجد حياتهم كلها مليئة بالسعادات، فقد وجدوها حين وجدوا تأييد الله لهم بنصره على الأعداء في كل ميادين الجهاد، وفي البذل والتضحية من أجل نشر الدعوة، وحين قتال الملائكة معهم في بعض الغزوات، وفي تفريج كربة المكروب، وحين أذل الله أعداءهم الرومان والفرس وفتحوا بلدانهم ونشروا الإسلام فيها، وفي كثير من المواطن.

ب ـ نماذج لمن وجدها بصورةٍ فردية

⇦ ١ ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

لقد وجد السعادة هذا الصحابي الجليل والخليفة الراشد في شتى

(١) الحشر: (٨، ٩).

(٢) التوبة: (١٠٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/١٠٠.

دروب حياته منذ أن أسلم وسنقصر الحديث عن بعض منها، وجدها في غار ثور مع رسول الله حين حجب الله عنهما أعين المشركين المطاردين لهم، كما سبق توضيح ذلك عند معرض حديثنا عن بعض المواطن التي وجد الرسول ﷺ السعادة فيها ثم أنه وجدها عندما كان ينفق ماله من أجل رسول الله، وعتق من كانوا عبيداً فعذبوا وأوذوا من أسيادهم بسبب إسلامهم، حتى أن رسول الله قال عن كرم أبي بكر وبذله وتضحيته: «**ما نفعني مالٌ قط إلا مال أبي بكر**» فبكى أبو بكر وقال: وهل نفعني الله إلَّا بك وهل نفعني الله إلَّا بك، وهل نفعني الله إلَّا بك)[1] ثم أن بذله لم يقتصر على رسول الله والذين كانوا مستضعفين فأعتقهم، وإنما على كثير من فقراء المسلمين فهذا عمر بن الخطاب يقول: «أمرنا رسول الله أن نتصدق فوافق ذلك مالاً فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، فجئت بنصف ما عندي. فقال رسول الله: **ما أبقيت لأهلك**، فقلت مثله، قال: وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال له رسول الله: **ما أبقيت لأهلك**؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أُسابقك إلى شيءٍ أبداً»[2]. هذا هو أبو بكر الصديق وتلك تضحياته وبذله التي كان يشعر بالسعادة والرضا عندما يفرج كربة إخوانه الفقراء من المسلمين فإنه بذلك يجد نفسه أنه وفق بين مصالحه في الدنيا والآخرة.

٢ ـ عثمان بن عفان رضي الله عنه:

لقد وجدها هذا الصحابي الجليل في مواطن عدة فهو من العشرة المبشرين بالجنة ومن الذين شملهم رضوان الله تعالى في بيعة الرضوان الذي سبق الحديث عنهم، ثم أنه وجدها في بذله وكرمه وتضحياته كما فعل أبو بكر وعمر إلَّا أنه كان أكثرهم مالاً فقد كان من أغنى تجّار

(١) رواه الترمذي: ٥/٦٠٩ ورقم (٣٦٦١)، وابن حبان في صحيحه، المتوفى (٣٥٤): ٥/٢٧٣، رقم (٦٨٥٨)، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

(٢) رواه الترمذي في السنن: ٥/٦١٤.

المدينة، لهذا نجده حمد الله وشكره حيث أنفق أمواله في وجوه البر والخير من أجل الإسلام والمسلمين، حينها كان يشعر بالسعادة والرضا والارتياح على ما يقدمه في سبيل الله وما هذه القصة التي سنوردها إلّا دليلاً على ذلك فقد روى أنه (أصاب الناس قحط في خلافة أبي بكر الصديق فلما أشتد بهم الأمر، جاؤوا إلى أبي بكر الصديق، وقالوا: يا خليفة رسول الله إن السماء لم تمطر والأرض لم تنبت، وقد توقع الناس الهلاك، فما تصنع، فقال: انصرفوا واصبروا، فأني أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم، فلمَّا أصبحوا خرجوا يتلقونها، فإذا هي ألف بعير موثوقة بُرّاً وزيتاً ودقيقاً، فأناخت بباب عثمان فجعلها في داره، فجاء إليه التجار. فقال: ما ترون؟ قالوا: إنك لتعلم ما نريد فقال: كم تربحوني؟ قالوا: اللهم درهمين قال: أعطيت زيادة على هذا، قالوا: أربعة دراهم، قال: أعطيت أكثر، قالوا: خمسة. قال: أعطيت أكثر، قالوا: ليس في المدينة تجار غيرنا، فمن الذي أعطاك؟ قال: الله أعطاني بكل درهم عشرة دراهم أعندكم زيادة؟ قالوا: لا، قال: فإني أشهدكم الله تعالى: (إني جعلت ما حملت العير صدقة لله على الفقراء والمساكين)[1]. فهذا هو عثمان لقد رأى أن سعادته لن تكون إلّا بمتاجرته مع الله سبحانه وتعالى بأمواله لأنه يدرك بأن الذي أعطاه هو الله القائل في محكم كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾[2].

٣ ـ سلمان الفارسي رضي الله عنه:

إن هذا الصحابي الجليل (من بلاد فارس من الذين تلهفوا بكل شوق إلى حقيقة دين التوحيد الخالص الذي سيجد فيه السعادة الحقيقية في الدارين، لقد ترك هذا الصحابي ثراء أبيه الباذخ وهو يبحث عن ذلك فظنها

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة ـ تأليف د. سيد بن حسين العفان قدم له: الشيخ محمد صفوت نور الدين وآخرون: ٥٢٨/٢، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط: (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م).

(٢) الصف: (١٠، ١١).

في دين النصارى إذ اعتنقه وهرب إلى الشام مع إحدى القوافل ملتحقاً بأساقفة النصارى واحداً بعد آخر كلما هلك أسقف صحب آخر بعد أن يوصيه الأول بصحبة أسقف معين لندرة الصالحين الملتزمين منهم بدين النصرانية الحق لكنه شاهد كثيراً من مساوئ علماء النصارى وأساقفتهم أثناء التحاقه بهم لخدمتهم وللبحث عن سعادة حقيقية إذ كان يرى أكثر من صحِبَ يكنز الذهب والفضة التي يتبرع بها الناس للصدقة على الفقراء عن طريق أسقفهم وقد صحب أكثر من خمسة أساقفة فلما كان آخر من صحب منهم نصحه بالالتحاق بالجزيرة العربية، من أرض الحجاز، حيث يحين موعد ظهور نبي هناك على دين إبراهيم كان يجد ذلك في كتبهم أما دين النصارى فلم يعد هناك على وجه الأرض من يلتزم الدين النصراني الصحيح، فقد طغى التحريف على كتبهم جميعها وسأله سلمان عن علامات لهذا النبي فقال: إنه لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وبين كتفيه خاتم النبوة، وأنه سيهاجر إلى أرض ذات نخلٍ، فما كان منه إلَّا أن انطلق مع قافلة إلى جزيرة العرب حملوه معهم مقابل بقرات وأغنام كانت له لكنهم غدروا به وباعوه لرجل من اليهود بوادي القرى، وظل سلمان يعمل مع ذلك اليهودي في مزارعه بيثرب رقيقاً يُعامل بقسوة شديدة. لكنه يحتملها رجاء أن يظفر بالسعادة آجلاً بمبعث ذلك النبي المنتظر فيتبعه، ولم يمض سوى زمن يسير حتى سمع بخبر احتفال أهل المدينة بمقدم النبي ﷺ إليهم ففرح فرحاً شديداً وجعل يسترق الذهاب إليه وأصحابه، متحملاً ما يلاقيه من سيده من إيذاء وضرب ولما تأكد من العلامات الآنفة الذكر عن طريق (تمر) كان يحمله إلى النبي وأصحابه، وتأكد من خاتم النبوة بين كتفيه، وهو على شفير قبر جنازة أكب سلمان على رسول الله ﷺ يقبله وأسلم وتحمل في سبيل إسلامه أشد الإيذاء لكنه لم يبال بذلك لأنه وجد سعادة كبرى تغمره حين عرف حقيقة هذا الدين الإسلامي[1]. فآمن بالله رباً

(١) ينظر: رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد: ص ٥٥ ـ ٧٥، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٣ (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م)، بتصرف.

وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً هنالك عاش وتربى في مدرسة محمد ﷺ واستظل مظلة الإسلام مع أصحابه الذين تلقوا في هذه المدرسة تعاليم عظيمة في مثل قول رسول الله ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً**»(١).

ج ـ نماذج لبعض صحابيات وجدن السعادة

إنه لما رجع رسول الله (هو وأصحابه بعد الانتهاء من غزوة أحد إلى المدينة وجدوا أثناء مرورهم بالطريق بعض نسوة كان لهم أقارب شاركوا في الغزوة لكنهم استشهدوا فنعوهم إليهن فما كان منهن إلّا أن تقبَّلن تلك التعازي برضا وارتياح دون سخطٍ أو جزع).

١ ـ امرأة من بني دينار:

لقد مر رسول الله ﷺ بهذه المرأة أثناء عودته هو وأصحابه وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها في أحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خير يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل، تريد صغيرة(٢) لقد شعرت هذه الصحابية بالسعادة حين رأت رسول الله ﷺ حياً بين أصحابه، وتقبلت خبر تلك المصيبة المؤلمة، لأنها بذلك وفقت بين مصلحتها في الدنيا والآخرة).

٢ ـ أم سعد بن معاذ:

إنه في الحين الذي جاءت فيه إلى رسول الله ﷺ بعد عودته من

---

(١) رواه مسلم في باب (الإيمان: ١/٦٢، رقم (٣٤)، قال القاضي عياض: معنى الحديث: صح إيمانه، واطمأنت به نفسه، وخامر باطنه، لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته، ونفاذ بصيرته، ومخالطة بشاشته قلبه، لأن من رضي أمراً سهل عليه، فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعة الله تعالى ولذت له والله أعلم، شرح النووي على صحيح مسلم ـ يحيى بن شرف أبو زكريا محيي الدين النووي: ٢/٣ ـ ٤، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: (ب: ت).

(٢) ينظر: الرحيق المختوم: ص ٢٧.

غزوة الحديبية أيضاً، وكان سعد حينها حاضراً أخذ بلجام فرسه، فقال سعد: يا رسول الله أمي، فقال: «**مرحباً بها**»، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو ابن معاذ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً، فقد اشتويت المصيبة (أي: استقللتها) ثم دعا لأهل من قتل بأحد وقال: **يا أم سعد أبشري وبشري أهلهم أن قتلاهم توافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهلهم جميعاً**، قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادعُ لمن خلفوا فقال: **اللهم أذهب حزن قلوبهم، وأجبر مصيبتهم، وأحسن الخلف على من خلفوا**»[1] إن المتأمل في قصة هاتين الصحابيتين الجليلتين ليحقر معهما نفسه سواء أكان رجلٌ أو امرأةٌ، مما نعانيه من ضعف الإيمان في قلوبنا الذي لا يجعلنا أن نتقبل أدنى مصيبة بثبات وقناعة ورضى، لأن هؤلاء النسوة وأمثالهن حين تغلغل الإيمان في قلوبهن كانت المصيبة تهون عندهن خاصةً عندما يجدن أنهن وفقن بين مصالح الدنيا والآخرة هنالك يشعرن بالسعادة، **فالأولى** ينعون إليها أباها وأخاها وزوجها ومع ذلك جعلها الإيمان الراسخ والعميق تثبت أثناء خبر تلك المصيبة، فشعرت بالسعادة حين رأت رسول الله حياً معافى. **والثانية** (أم سعد بن معاذ) حين جاءت إلى رسول الله ﷺ فإذا بسعد ينبه رسول الله ﷺ لعله يريد بذلك أن يكتم عنها رسول الله خبر استشهاد ابنها في ذلك الوقت كي لا تأخذها عاطفة الحنان، لكنه حصل عكس ذلك وجد أمه أستاذة في علم التوحيد تجلى ذلك حين ردت على رسول الله بكل ثبات (فقد اشتويت المصيبة) وعندما قالت: (ومن يبكي عليهم بعد هذا؟) لأن رسول الله بشرها هي وأمثالها بأن كل من استشهد في الجنة أصبح شفيعٌ لأهله، ثم بعد ذلك تطلب من رسول الله أن يدعو بالخلف، فإذا به يدعو بدعاء ذو شأن عظيم بالخلف وذهاب الحزن عن القلوب، وجبر المصيبة إن مثل هذه البشارة وهذا الدعاء من رسول الله جعلتهم يشعرون بالسعادة أكثر. ثم إن الرسول شعر بالسعادة حين ظهرت له

---

(١) ينظر: الرحيق المختوم: ص ٢٧.

بوادر قوة الثبات النابع من الإيمان الراسخ في قلوب هؤلاء المؤمنات الصادقات مع الله ورسوله كما ظهرت من المؤمنين في أثناء المعركة، فهذا ما جعله هو وأصحابه يخبروا مثل هؤلاء النسوة وأمثالهن بشهدائهن مباشرة. وعلى كل فإن الإيمان العميق يصنع المعجزات فإن مثل هؤلاء النسوة وغيرهن من الصحابيات، قد أعطين دروساً وعبراً عظيمة للنساء المؤمنات بل وللرجال أيضاً في كل زمانٍ ومكان عبر مسيرة التاريخ البشري فأسأل الله أن يعمق الإيمان في قلبي وقلوب إخواننا المسلمين رجالاً ونساء كي نكون من أهل الثبات عند المصائب.

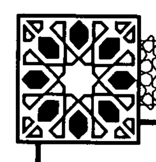

المبحث الثالث

التابعون - رضوان الله عليهم -

تمهيد

المقصود بالتابعين هم الذين عاصروا الصحابة، فدرسوا في مدارسهم واستقوا من علومهم التي ورثوها عن رسوله الله - ﷺ - حتى سلكوا سلوكهم ونهجوا نهجهم فأصبحوا صورة لصحابة رسول الله - ﷺ - في رسوخ الإيمان والتعالي عن عرض الدنيا والتفاني في مرضاة الله تعالى بحثوا عن السعادة فوجدوها في مواطن عدة أثناء حياتهم، في نشر الإسلام وفتح الفتوحات، وفي طلب العلم، وفي الحفاظ على سنة رسول الله ﷺ المتمثلة في قوله وفعله وتركه ونهيه وغير ذلك، حتى دونوها وبينوا للأمة صحيحها وحسنها، والضعيف والموضوع، فكانوا يتنقلون بعد الصحابة من مصر إلى آخر ومن قطر إلى آخر يسيرون الشهور والأيام للتأكد من صحة الحديث وطرق روايته ومتنه، وسنده وهكذا حتى نقلوا للأمة ما صح عنه - ﷺ - وما لم يصح، وما وقف عن الصحابي وما لم يوقف، ثم أنهم وجدوها في إحياء الدعوة لهذا الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقول كلمة الحق أمام أي سلطان أو أمير جائر وإسداء النصيحة والموعظة لهم، ووجدوها في الزهد والورع والإخلاص وحسن الإسرار في العبادة وعليه فقد اخترت بعض نماذج لبعض هؤلاء الذين بحثوا عن حقيقة

السعادة فوجدوها في شتى دروب حياتهم كما سنبين فيما يأتي:

١ ـ عروة بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ

جلس هذا التابعي في أحد الأيام بالقرب من الركن اليماني من الكعبة المشرفة هو وإخوته عبدالله بن الزبير، ومصعب بن الزبير، ورابعهم عبدالملك بن مروان فأخذ كل واحد منهم يتحدث عن أمانيه في هذه الدنيا. فقال عبدالله بن الزبير: أمنيتي أن أملك (الحجاز) وأن أنال الخلافة، وقال مصعب، أما أنا فأتمنى أن أملك (العراقين) فلا ينازعني فيها منازع، وقال عبدالملك بن مروان: إذا كنتما تقنعان بذاك، فأنا لا أقنع إلا بأن أملك الأرض.. وأن أنال الخلافة. وسكت عروة بن الزبير فلم يقل شيئاً فالتفتوا إليه، وقالوا: وأنت ماذا تتمنى يا عروة: فقال بارك الله لكم فيما تمنيتم من أمر دنياكم... (أما أنا فأتمنى أن أكون عالماً عاملاً، يأخذ الناسُ عني كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأحكام دينهم... وأن أفوز في الآخرة برضى الله وأحظى بجنته..)[1].

ثم بعد ذلك دارت الأيام دورتها فإذا بعبدالله بن الزبير يبايع له بالخلافة عقب موت يزيد بن معاوية فيحكم الحجاز، ومصر، واليمن، وخراسان، والعراق... ثم يقتل عند الكعبة غير بعيد عن المكان الذي تمنى فيه ما تمنى، وإذا بمصعب بن الزبير يتولى إمرة (العراق) من قبل أخيه عبدالله ويقتل هو الآخر دون ولايته أيضاً. أما عبدالملك بن مروان فقد آلت إليه الخلافة بعد موت أبيه واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل عبدالله بن الزبير وأخيه مصعب على أيدي جنوده... ثم أصبح أعظم ملوك الدنيا. وعليه فأيهما وجد السعادة أكثر في حياته؟ حقيقةً أن عروة بن الزبير الذي تمنى أن يكون عالماً عاملاً وجدها أكثر منهم، لإنه عندما أراد أن يحقق أمنيته زهد عن الدنيا. فأكب على طلب العلم وانقطع له، فاغتنم

---

(١) ينظر: صور من حياة التابعين ـ د/ عبدالرحمن رأفت الباشا: ص٤٤، دار الأدب الإسلامي ـ القاهرة، ط٦: (١٤٢٢ ـ ٢٠٠١م).

البقية الباقية من صحابة رسول الله - ﷺ - فطفق يؤم بيوتهم، ويصلي خلفهم، ويتتبع مجالسهم حتى روى عن كثير منهم، فأصبح أحد فقهاء المدينة السبعة الذين يفزع إليهم المسلمون في دينهم ويستعين بهم الولاة الصالحون على ما استرعاهم الله عليه. فعندما حقق الله أمانيه وجد السعادة، فأصبح لربه شاكراً ذاكراً يكثر العبادة[1].

٢ - صلةُ بن أشيم العدوي - رضي الله عنه -

يعد هذا التابعي الجليل من الذين حظوا بالحصول على السعادة في الدنيا قبل الآخرة فلقد كان عابداً من عبّاد الليل فارساً من فرسان النهار كان إذا نشر الظلام أستاره وغرق الناس في النوم قام فأصبغ الوضوء، ثم صف في محرابه، ودخل في صلاته وهام وجداً بربه وكان إلى ذلك مولعاً بقرآن الفجر... ويحب أن لا يطلع على عبادته وتقربه إلى الله أحد التي كان لا يفتر عنها قط بين حلِّه وترحاله، وشغله وفراغه[2]، فهذا أحد معاصريه (جعفر بن زيد) يحكي عنه قائلاً:

خرجنا مع جيش من جيوش المسلمين في غزوة إلى كابل[3] رجاء أن يفتحها الله لنا وكان في الجيش صلةُ بن أشيم فلما أرخى الليل سدوله، ونحن في بعض الطريق حطَّ الجند رحالهم وأصابوا شيئاً من الطعام وأدَّوا العشاء الأخيرة، ثم مضوا إلى رحالهم يلتمسون عندها حظاً من الراحة فرأيت صلة بن أشيم يمضي إلى رحله كما مضوا... ويسلم جنبه إلى رحله كما مضوا ويسلم جنبه إلى الرقاد كما فعلوا. فقلت في نفسي: أين الذين يرونه من صلاة الرجل وعبادته ويشيعونه من قيامه حتى تتورم قدماه؟! والله لأرقبنه الليلة حتى أرى ما يكون منه فما أن غرِق الجندُ في نومهم... حتى رأيته يستيقظ من رقدته وينحاز عن العسكر

---

(١) صور من حياة التابعين: ص٤٦.
(٢) المرجع نفسه: ص ٣١٧.
(٣) كابل، هي عاصمة أفغانستان حالياً.

مستتراً بالعتمة، ويدخل في غابةٍ لفاءَ (ملتفة الأشجار) باسقة الأشجار، وحشيَّة الأعشاب كأنها لم تطأها قدمان منذ دهرٍ طويل فمضيتُ في أثره، فلما بلغ منها مكاناً قصيًّا التمس القبلة واتجه إليها، وكبَّر للصلاة واستغرق فيها... فنظرت إليه من بُعدٍ فرأيته مشرق الوجه، ساكن الأعضاء، هادئ النفس، كأنما يجد في الوحشة أنساً وفي البعد قُرباً وفي الظلمة ضياءً منيراً، وفيما هو كذلك.. طلعَ علينا أسدٌ من الجانب الشرقي للغابة، فما إن أثبتهُ ـ يعني: تأكدَّت منه ـ حتى انخلع فؤادي هلعاً منه فعلوت شجرة باسقة لواذاً من شره، فما آل الأسد يدنو من صلة بن أشيم، وهو غارقٌ في صلاته حتى أصبح على قيد خطواتٍ منه... فوالله ما التفت إليه... ولا حفل به ـ يعني اهتم به ـ فلما سجد قلت: الآن يفترسه فلما نهض من سجوده، وجلس وقف الأسد بإزائه، كأنه يتأمله، فلما سلم نظر إلى الأسد في سُكون، وحرك شفتيه بكلامٍ لم أسمعهُ، فإذا بالأسد ينصرف عنه في هدوءٍ ويعود من حيث جاء... ولما انبلج الفجرُ، نهض فأدى المكتوبة ثم طفق يحمد الله عز وجل بمحامد لم أسمع مثلها قط ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار،... وهل يجترئ عبدٌ خاطئ مثلي أن يسألك الجنة؟! وما زال يكررها حتى بكى وأبكاني، ثم رجع إلى الجيش دون أن يفطن له أحدٌ... وبدا لعيون القوم كأنه بات على عشايا ـ يعني الفرس ـ وعدت أنا في إثره وبي من سهر الليل... وفتور الجسم... وخوف الأسد... ما الله به عليم، ولقد كان صلة بن أشيم إلى هذا كله لا يدع سانحة من سوانح الموعظة والتذكير إلَّا اغتنمها، وكان أسلوبه في ذلك أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة فيستميل النفوس النافرة ويستلين القلوب القاسية»[1].

هذا هو صلة بن أشيم العدوي، وجد السعادة في قوة الصلة مع ربه بالإخلاص، فوهبه طاقة روحية، لا يشعر بفتورٍ ولا ملل أثناء عبادته، ودعوته إلى الله، فهذا هو سر السعادة التي كان يجدها.

---

(١) صور من حياة التابعين، ص٣١٨ ـ ٣٢٠.

٣ ـ عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ (٦١هـ ـ ١٠١هـ)[1]

لقد كان هذا التابعي الجليل والخليفة الراشد يبحث عن السعادة الحقة من قبل ريعان شبابه على الرغم أنه عاش في الخلافة الأموية في ترف ورفاهية لكنه كان يشعر بالألم عندما يرى الإسراف والتبذير بمال بيت المسلمين وتمليك أراضي شاسعة لأقارب المتفردين بالحكم من بني أمية، لقد كان عمر بن عبدالعزيز يضمر ما يعانيه ويطمح في أن تعاد الأمور إلى جادة الصواب حيثما كانت الخلافة الراشدة، فلعله كان يتذكر عهد خلافة جده عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ويحلم برجوعها نظراً بما حل بدولة الإسلام من ظلم وجور وفساد، وعلى كل فإنه بحث عن السعادة الحقة فوجدها في مواطن عدة سنقصر حديثنا على بعض منها مبينين ذلك فيما يأتي:

أولاً: أثناء ولايته قبل خلافته: وذلك في «حبه للعلماء وحب نصحهم له»:

إنه في الحين الذي قدم فيه عمر عبدالعزيز إلى المدينة والياً عليها من قبل الوليد بن عبدالملك جاء الناس فسلموا عليه... فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وعلى رأسهم عروة بن الزبير... فلما صاروا عنده رحب بهم، وأكرم مجالسهم، ثم حمد الله جل وعز وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون لي فيه أعواناً على الحقَّ... فأنا لا أريد أقطع أمراً إلَّا برأيكم أو برأي من حضر منكم. فإن رأيتم أحداً يتعدى على أحدٍ، أو بلغكم من عامل لي مظلمةً فأسألكم بالله

---

(١) هو: عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبهاً له بهم وهو من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام، ولد ونشأ بالمدينة وولي إمارتها للوليد ثم استوزره سليمان بن عبدالملك بالشام وولي الخلافة بعهد من سليمان بن عبدالملك سنة (٩٤هـ) فبويع في مسجد دمشق. الأعلام ـ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ـ تأليف/ خير الدين الزركلي ـ الحقوق محفوظة للمؤلف ـ بيروت، ط٣ (١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م): ٥/٢٠٥.

أن تبلغوني ذلك، فدعا له عروة بن الزبير بخير، ورجاله من الله السداد والرشاد[1]، لقد رأى عمر سعادته في أن يجتمع بورثة الأنبياء الذين بحثوا عن السعادة الحقة فوجدوها، ثم أنه راضٍ بأن يكونوا أعواناً له في أي أمر يقدم عليه فلن يقطع أمراً إلَّا برأيهم، إن عمر بهذا التواضع مع أهل العلم أراد أن يوفق بين مصالح الدنيا والآخرة وفق ضوابط الشرع، إنه بهذا الموقف النبيل ليذكرني بجده عمر حين طلب من الصحابة بأن يهدوا إليه عيبه إن كان فيه عيب، على الرغم من زهده وتقواه وورعه وعدله، فما كان منهم إلَّا أن قالو له: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا فسعد عمر حينها.

ثانياً: في عهد خلافته:

⇦ ١ ـ في التواضع:

عندما نزل الخليفة عمر بن عبدالعزيز من المنبر بعد تمام البيعة وموافقته، قربوا له المراكب والمواكب كما كان يفعل بسلفه، فأبى ذلك وقال، لا إنما أنا رجل من المسلمين غير أني أكثر المسلمين حملاً وعبئاً ومسؤولية أمام الله، قربوا لي بغلتي فحسب، فركب بغلته وانطلق إلى قصره، وأمر بإبطال الموكب الرسمي، فنزل من قصره، وبيع أثاثه وأدخل ماله في بيت مال المسلمين، وتصدق من تلك الأثاث على الفقراء والمساكين[2]، لقد أدرك عمر أن سعادته الحقة في الزهد عن الدنيا.

⇦ ٢ ـ في إقامة العدل بين الرعية:

إن أول ما قام به هو عزل الأمراء الظلمة الطغاة وكان منهم والى أفريقية يزيد بن أبي سلم العاتي الظالم، المتهم بحبس الناس وتعذيبهم بدون وجه شرعي، وأسامة بن زيد التنوخي، رئيس المالية في مصر...،

---

(١) صور من حياة التابعين: ص٤٦ ـ ٤٧.

(٢) ينظر: رجال من التاريخ، علي الطنطاوي: ص ٧٩ ـ ٨٠، دار المنارة ـ جدة، السعودية، ط٧: (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

وعزل عمال الحجاج جميعاً وولى ناساً صالحين أهل مقدرة وأمانة[1]، ومن عدله أيضاً رد المظالم إلى أهلها، تلك الأموال الهائلة... والثروات العظيمة، والأراضي الشاسعة التي اقتطعها عبدالملك بن مروان لإخوانه وأبنائه وحاشيته من بني مروان، لقد عزم على ردها إن عرف أصحابها، أو إلى الخزانة العامة وأن ينفذ على الجميع قانون (من أين لك هذا؟)[2] وبالفعل طبق ذلك... ثم توجه إلى أمراء البيت المالك فاستخدم الترغيب بالوعظ والإرشاد حين يدعوهم ويجتمع بهم، أكثر من مرة، فلما عجزت معهم أساليب اللين، عمد إلى الشدة، وأعلن أنه كل من كانت له مظلمة أو تعدى عليه أحد من هؤلاء الأمراء فليتقدم بدعواه وألف لذلك محكمة خاصة وبدأ يجردهم من هذه الثروات التي أخذوها بغير وجهها ويردها على أصحابها أو الخزانة[3] وجدها أيضاً في إصلاحاته الواسعة في كل قطر من بلاد المسلمين وحين أدخل السرور على الفقراء والمساكين وأطفالهم وكذلك عندما كان يرسل إلى علماء الأمة ليعظوه، حتى أنه جعل سماره علماء[4] ثم وجدها في عنايته بالدعوة إلى الإسلام فأرسل الرسل إلى كل قطر يدعوهم فيها أن يطبقوا الشريعة الإسلامية بل أرسل الرسل إلى غير الأقطار الإسلامية يدعوهم إلى الإسلام كما وجدها حين أمر العلماء أن يدوّنوا سنة الرسول ـ ﷺ ـ وتدوين العلوم الإسلامية وكذلك حين انعدم الفقر في عهده. هذا باختصار لأن الحديث طويل[5] وما هي إلا نماذج أحببت الاستشهاد بها وخوفاً من الإطالة نكتفي بهذا القدر عن عمر بن عبدالعزيز.

---

(١) ينظر: رجال من التاريخ: ص٦٠ ـ ٦٢ بتصرف.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ص ٦٢.

(٣) ينظر: المرجع نفسه: ص٥٨.

(٤) للاستزادة ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ تأليف/ أبو الحسن الندوي: ٣٦/١ ـ ٣٨، دار القلم ـ الكويت، ط٧: (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(٥) ينظر: المرجع نفسه: ٢٢/١ ـ ٤٨.

٤ ـ الحسن البصري رضي الله عنه[١] (٢١ ـ ١١٠هـ)

١ ـ في تلذذه بالعبادة:

لقد كان الحسن البصري من العباد الأتقياء الذين عبدوا الله حق عبادته حتى أنه كان يقول: «تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء، في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق»[٢] لقد كانت هذه المواطن التي ذكرها من المواطن التي يجد فيها السعادة.

٢ ـ في صدعه بالحق بشجاعة أمام رجال الحكم:

أ ـ مع الحجاج بن يوسف الثقفي:

«روى أن الحجاج بنى داراً بواسط، وأحضر الحسن ليراها، فلما دخلها قال: الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً، وإنا لنرى فيهم كل يوم عِبراً، يعمد أحدهم إلى قصرٍ فيشيده، وإلى فرش فينجده، وإلى ملابس ومراكب فيحسنها، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نارٍ، وأصحاب سوءٍ، فيقول: انظروا ما صنعت: فقد رأينا أيها المغرور، فكان ماذا يا أفسق الفاسقين! أما أهل السماوات فقد مقتوك وأما أهل الارض فقد لعنوك، بنيت دار الفناء، وخربت دار البقاء، وغررت في دار الغرور لتذلَّ في دار الحبور، ثم خرج وهو يقول: إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبيننُّه للناس ولا يكتمونه، وبلغ الحجاج ما قال، فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال: يا أهل الشام، أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة، وأنتم حضور فلا

---

(١) هو: الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه واستكتبه الربيع بن أبي زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة وكان غاية في الفصاحة، الأعلام ـ للزركلي: ٢/٢٤٢.

(٢) طريق السعادة ـ جمع وترتيب أحمد فريد: ص٣٢، الدار السلفية ـ الإسكندرية، ط١، (١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م).

تنكرون؟! ثم أمر بإحضاره، فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يُسمع حتى دخل على الحجاج، فقال له الحجاج: ها هنا اجلس، فأجلسه قريباً منه وقال: ما تقول في عليّ وعثمان؟ قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك قال: قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى (٥٢)﴾[1]. علم علي وعثمان عند الله، قال: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ودعا بغالية ـ طيب ـ وطيّب بها لحيته، فلما خرج تبعه الحاجب فقال له: ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه؟ قال: قلت: «يا عُدتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدتي، ويا وليَّ نعمتي، ويا إلهي وإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أرزقني مودته واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل»[2] أن قول الحق عند الحكام الظلمة جهادٌ فعندما قال الحسن قول الحق دون خوف ولا مجاملة أنجاه الله من شره، وقد جاء في الحديث: **«سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»**[3].

ب ـ مع عمر بن هبيرة:

عندما ولي عمر بن هبيرة على العراق من قبل يزيد بن عبدالملك، وصلت إليه رسائل من الخليفة يزيد. فاستدعى عمر الحسن البصري، والشعبي، ومحمد بن سيرين، فقال لهم: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك يكتب إلي في أشياء إن أطعته فيها عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله، ولم أسلم من بطشه وغضبه، فهل تريان لي في متابعتي إياه مخرجاً؟

فتكلم الشعبي وابن سيرين كلاماً فيه تقية ومداراة والحسن ساكت: فقال ابن هبيرة للحسن: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ قال: أقول: يا ابن

(١) طه: (٥١ ـ ٥٢).

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة: ١٦٢/٣.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الأوسط ـ أبو القاسم ـ سليمان بن أحمد الطبراني ـ ت (١٣٦٠هـ): ٢٣٨/٤، رقم (٤٠٧٩)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد بن عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين ـ القاهرة، ط (١٤١٥هـ).

هبيرة، أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله فظٌ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبدالملك، نظر مقت، فيغلق باب الفقر دونك، يا عمر بن هبيرة، لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة، كانوا على هذه الدنيا وهي مقبلة، أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة إني اخوفك مقاماً خوفك إليه عز وجل: فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1]. يا عمر بن هبيرة إن تكُ مع الله في طاعته، كفاك يزيد بن عبدالملك، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته[2] هذا هو دور الحسن - رضي الله عنه - في الدعوة إلى الله حتى فارق الدنيا.

***

(١) إبراهيم: (١٤).

(٢) ينظر: رجال من التاريخ: ص٥٤، صلاح الأمة في علو الهمة: ٣/ ١٦٢، ١٦٣.

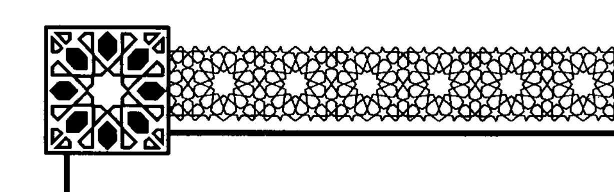
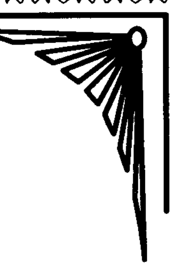

المبحث الرابع

الأولياء والعلماء والدعاة

تمهيد

لقد سجل لنا التاريخ ما مرت به الدولة الإسلامية في عهد الخلافة الأموية من انحطاط بسبب انحراف ولاة الأمر، وحبهم وانشغالهم بالدنيا وغير ذلك، واستمر الحال على هذا المنوال حتى مجيء الدولة العباسية، التي قامت على أنقاض الدولة الأموية فخلفتها في أساس الحكم ونظامه، ومناهجه، والروح السارية في الجهاز الإداري ونظرتها إلى بيت المال وإلى المسلمين، والأثرة والترف، وقد كان لهذا السلوك السلبي أثر كبير على نفوس كثير من أمة الإسلام الذين أصابهم الضعف والوهن الإيماني فأصبحوا يتهافتون على مصالح الدنيا ويبحثون عن السعادة الوهمية في مجالات شتى ذاك يبحث عنها في الملك وذاك يبحث عنها في الملذات والشهوات، وآخر في الفن والطرب وقول الشعر، وآخر في الثقافات الإغريقية[1]. وهكذا حتى أهملوا الجانب الروحي الذي هو أشرف السعادات الدنيوية الذي لن يتوصل إلى سعادة الآخرة إلَّا به، لكن الله سبحانه وتعالى الذي يرعى شؤون خلقه، فإن سنته المألوفة بين عباده قائمة

(١) للاستزادة ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ص٦٤ ـ ٧٢ مرجع سابق.

على أن يبعث الله في كل أمة من يجدد لها أمور دينها ويعيدها إلى المسار الصحيح الذي فيه سعادتهم في الدارين، وهذا ما بشر به الرسول ﷺ بقوله: «**إن الله تعالى: يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنةٍ من يجدد لها دينها**»[1] إن هذه البشارة التي بشر الرسول - ﷺ - بها أمته تحققت في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة فقد بعث الله في عصر بني أمية من يجدد للأمة أمر دينها وهم العلماء والدعاة، كذلك العصر العباسي بعث الله كثيرٌ من الأولياء والعلماء والدعاة إن لم يكونوا أكثر عدداً من العصر الذي سبقه وقد كانوا أصحاب همة عالية في الغيرة على دين الإسلام وعلى ما أصاب المسلمين من انحطاط فجندوا أنفسهم متأسين برسول الله - ﷺ - والسلف الصالح من الصحابة، والتابعين بحثاً عن السعادة الحقة، فقد رأوها هؤلاء كما رآها من سبقهم بأنها متمثلة في طاعة الله واتباع سنة نبيهم - ﷺ - ورأوها أيضاً في الدعوة إلى الله لإخوانهم المسلمين بأن يتوبوا إلى الله ويتمسكوا بدينهم الذي فيه سعادتهم وعصمة أمرهم، كما رأوها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لولاة الأمر وقد كان من أبرزهم: الإمام احمد بن حنبل، وأبو الحسن الأشعري، والإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ جلال الدين الرومي، والإمام الزاهد إبراهيم بن أدهم، والإمام البلخي، وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم. لقد بحث هؤلاء الجهابذة عن السعادة الحقيقية فوجدوها في مواطن عدة من حياتهم كما سنبينه فيما يأتي مقتصرين على ذكر بعض منهم:

١ - الإمام الزاهد إبراهيم بن أدهم (٠٠٠ - ١٦١هـ)[2]:

لقد كان هذا الإمام من الذين بحثوا عن السعادة الحقة، فقد آثر

---

(١) رواه أبو داود في سننه - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي -، المتوفى (٢٠٢هـ): ٤ ١٠٩، رقم (٤٢٩١)، حققه محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط: (ب: ت)، والطبراني في الأوسط: ٦ ٣٢٤.

(٢) إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميمي البلخي أبو إسحاق: زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتفقه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشام، والحجاز =

محبة الله ورضاه على محبة الدنيا ومتاعها وملذاتها. وهذا مما جعل الذهبي يصفه بأنه الإمام العارف سيد الزهاد[1]، وما ذلك إلَّا لأنه زهد في الرئاسة، والجاه والمنصب، فلقد كان والده من ملوك خراسان، ولكنه ترك ذلك الملك والجاه خلف ظهره وهاجر إلى الله بحثاً عن سعادته التي رآها في غير ما كان عليه، فذهب إلى العراق فمكث فيها أياماً فلم يعجبه المقام فسأل بعض المشايخ عن الحلال فقالوا له: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام وما ذلك إلَّا لأنه لم يجد الهدف المنشود الذي ينشده هناك، فتوجه إلى الشام وقام في مدينة يقال لها: المنصورة، فعمل بها أياماً لكنه لم يضفُ له شيءٌ من الحلال فسأل بعض المشايخ هناك، فقالوا له: إن أردت الحلال الصافي فعليك بطرسوس فتوجه إليها فعمل بها أياماً يحرس البساتين ويحصد الحصاد[2]. وواصل إبراهيم بن أدهم بحثه عن هدفه المنشود الذي فيه سعادته، فوجدها في مواطن عدة من حياته، في طلب العلم، وفي الزهد، والورع، والإخبات في المجاهدة، في الصوم في الحضر والسفر، في قيام الليل[3] حتى أثنى عليه كثير من جهابذة العلماء قال عنه سفيان الثوري: [كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة، لكان رجلاً فاضلاً][4] وقال إبراهيم بن بشار الصوفي: خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الفسولي وأبو عبدالله السنجاري، نريد الإسكندرية، فمررنا بنهرٍ يقال له: «نهر الأردن» فقعدنا نستريح، وكان مع أبي يوسف كُسيرات يابسات فألقاهن بين أيدينا فأكلنا وحمدنا الله،

= وأخذ عن كثير من علماء الأقطار، وجاءه إلى المصيصة (من أرض كيليكيا) عبد لأبيه ـ يحمل إليه عشرة آلاف درهم ويخبره أن أباه قد مات في بلخ وخلّف له مالاً عظيماً، فأعتق العبد ووهبه الدراهم ولم يعبأ بمال أبيه. وكان يلبس في الشتاء فرواً لا قميص تحته، ولا يتعمم في الصيف ولا يحتذي، يصوم في السفر والإقامة، واشترك مع الغزاة في جهاد الروم، وغير ذلك، الاعلام للزركلي: ١/٢٤.

(١) صلاح الأمة في علو الهمة: ٥/٩٧.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٤/٢٨٨ ـ ٢٨٩ بتصرف.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤/٢٩٠.

(٤) ينظر: المصدر نفسه ٤/٢٩٠.

فقمت أسعى أتناول ماءً لإبراهيم، فبادر إبراهيم فدخل النهر حتى بلغ الماء ركبتيه، فقال بكفيه في الماء فملأها، ثم قال: بسم الله، وشرب فقال: الحمد لله، ثم أنه خرج من النهر، فمد رجليه، قال: يا أبا يوسف، لو يعلم الملوك وأبناءُ الملوك، ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش، وقلة التعب، فقلت له: يا أبا إسحاق، طلب القوم الراحة، والنعيم، فأخطأوا الطريق المستقيم، فتبسم، ثم قال: من أين لك هذا الكلام[1].

هذا هو إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ الذي ترك ملك والده ولم يرى فيه سعادته فالتمس السعادة فيما ذكرناه فوجدها ورضي بالقليل من الكثير فنسأل الله أن يغرس القناعة والرضا بما قسمه الله بين قلوبنا.

٢ ـ الإمام الزاهد شيخ خراسان ـ شقيق البلخي (٠٠٠ ـ ١٩٤هـ)[2] ـ

لقد كان هذا الشيخ ممن تعلق قلبه للبحث عن السعاة وجدها في طلب العلم حتى أصبح شيخ بلاده، ووجدها في تألهه وزهده وعلى الرغم من ذلك كان رأساً من رؤوس الغزاة في الجهاد الذي كانت تشتاق إليه نفسه من أجل المواطن التي وجد السعادة الحقة فيها حيث أكد ذلك أحد إخوانه وأحبابه وهو حاتم الأصم بقوله: (كنا مع شقيق البلخي ونحن مصافو الترك في يوم لا أرى فيه إلّا رؤوساً تندر)[3]. وسيوفاً تقطع، ورماحاً تقصر، فقال لي شقيق، ونحن بين الصفين: كيف ترى نفسك يا حاتم؟ تراه مثله في الليلة التي زُفت إليك امرأتك؟! قلت: لا والله! قال: لكن والله أرى نفسي في هذا اليوم مثله في الليلة التي زفت

(١) صلاح الأمة في علو الهمة: ٢٩١/٤.

(٢) هو: شقيق بن إبراهيم بن علي الأزدي البلخي، أبو علي: زاهد صوفي، من مشاهير المشايخ في خراسان، ولعله أول من تكلم في علوم الأحوال (الصوفية) بكور خراسان، وكان من كبار المجاهدين استشهد في غزوة كولان (بما وراء النهر)، الأعلام ـ للزركلي: ٢٤٩/٣.

(٣) تقطع.

فيها امرأتي، قال: ثم نام بين الصفين ودرقته تحت رأسه، حتى سمعت غطيطه، قال حاتم: ورأيت رجلاً من أصحابنا في ذلك اليوم يبكي، فقلت: مالك؟ قال: قتل أخي. قلت حظ أخيك صار إلى الله وإلى رضوانه، فقال لي: اسكت، ما أبكي أسفاً عليه ولا على قتله، ولكني أبكي أسفاً أن أكون دريت كيف كان صبره لله عند وقوع السيف به، قال حاتم: فأخذني في ذلك اليوم تركي فأضجعني للذَّبح، فلم يكن قلبي به مشغولاً، كان قلبي بالله مشغولاً، أنظر ماذا يأذن الله له فيَّ، فبينا هو يطلب السكين من حفنه إذ جاءه سهم غابر فذبحه فألقاه عني[1] فللَّه درك يا شقيق البلخي في أشد الظروف الحالكة من هذه المعركة الحربية التي ترى الرؤوس فيها تقطع والدماء تسفك وأنت ترى كأنك في ليلة عرسك لقد ربَّيت نفسك تربية روحية، جعلتك تشعر بالسعادة، والرضا بما سيكون.

٣ ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني[2]: (ت ٥٦١هـ)

أ ـ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ:

لقد كان الشيخ عبد القادر ممن شاهد تلك الأحداث المؤلمة التي أصابت أمة الإسلام في ذلك العصر، من تشتت وافتراق وتناحر، وما استولى عليهم من حب الدنيا والتقاتل على الملك والجاه والسلطان وانصراف الناس إلى المادة والمناصب والتفافهم حول الملوك والأمراء وتقديسهم لهم فلم يكن من الشيخ إلَّا أن صرف همته وإخلاصه إلى الوعظ

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة: ٤٨٦/٣.

(٢) هو: عبدالقادر بن موسى بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد، والمتصوفين ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً سنة ٤٨٨هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة ٥٢٨/هـ، الزركلي: ١٧١/٤ ـ ١٧٢.

والإرشاد والدعوة والتربية وإصلاح نفوس المسلمين، وتزكيتها، ومحاربة النفاق والشغف بالدنيا والتكالب على حطامها،... وقد كانت مواعظه وخطبه مطابقة لعصره وأهل عصره، تتناول شؤونهم وما هم فيه من علل وأسقام تطبب قلوبهم، وتداوي أمراضهم، وترد على ضلالاتهم، وكانت تضرب دائماً الوتر الحساس، وتمس قلوبهم، وتجمع هذه المواعظ بين صولة الملوك، ورقة الدعاة، وبين زجر الآباء ورفق الأطباء[(١)]. ونظراً لإخلاصه في هذه المهمة الدعوية التي فيها سعادته وسعادة الأمة فقد كان لها أثر عظيماً على النفوس، وصدىً واسعٌ بين جماهير الأمة الإسلامية مشرقها ومغربها، ثم إن الله سبحانه وتعالى أيده بالكرامات الكثيرة قال أحد السلف الصالح من معاصريه: «لم أسمع عن أحد يحكي عنه من الكرامات أكثر مما يحكي عن الشيخ عبدالقادر»[(٢)] وذكر الشيخ عز الدين بن عبدالسلام: أنه لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلَّا الشيخ عبدالقادر فإن كراماته نقلت بالتواتر وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)] وهذه رفعةٌ من الله سبحانه وتعالى لأهل الإيمان وتزداد لأهل العلم قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[(٤)].

فقد رفع الله مكانته لقوة ايمانه وزاده رفعةً لعلمه وتعليمه الناس، «وأوقع له القبول العظيم فعقد مجلس الوعظ في سنة إحدى وعشرين واظهر الله الحكمة على لسانه»[(٥)].

ب ـ علو همته ومثابرته في الدعوة إلى الله

لقد كان لتلك الدعوة التي كان يقوم بها ثمارٌ يانعة فقد أصبح الناس يتقاطرون إليه من كل مكان حتى ازدحم الناس عليه ازدحاماً كبيراً. فكانوا

(١) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ٢١٧.
(٢) المرجع نفسه: ١/ ٢٠٦.
(٣) ينظر: المرجع نفسه: ١/ ٢٠٦.
(٤) المجادلة: (١١).
(٥) صلاح الأمة في علو الهمة: ١/ ٤١٦.

يأتون على الخيل، والبغال، والحمير، والجمال، حتى في الليل كانوا يأتون على الشمع والمشاعل فكان يحضر المجلس نحو من سبعين ألف[1]، ولقد كان لمجالسه تلك تأثير عظيم ونفع كثير، كما ذكره بعض من عاصره من أن مجالس الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رضي الله عنه ـ: «لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى، ولا ممن يتوب من قطاع الطريق، وقاتلي النفس، وغير ذلك من الفساق ولا ممن يرجع عن معتقد سيئ»[2].

عندما رأى الشيخ ـ رحمه الله ـ تلك النتائج المثمرة واليانعة أثناء مجالسته لذلك الخلق الكثير المتعطش لم يندم على عمله السابق الذي يعتاده في الخلوة وإنما زادت همته لإحياء تلك القلوب الميتة.

جـ ـ حين رأى ثمار تلك الدعوة:

لقد كان لذلك العمل الدعوي الذي كان يقوم به الشيخ أثر عظيم في نفوس الناس حتى أنه شغف به حباً لما رأى فيه من الخير الكثير له وللناس في الدنيا والآخرة، فقد عبر عن ذلك بما ذكره أحد معاصريه بقوله: «أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق؛ فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمس آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يدي من العيارين والمسالحة[3] أكثر من مائة ألف وهذا خير كثير»[4] قلت: حقاً لقد وجد الشيخ عبدالقادر السعادة الحقة فوالله إن الإنسان ليفرح إذا اهتدى على يده رجل منحرف بل ويحس بالسعادة فما بال تلك الألوف التي كان الشيخ عبدالقادر سبباً في هدايتها، فلا غرابةً في ذلك إذا أجهد نفسه في دعوة الناس لأنه كان يحس بالسعادة حينذاك حيث عبر عنها بقوله: «سبحان من

(١) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ١/ ٢٠٧ بتصرف.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٠٧.

(٣) المسالح: الجماعة أو القوم ذوو السلاح، هامش المرجع السابق.

(٤) ينظر: المرجع السابق نفسه: ١/٢٠٧.

ألقى في قلبي نصح الخلق، وجعله أكبر همي؛ إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء؛ أجرتي قد حصلت لي عند ربي عز وجل؛ ما أنا طالبُ دنيا، ما أنا عبد الدنيا، ولا الآخرة، ولا ما سوى الحق عز وجل، ما أعبد إلَّا الخالق الأحد القديم، فرحي بفلاحكم، وغمي لهلاككم»[1].

هذا هو سر همة الشيخ عبدالقادر فرحه بفلاح الأمة وغمه إذا أصيبوا بشقاء، ومن أجل ذلك نجده صبر صبراً عظيماً إذ تحمل أعباء تلك المسؤولية التي كان يحس بمتاعبها، لكنه كلما يشعر بفتور من ثقل تلك الأعباء لجأ إلى ربه يدعوه، فتأتي الاستجابة فيرفع عنه ثقل تلك المتاعب يقول الشيخ عبدالقادر: «وتردُ عليَّ الأثقال التي لو وضعت على الجبال تفسخت فأضع جنبي على الأرض وأقول: إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، ثم أرفع رأسي وقد انفرجت عني»[2] فهذا هو الشيخ عبدالقادر الجيلاني ـ رحمه الله ـ وتلك هي دعوته التي رأى فيها فلاحه وفلاح الأمة وسعادته وسعادتهم.

٤ ـ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية[3] (٦٩١هـ ـ ٧٥١هـ):

نشأ هذا الشيخ الجليل في عصر يزخر بالفتن فقد أصاب أمة الإسلام فرقة وتمزّق وما ذلك إلا بسبب الانحراف والبعد عن دين الإسلام الممتد من أواخر الدولة الأموية حتى نهاية الدولة العباسية واستمر الوضع كذلك حتى عصر المماليك أي الدولة العثمانية، فكثرت الفرق المنحرفة من

---

(١) الفتح الرباني، المجلس السادس: ونقلاً عن المرجع السابق: ٢٠٨/١.

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة: ٩٧/٥.

(٣) هو: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضري الخيري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حران وتحول به أبوه دمشق فنبغ، واشتهر، وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها فقصدها فتعصب عليه جماعة من أهلها فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢هـ، واعتقل بها سنة ٧٢٠، وأطلق ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، الأعلام ـ للزركلي: ١٤٠/١.

مسلمين وغير مسلمين، وهذا مما شجع الأعداء من التتار وغيرهم أن يغزوا بلاد المسلمين، يصولون ويجولون في مدنها ويسفكون الدماء وينتهكون الأعراض ويدمرون المدن لأنهم رأوا أن تلك الدولة التي كانت صاحبة شموخ وعزة، وسيادة قد تلاشت وأصبحت في خنع، وانحطاط في الأخلاق وتمزق كل هذه العوامل وغيرها مهد للعدو غزو بلاد المسلمين، ولعل ذلك تأديب من الله سبحانه وتعالى بسبب ما جنوه على أنفسهم من حكام ومحكومين لكن إرادة الله التي تكفلت بحفظ هذا الدين تأبى أن ينطفىء نوره فلا بد من أن يهيأ لكل أمة من يجدد أمر دينها، فلقد شاءت إرادته أن يظهر هذا الشيخ في هذا العصر، فشاهد الأحداث والفتن والفرقة التي أصابت أمة الإسلام لكن تلك الأمور لم تعكر صفوه ولم تعقه على الرغم أنه كان يشعر بآلامها ومرارتها، فما كان منه إلّا أن ذهب يشق طريقه في البحث عن السعادة له وللأمة التي أصابها الوهن والضعف حتى نامت واستغرقت في نومها فأصابها ما أصابها، لذلك نجده التمس السعادة في مواطن عدة من حياته فوجدها في أكثر من مواطن وكان من أبرزها ما يأتي:

⇦ أ ـ في طلب العلم ـ:

لقد حذا حذو أجداده ووالده بحثاً عن السعادة فطلبها في العلم منذ صغره فقد روى عنه معاصروه أنه كان لا يتجه إلى الملاعب والملاهي على الرغم من صغر سنه، كما رووا عنه أنه كان يتمتع بقوة الحفظ والذاكرة منذ صغر سنه[1].

لقد استغل ابن تيمية تلك الموهبة الربانية فشمر في طلب العلم بهمة عالية وصلاح سريرة، وإخلاص نية حتى وفقه الله بتوفيقه، وفتح عليه من فتوحاته وأغدق عليه من فيوضاته فأتقن بفضل الله كل علم من العلوم، فأصبح علامة عصره لا يباريه أحد[2].

(١) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ أحمد بن تيمية والقاضي علي الطنطاوي: ١/ ٣٤.

(٢) ينظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ أحمد بن تيمية والقاضي علي الطنطاوي: ٢/ ٤١.

⇦ ب ـ في الدعوة إلى الله، ومجاهدته للأعداء:

لقد كان هدف شيخ الإسلام ابن تيمية أن يمنحه الله العلم كي يدعو الناس إلى الله ويحارب البدع بصنوفها المختلفة، ولما مكنه الله من ذلك حمد الله وشكره على ذلك، فما كان منه إلّا أن جند نفسه للخوض في هذا الميدان الشاق منذ ريعان شبابه فإنه ما كاد يبلغ من العمر **٢٢** سنة إذ بدأ بإلقاء الدروس في الوقت الذي كان هناك فراغ كبير في مشيخة التدريس بدار الحديث بدمشق فشغل هو هذا الفراغ حتى حضر درسه هذا الأول كبار علماء دمشق، وفضلاؤها، وقد ترك هذا الدرس في نفوسهم تأثيراً عميقاً وجعلهم يعترفون بالتبحر العلمي، وسرعة بديهية العالم الشاب وفصاحته وجرأته. وواصل ابن تيمية مثابرته في إلقاء الدروس، والمحاضرات، والفتاوى وشمر عن ساعد الجد لشرح الكتاب والسنة في عصره وإثبات تفوق الدين وصحته، ومحاربة كل ما تراكم على أمة الإسلام من الضلالات العلمية، والعملية أما العلمية فالمتمثلة في الفلسفة الإلحادية، وعلم الكلام، وما أدخل على الإسلام من أفكار هدامة يهودية، ونصرانية، ومجوسية منحرفة، وأما العملية فقد تمثلت في البدع والفرق المنشقة وغير ذلك، لقد تسلح شيخ الإسلام لكل طائفة من هذه الطوائف بأسلحة علمية كان يتطلبها ذلك العصر في خضم علومه، وفترة الفوضى العلمية، والفكرية، فتعلم أسلحتهم وحاربهم بها حتى أدهش معاصريه، حتى ذاع صيته واشتهر علمه في أرجاء المعمورة وتزاحم الناس عليه هنالك كان يحس بالسعادة ولو واجه متاعباً في سبيل ذلك خاصة حين كان يرى كثير من الناس قد اهتدوا ورجعوا إلى الإسلام، أو الدخول في الإسلام من غير المسلمين، ثم أنه كان يفرح ويسر حين ينتصر على خصومه فيذعنهم للرجوع إلى دين الإسلام، أو الدخول فيه إن كانوا غير مسلمين[(١)] وهكذا ثم أن شيخ الإسلام ابن تيمية لم يقتنع بأن تكون سعادته محصورة على الدعوة فقط بل التمسها في الجهاد أيضاً، فقد جاهد التتار جهاداً

---

(١) ينظر: المرجع نفسه: ٤١/٢ ـ ٤٢، بتصرف واختصار.

مستميتاً عندما غزوا دمشق، فلما رأى ما فعلوه في البلاد لم يسكت فدعا الناس إلى الجهاد، وتقدم إلى المعركة بنفسه وكان فارساً ضرغاماً في المعركة والحديث طويل عن جهاده مع الأعداء وما واجهه ممن كانوا يحسدونه من أقرانه[1].

⇦ **جـ ـ في الصبر والثبات:**

إن من سنة الله بين عباده في أنه لم يجعل الحياة كلها حلوة، وإنما لا بد من الابتلاءات فحياة الدعاة كما هو معروف لم تسلم من المتاعب من ثقل أعباء تلك المهمة الدعوية أو عناد المعاندين، والمعارضين، وغرور الحاقدين والحاسدين، فهذه الأمور لم يسلم منها الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام ولقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية من الدعاة الذين عانوا من متاعب الحياة وشظف العيش، لكن أهل الإيمان والتقوى الذين يتمتعون بسعادة روحية فإنه مهما واجهوا من المتاعب فإنهم يشعرون بالسعادة أينما حلوا وأينما ظلوا. فها هو ابن تيمية يعتقله الأعداء ويوضع في السجن لكنه صبر واحتسب أمره إلى الله ورضي بقضاء الله وقدره ومع ذلك لم يفارقه الشعور بالسعادة حتى وهو في أحلك الظروف في داخل السجن فهذا هو تلميذه ابن قيم الجوزية يتحدث عن تلك المشاعر التي كان يمر بها شيخه قائلاً:

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة[2]: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان يقول: في محبسه بالقلعة: لو بذلت ملء القلعة ذهباً ما عدل عندي شكر هذه النعمة، أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا.

---

(١) للاستزادة ينظر المرجع نفسه: ص (٤٢ ـ ٥١).

(٢) وهو في السجن.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك، وحسن عبادتك..) ما شاء الله وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾(1).

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية، والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً وأشرحهم صدراً وأقواهم قلباً وأسرهم نفساً)(2).

---

(1) الحديد: (٣١).

(2) الوابل الصيب من الكلم الطيب ـ لشمس الدين أبي عبدالله محمد بن قيم الجوزية: ص ٦٩ ـ ٧١، حققه وخرج أحاديثه/ أياد عبداللطيف، منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد ـ تاريخ الإيداع في المكتبة الوطنية (١٩٨٧م).

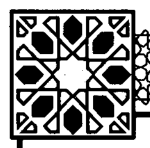

الفصل الثالث

أصناف الباحثين عن السعادة الوهمية

ويشمل على تمهيد ومبحثين:

التمهيد

المبحث الأول: صنف بحث عنها وحصرها في جانب معين

المبحث الثاني: صنف بحث عنها في مجالات شتى

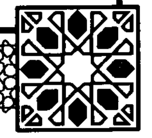

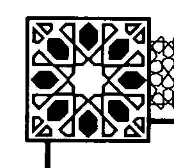
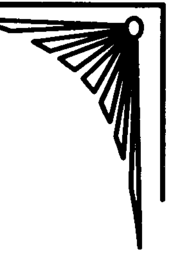

المبحث الأول

صنف بحث عنها وحصرها في جانب معين

تمهيد

لقد بحث هذا الصنف عن السعادة وحصرها في جانب معين من جوانب الحياة معتقداً أن تلك السعادة هي المنشودة ولكنها في الحقيقة وهمية يقول الدكتور/ يوسف القرضاوي: «لقد طلبها الأكثرون في غير موضعها، فعادوا كما يعود طالب اللؤلؤ في الصحراء صفر اليدين مجهود البدن، كسير النفس، خائب الرجاء، أجل جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية، وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها ـ وحدها ـ تحقق السعادة أبداً، وربما زادتهم مع كل جديد هماً جديداً»(١) وهذه بعض نماذج أستشهد بها على ذلك؟

١ ـ فرعون

لقد طلبها فرعون وأتباعه في الملك، ولكنه ملك بلا إيمان، وتسلط بلا طاعة حتى أنه تشدق في الجماهير كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى على لسانه بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾(٢)، فنسي

(١) الإيمان والحياة: ص٧١.

(٢) الزخرف: (٥١).

ذلك الطاغية المتكبر أن الذي أعطاه الملك هو الله والذي جمع له الناس تحت إرادته هو الله، والذي أطعمه وسقاه هو ربه وخالقه، لكنه جحد هذا المبدأ فإذا به يتجرأ بكلامه بكل وقاحة حيث أخبرنا الله سبحانه وتعالى أيضاً على لسانه قائلاً: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[1]. لقد رأى فرعون أن سعادته في الملك، وهذا ما جعله يقابل دعوة نبي الله موسى المرسل من قبل رب السموات والأرض الله بالرفض القاطع وعدم الخضوع لله رب العالمين، تلك هي السعادة الوهمية التي بحث عنها فرعون، لكن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عن الظالمين والمتكبرين المنحرفين الذين لا يريدون أن يستجيبوا لدعوته حاشاه، فلقد جنى فرعون على نفسه الويل من الله في الدنيا والآخرة وجلب على نفسه الشقاوة أيضاً في الدارين، لقد كان جزاء هذا العتو والتكبر والتمرد على الله: أنه لم يتحصل على السعادة الوهمية التي طلبها بل كان نصيبه اللعنة والطرد من رحمة الله. قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾[2].

ويقول الله تعالى عن مصيره هو وقومه ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه الملك ولا الخدم ولا الحشم، ولا الندم قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[3].

٢ - قـــارون

لقد منح الله قـــارون كنوزاً كالتلال، حتى أنه ملك الخزائن الطائلة من الأموال، فقد قيل أن مفاتيح تلك الخزائن كان يحملها ستون بغلاً لكل خزانة مفتاح ولا يزيد المفتاح على أصبع وكانت من جلود، وقيل: أن فرعون ملكه على بني إسرائيل فظلمهم[4]، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ

---

(١) القصص: (٣٨).

(٢) النازعات: (٢٥).

(٣) غافر: (٤٦).

(٤) ينظر: تفسير الكشاف: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي المتوفى (٥٣٨هـ): ٣/١٩٠، دار المعرفة، بيروت، ط: (ب:ت).

مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾[(١)]،

لقد كان قارون يرى نفسه أنه في سعادة فأصبح يفخر على قومه، بل تمادى في ذلك حتى بغى عليهم، هنالك أخذ قومه يقدمون النصح بأن يتراجع عن غيه، فينتفع بما آتاه الله من الغنى والثروة (الدار الآخرة) فيفعل فيه أفعال الخير من أصناف الواجب والمندوب ليكون ذخراً له في الآخرة، ولا ينسى نصيبه من الدنيا بأن يأخذ منه ما يكفيه ويصلحه، وأن يحسن كما أحسن الله اليه، بالشكر، والطاعة، وعدم مزاولة الفساد. لكن قارون لم يعمل بذلك النصح وإنما زاد تمادياً في غيه، فكفر نعمة الله، وقد حذره ربه وأنذره مغبة تصرفاته الوقحة، فأبى، وأصر على تجريد المال من الشكر، والسعي في الأرض فساداً وقد سجل لنا القرآن الكريم ما كان رده على قومه بكل وقاحة وجرأة حيث قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[(٢)]، يعني أنه كان أعلم بني إسرائيل لذلك فضل عليهم بالمال، فظن أن ذلك استحقاقاً[(٣)] ولما استمر قارون في تمرده وانحرافه كانت النتيجة الجزاء من جنس العمل قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾[(٤)]، هذا هو جزاء من يطغى ويظلم ويتكبر ويتمرد على الله ويؤثر السعادة الوهمية على السعادة الحقة.

٣ ـ الوليد بن المغيرة

يعد هذا الرجل أحد زعماء المشركين من قريش الذين كانوا يتطلعون

---

(١) القصص: (٧٦ ـ ٧٧).
(٢) القصص: (٧٨).
(٣) ينظر: تفسير الكشاف: ٣/١٢٣.
(٤) القصص: (٨١).

للزعامة والسيادة لقيادة ذلك المجتمع فعندما بعث الله نبيه ـ ﷺ ـ بين ذلك المجتمع وكلفه الله بأن يدعوهم إلى عبادته واتباع هدي شريعته التي فيها سعادتهم الحقة للدارين، عادوه وعاندوه وأبوا أن يذعنوا لدعوة الحق لأنهم يرون أنفسهم في سعادة. حيث المال، والجاه، والنساء، والللذائذ الدنيوية بجميع أنواعها، فالوليد بن المغيرة رآها في المال والبنين، فقد كان من اغنياء مكة منحه الله أموالاً كثيرة لا تعد ولا تحصى، وأعطاه الله من البنين عشرة، فكان يعتز ويفتخر بذلك، ويحضر بهم المحافل، ومع ذلك لم يشكر الله ويحمده فيستجيب دعوته، إنما جند نفسه وأمواله وبنيه لمحاربة الرسول ـ ﷺ ـ ودعوته وأتباعه وما ذلك إلا خوفاً من دين محمد الذي جاء به ليسلب منه سعادته التي كان يراها، إنه الجهل جعله يجهل السعادة التي جاء بها محمد ـ ﷺ ـ لكن الطغاة والظلمة والمتمردون لا بد لهم من التأديب الإلهي في الدنيا والآخرة، فالوليد بن المغيرة ـ عاقبه الله في الدنيا قبل الآخرة ـ، فقد أنزل الله في شأنه قرآناً موبخاً إياه وواصفاً له بتسعة أوصاف ذميمة تحط من قدره وكبريائه في الدنيا وتوعده بسقر في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾[1]، قال ابن عباس: لا نعلم أحداً وصفه الله بهذه العيوب غير هذا فألحق به عاراً لا يفارقه أبداً وأشد عيب من هذه التي وصفه الله ورسوله بها (زنيم) أي: ابن زنا قال المفسرون أنزلت في الوليد بن المغيرة فقد كان دعيّاً في قريش وليس منهم من ادَّعاه أبوه بعد ثمان عشر سنة سوى الوليد[2] هذا هو الوليد بن المغيرة ذمه الله سبحانه وتعالى بأقبح الصفات وسيظل يرددها كل مسلم كلما قرأ القرآن إلى يوم القيامة وقد تناولت ذلك كتب الحديث والسير والتاريخ، فهذا هو الشقاء بأم عينيه الذي جلبه الوليد على نفسه.

---

(١) القلم: (١٠ ـ ١٣).

(٢) صفوة التفاسير ـ محمد علي الصابوني: ٢/٤٢٦، ودار القرآن الكريم ـ بيروت ط٤ ـ (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م).

٤ ـ نابليـــــــون

منح الله سبحانه وتعالى هذا الرجل الملك والسلطان، لكنه طغى وتكبر وأفسد في الأرض، وسفك الدماء، وعاش في أحلامه تائهاً، لأن السعادة الوهمية التي كان يراها في الملك، والجاه، والخدم والحشم... جعلته يفعل ما يريد فنسي أن الله هو الذي ملكه أرض فرنسا وما جاورها من البلدان التي حكمها فما شكر الله ولكنه تمرد، ونبذ تعاليم دين المسيح ـ وإن كان معظمها حرِّف ـ وراء ظهره، فلو كان متمسكاً بمبادئ الدين المسيحي ما أقدم على ذلك، وعلى كل حال فماذا كانت نتيجة ذلك الطاغية؟ وهل كان يشعر بالسعادة أثناء حكمه؟ لقد كانت نهايته النفي من بلده، ومع ذلك كله لم يذق للسعادة طعماً أثناء حكمه. فقد عبر عن ذلك وهو في المنفى حيث أسرَّ إلى (أوميرا) بالنجوى الآتية قائلاً: «إن أجمل أيام حياتي هي التي مرت بين السادسة عشرة والعشرين... فقد كنت سعيداً آنذاك، وربما لم أك سعيداً عندما كنت في أوج السلطة العليا. إن كثرة المشاغل بلغت حداً لم تدع لي معه الفراغ الفعلي الكافي للاستمتاع بهذه الحال الهادئة التي تؤلف السعادة»[١] قلت فما قيمة الحكم الذي أطلقه نابليون، وقد أصبح مشرداً تائهاً يعاني من الحسرة والندامة فضلاً عما عاناه سابقاً.

٥ ـ الإمبراطور (بوكاسا)

قال الدكتور/ عمر الأشقر: إفريقيا الوسطى دولة فقيرة، وكثير من أهلها لا يجدون ما يقيم أودهم، وهم يعملون ليل نهار لتحصيل الرزق، ولا يهم رئيس تلك الدولة الفقيرة بحال شعبه المنكوب، وإنما ركز اهتمامه على أن يصنع له ولأسرته أمجاداً تحاكي مجد نابليون، لا بالقتال، والحروب وإعداد الجيوش، وإنما بتنصيب نفسه إمبراطوراً ـ إن تلك السعادة الموهومة التي عاشها (بوكاسا) جعلته يفعل ما يريد فقد

---

(١) السعادة والحضارة ـ جان كزنوف، وترجمه وعلق عليه د/ عادل العوّا ـ مطبعة جامعة دمشق، ط١ (١٣٩١ ـ ١٩٧٣م).

حول معظم ميزانية الدولة لحسابه الخاص هو وأقاربه وحاشيته فبذر وأسرف - فقد كانت مراسيم تتويج الإمبراطور بوكاسا الذي يعد أول امبراطور لأفريقيا الوسطى شبيهةً بمراسيم تتويج الإمبراطور نابليون لقد استقدم (١٢٠) موسيقار ليعزفوا له، وألبس حرسه ثياباً شبيهة بثياب فرسان الطاولة المستديرة، واختار زوجته (كاترين) لتكون (جوزفين) أخرى، واختارت الإمبراطورة ثيابها من (أزياء لانفان الباريسية) وبلغ طول عباءتها خمس أمتار، حملتها عشر فتيات، أطلقت عليهن لقب (وصيفات الشرف) وقد بلغ وزن فستانها (١٩) كيلو غراماً. واستقدم الإمبراطور (بوكاسا) الرسام الألماني «هانز لينوس» بطائرة خاصة نفاثة مرتين في شهر واحد لرسم الخطوط الأولى للوحة في قاعة العرش، وأمر الإمبراطور بإطلاع الرسام الألماني على كل ما يحتاج إليه من ثياب التتويج إلى التاج الإمبراطوري، وغير ذلك من مستلزمات الصورة التاريخية لصاحب الجلالة، إن هذا التصرف الذي قام به (بوكاسا) ليدعو إلى الغرابة والتعجب. لأنه قد يتقبل الناس مثل هذا البذخ والطغيان من زعماء دولة قوية ثرية، ولكن هذا الطغيان والتعالي من رئيس دولة فقيرة يكون مضحكاً ومخزياً. ومحزناً على أبناء شعبه الذين يبحثون عن الرزق الذي يسد رمق جوعهم وجوع أطفالهم[1].

وعليه فماذا كانت نتيجة ظلمه وطغيانه وبذخه، وإسرافه يقول الدكتور/ عمر الأشقر: لقد طار الزعيم بوكاسا عن عرشه في لمحة عين، لقد خرج من بلاده في مهمة رسمية، واستلم الذين كانوا عماد حكمه الحكم بعده وبقي عرشه وتاجه وصولجانه هناك بعيداً عنه وأصبح (بوكاسا) العظيم حكاية تروى[2].

---

(١) ينظر: جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة، د/ عمر سليمان الاشقر: ص ٢٩ - ٣٠، مكتبة الفلاح، دار النفائس، ط: (ب:ت). ونقلاً عن طريق السعادة، د/أحمد فريد: ص ٦٩، الدار السلفية - الإسكندرية، ط١: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ص٧٠.

٦ ـ شاه إيـــــران

أن هذا الرجل ممن أهملوا البحث عن السعادة الحقة وجعل جلَّ همه في البحث عن السعادة الوهمية في الترف والملاذ. فلقد أقام شاه إيران حفلاً عظيماً ليعيد فيه ذكرى مرور ألفين وخمسمائة سنة على قيام الدولة الفارسية، وأراد أن يبسط نفوذه على الخليج ثم على العالم العربي بعد ذلك، ليلتقي مع اليهود، فكيف كانت نهاية ذلك الرجل الذي كان يتفنن ويتقلب كالطاووس لقد تشرد طرداً! لم يجد بلداً يأويه، حتى أمريكا التي كان أذل عميل لها، وظل على هذه الحال حتى مات شريداً طريداً في مصر، بعد أن أنهكه الهم وفتك به المرض، أما أولاده، وأهله وحاشيته فقد أصبحوا أشتاتاً متفرقين في عدة قارات.

وقالت مجلة أمريكية اسمها: (دوسييه) نقلاً عن أحد الأطباء الذين أشرفوا على علاج الشاه الراحل أثناء مرضه: إن الشاه مات متأثراً بمرض الإيدز، وأنه مر بنفس الأعراض التي يمر بها المرض الجنسي الذي كشف حديثاً[(١)]. وتابع د/ الأشقر حديثه عن هؤلاء قائلاً: ما أجدر هؤلاء بقول المفرط النادم يوم القيامة: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ (٢٩)﴾[(٢)]، وبقوله عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ (٤٩)﴾[(٣)]، فأهل الجاه والسلطان، والمناصب، والمعرضين عن شرع الله عز وجل هم أشقى الناس في الدنيا والآخرة أن لم تتداركهم رحمة الله عزَّ وجلَّ[(٤)] قلت: إن هؤلاء وأمثالهم فرغوا الإيمان من قلوبهم وأصبحوا منغمسين في ملاذ الدنيا وشهواتها متجاهلين أن هناك ما هو أسعد بكثير مما هم فيه بل لو كان في قلوبهم إيمان لذاقوها في الدنيا قبل الآخرة، فهذه بعض نماذج لمن طلبوا السعادة الوهمية ويوجد في زمننا المعاصر الكثير من أمثال هؤلاء نسأل الله السلامة والهداية لنا ولهم.

---

(١) ينظر: طريق السعادة: ص ٦٥ ـ ٦٦.

(٢) الحاقة: (٢٨، ٢٩).

(٣) الدخان: (٤٩).

(٤) طريق السعادة: ص١٦.

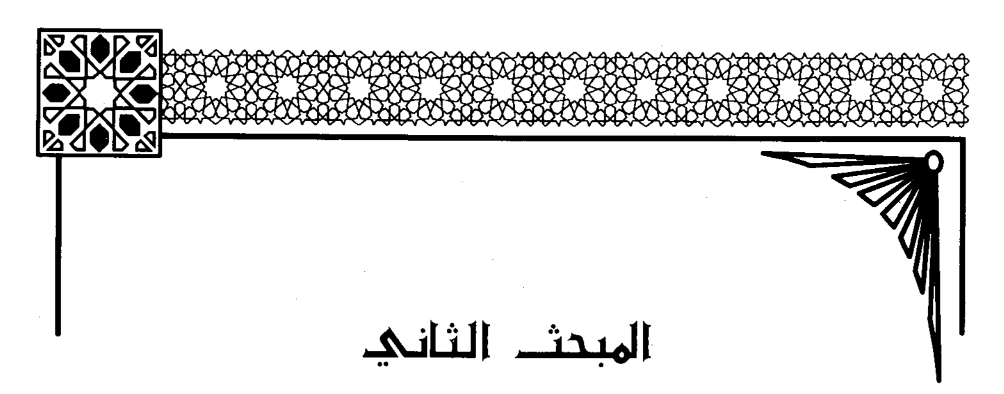

المبحث الثاني

صنف بحث عنها في مجالات شتى

تمهيد

لقد تعددت رؤى الناس في نظرتهم إلى السعادة وتفسيرهم لها؛ فتجد كل يفسرها بما توحيه إليه طبيعته، وجبلته، وبما يمليه عليه عقله، وعقيدته، وبما تطمح إليه نفسه، وتتطلع إليه همته، حقاً إن الناس مختلفون في هذه السعادة الإنسانية وقد أشكلت عليهم إشكالاً شديداً جعلهم يتفارقون في شأنها ولا يهتدون إلى مكانها فالفقير يرى أن السعادة العظمى في الثروة واليسر، والمريض يرى أنها في الصحة والسلامة، والذليل يرى أنها في الجاه، والسلطان، والخليع يرى أنها في التمكن من الشهوات كلها على اختلافها، والعاشق يرى أنها في الظفر بالمعشوق،... والبدوي الذي نشأ في الصحراء حيث صفاء السماء ورقة الهواء وتمتعه من أنواع الحريات بما يشاء يعتقد السعادة في عزة النفس ورفعتها وشرفها، وسمو مكانتها يستميت في ذلك ولو رافقه شظف العيش وهكذا بل تجد من المسلمين بعد أن ضلوا الطريق وتنكبوا الطريق المستقيم يعيش تائهاً لا يجد للسعادة طريق فهو يبحث عنها في مجالات شتى، في جلب المال ولو من طرق الحرام في الفن والعشق، والغرام، وطلب الشهادة من أجل نيل منصب، والركض وراء الملاذ والشهوات في السينما، والمسارح

والمراقص، والمخدرات، وغير ذلك فتجده يدمر حياته وهو في تخبط ومع ذلك يرجع صفر اليدين والقصص الواقعية تشهد بذلك لمن جربوا البحث عن هذه السعادة الوهمية في مجالات شتى بل اعترف بذلك أناس جربوا ذلك فكانوا يحسون بشقاء، يعتري سويداء نفوسهم من ضيق، وكرب، وهم وبعد أن تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، إذ بالنور يلج إلى قلبه، وينشرح به صدره، فيجد الدرة المنشودة والسعادة المفقودة، ويحس ببرد اليقين، وبالرضا بالله رب العالمين، فيعلم أن القلب لا يسعد إلا بالله، ولا ينشرح إلَّا بطاعته، وهداه قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[1]، نعم فالذين انحرفوا عن دين الإسلام ورجعوا إلى حضرته تائبين وجدوا السعادة الحقة وكانت خاتمة حياتهم خاتمة خير، بينما تجد آخرين يسمرون في غيِّهم بحثاً عن السعادة الموهومة فتوافيهم المنية قبل أن يوفقوا بالتوبة والإنابة إلى الله، فتكون خاتمة حياتهم خاتمة شرٍ وسوء والعياذ بالله، وهذه بعض نماذج لكلا الحالتين نبينها فيما يأتي:

١ ـ الممثل المغربي (سابقاً) سعيد الزياني

يعد هذا الممثل ممن بحثوا عن السعادة في مجالات عدة عله يجدها وكان يوفق في كثير من أمانيه، إلَّا أنه كان يشعر دائماً بالشقاء لم يذق طعم السعادة، ثم طلبها بعد ذلك حين تاب إلى الله فذاق طعمها، وهذا هو يروي قصته:

يقول الأخ سعيد الزياني: نشأت في بيت من بيوت المسلمين ولما بلغت سن المراهقة كنت أحلم ـ كما كان يحلم غيري من الشباب المراهق ـ بتحقيق شيئين مهمين في نظري آنذاك وهما: الشهرة، والمال، فقد كنت أبحث عن السعادة، وأسعى إلى الحصول عليها بأي طريقة كانت.

في بداية الأمر التحقت بالإذاعة المغربية، وشاركت في تقديم بعض

---

(١) الأنعام: (١٢٥).

الفقرات التي تربط بين البرامج، ثم تقدمت فأصبحت أقدم برامج خاصة حتى اكتسبت خبرة في هذا المجال، ثم اتجهت إلى التليفزيون، وتدرجت فيه حتى أصبحت مقدِّماً من الدرجة الاولى، وهي أعلى درجة يحصل عليها مذيع أو مقدم ـ وأصبحت أقدم نشرات الأخبار، والكثير من برامج السهرة والمنوعات، وبرامج الشباب، واشتهرت شهرة كبيرة لم يسبقني إليها أحد، وأصبح اسمي على كل لسان، وصوتي يسمع في كل بيت، وعلى الرغم من هذه الشهرة إلَّا أني كنت غير سعيد بهذا. كنت أشعر بضيق في صدري فقلت في نفسي: لعلي أجد السعادة في الغناء، وبالفعل قد ساعدتني شهرتي في الإذاعة والتليفزيون أن أقدم من خلال أحد البرامج التليفزيونية أغنية قصيرة كانت هي البداية لدخول عالم الغناء، ودخلت عالم الغناء، وحققت شهرة كبيرة في هذا المجال، ونزل لي إلى الأسواق العديد بل الآلاف من الأشرطة الغنائية التي سجلتها بصوتي.

وعلى الرغم من ذلك كله، كنت أشعر بالتعاسة والشقاء، وأحس بالملل، وضيق الصدر، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[1]، فقلت في نفسي إن السعداء هم الممثلون، والممثلات، فأردت أن أشاركهم في تلك السعادة، فاتجهت إلى التمثيل وأصبحت ممثلاً من الدرجة الأولى، فكنت لا أمثل إلَّا أدوار بطولة في جميع الأعمال التي أقدمها، والحقيقة ودون مبالغة أصبحت شخصاً متميزاً في بلدي، فلا أركب إلَّا أغلى السيارات وأفخمها، ولا ألبس إلا أغلى الملابس الثمينة، ومكانتي الاجتماعية أصبحت راقية، فأصدقائي هم كبار الشخصيات من الأمراء وغيرهم، فكنت أنتقل بين القصور من قصرٍ إلى قصرٍ، وتفتح لي الأبواب، وكأني صاحب تلك القصور، ولكن على الرغم من ذلك كله، كنت أشعر بأني لم أصل إلى السعادة التي أبحث عنها.

---

(١) الأنعام: (١٢٥).

وفي يوم من الأيام أجرى معي أحد الصحفيين لقاءاً صحفياً طويلاً، وكان من بين الأسئلة التي وجهها إليّ هذا السؤال: الفنان سعيد الزياني... من المصادفات أن اسمك ينطبق على حياتك، فاسمك سعيد، وأنت سعيد ما تقول في ذلك: وكان الجواب: .. وفي الحقيقة إن ما تعتقد، ويعتقده كثير من الناس غير صحيح فأنا لست سعيداً في حياتي، واسمي في الحقيقة لا يزال ناقصاً، فهو يتكون من ثلاثة أحرف: س،ع،ي: «سعي» وأنا ما زلت أسعى أبحث عن الحرف الأخير، وهو حرف «الدال» ليكتمل اسمي، وتكتمل سعادتي، وإلى الآن لم أجده وحين أجده سوف أخبرك. وقد أجري معي هذا اللقاء وأنا في قمة شهرتي وثرائي، ومرت الأيام والشهور والأعوام، وكان لي شقيق يكبرني سناً، هاجر إلى بلجيكا، وهناك التقى ببعض الدعاة المسلمين فتأثر بهم، وعاد إلى الله على أيديهم حينها فكرت في القيام برحلة سياحية إلى بلجيكا، أزور فيها أخي، فأمرّ عليه مرور الكرام، ثم أواصل رحلتي إلى مختلف بلاد العالم. سافرت إلى بلجيكا، والتقيت أخي هناك، فوجئت بهيئته المتغيرة، وحياته المختلفة، والأهم من ذلك السعادة التي كانت تشع في بيته، وحياته، وتأثرت كثيراً بما رأيت، إضافةً إلى العلاقات الوثيقة التي تربط بين الشباب المسلم في تلك المدينة، وقد قابلوني بالأحضان، ورحبوا بي أجمل ترحيب، ووجهوا لي الدعوة لحضور مجالسهم واجتماعاتهم والتعرف عليهم بصورة قوية، فما كان مني إلا أن أجبت الدعوة، وكنت أشعر بشعور غريب وأنا أجلس معهم، وكنت أشعر بسعادة عظيمة تغمرني لم أشعر بها من قبل، ومع مرور الأيام قمت بتمديد إجازتي لكي تستمر هذه السعادة التي طالما بحثت عنها فلم أجدها، وهكذا كنت أشعر بالسعادة مع هؤلاء الأخيار تزداد يوماً بعد يوم، والضيق والهم. والشقاء يتناقص يوماً بعد يوم، حتى امتلأ صدري بنور الإيمان، وعرفت الطريق إلى الله الذي كنت قد ضللت عنه مع ما كنت أملكه من المال والثراء والشهرة وأدركت من تلك اللحظة أن السعادة ليست في ذلك المتاع الزائل إنما هي في طاعة الله عز وجل القائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[(١)]، وقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[(٢)]. امتدت إجازتي عند أخي أكثر من سنتين، وأرسلت رسالة إلى الصحفي الذي سألني السؤال السابق وقلت له: الأخ... رئيس تحرير صحيفة... في جريدة... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أود أن أذكرك بالسؤال الذي سألتني فيه عن السعادة، وذلك في يوم... وتاريخ... وقد أجبتك بالجواب التالي: ووعدتك متى وجدت حرف «الدال» والآن يطيب لي، ويسعدني، ويشرفني أن أخبرك بأني قد وجدت حرف الدال المتمم لاسمي، حيث وجدته في الدين والدعوة، وأصبحت الآن سعيداً حقاً[(٣)]. إنه الإيمان الذي يصلح النفوس، ويشرح الصدور يجعل كل من تمسك به سعيداً في دار الدنيا ودار الآخرة.

٢ ـ طبيبة تصرخ قائلة: خذوا كل ما أملك وأسمعوني كلمة (ماما)

وهذه امرأة طلبت السعادة في نيل الشهادة، فكانت أمنيتها أن تكون طبيبة ويصبح لها عيادة تعالج المرضى، وتحققت تلك الأمنية لها. لكنها لم ترَ السعادة في ذلك ولم تذق طعمها، لكنها أصبحت تحلم بأمنية أخرى لعلها تجد السعادة فيها وإليك أيها القارئ ما تقوله هذه المرأة حسب ما سطرته بقلمها ونشرته في مجلة اليمامة، فقد جاء من ضمن كلامها: السابعة من صباح كل يوم يستفزني، ويستمطر أدمعي لماذا؟ أركب خلف السائق متوجهة صوب عيّادتي ـ [ثم تستدرك حديثها] ـ بل مدفني، بل زنزانتي، تعبر عن عيادتها التي طالما كافحت حتى تصل إليها تعبر عنها بـ(المدفن) تعبر عنها، بـ(الزنزانة) ثم تقول: وعندما أصل مثواي بدلاً من

---

(١) النحل: (٩٧).

(٢) طه: (١٢٤).

(٣) التائبون إلى الله ـ إبراهيم بن عبدالله الحازمي: ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣، دار الشريف للنشر والتوزيع، ط: (ب:ت).

أن تقول: أصل إلى مكتبي ومقر سعادتي تقول: أصل مثواي. ويتواصل الحديث: أجد النساء بأطفالهن ينتظرنني، وينظرن إلى مِعطفي الأبيض وكأنه بردة حريرية فارسية هذا في نظر الناس وهو في نظري لباس حداد لي. ثم تواصل قولها: أدخل عيادتي، أتقلد سماعتي، وكأنها حبل مشنقة يلتف حول عنقي العقد الثالث يستعد الآن لإكمال التفافه حول عنقي ـ [أي: بلغت الثلاثين من عمرها] ـ والتشاؤم ينتابني على المستقبل ـ [وأخيراً تصرخ وتقول] ـ : خذوا شهاداتي، ومعاطفي، وكل مراجعي، وجالب السعادة الزائفة [تعني المال] وأسمعوني كلمة (ماما) (ثم تقول هذه الأبيات):

لقد كنت أرجو أن يقال طبيبةٌ	فقد قيل فما نالني من مقالها
فقل للتي كانت ترى فيّ قدوةً	هي اليوم بين الناس يرثى لحالها
وكل مناها بعض طفلٍ تضمه	فهل ممكنٌ أن تشتريه بمالها

التوقيع: دكتورة س.ع.غ. الرياض[1]

نعم: إن آخر المطاف بالمرأة هو أن تصبح أُماً مهما تعلمت ونالت من شهادات هي أن تتزوج وتكوّن أسرة، وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها بالذات، وعليه فأنني أنصح كل طالبة أن تضع ذلك في حسبانها. من أنها مهما تعلمت فإن مصيرها تصبح أماً، وبعدها تفكر في العمل والشهرة طالما هي بحاجة إليه والزوج بحاجة اليه، فإن لم يكونا بحاجة إليه فالأولى بها أن تهتم بتربية أبناءها وتعليمهم وأبناء الأهل والأقارب إن كان لها قدرة، لكنه قد تجد الكثير يقلن وأين المتقدمون؟ فنقول لها المتقدمون كثيرون طالما هي مؤمنة ملتزمة مؤدية لحقوق ربها محافظة على صلواتها، وعلى شرفها وسمعتها، ملتزمة بمكارم الأخلاق التي

---

(١) ينظر: السعادة بين الوهم والحقيقة ـ د. ناصر العمر: ص ٢٤ ـ ٢٦، دار الصفوة ـ الرياض، ط١: (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م): ص٢٤ ـ ٢٦ بتصرف واختصار.

حثّ عليها الإسلام، مع أمها، وأبيها وإخوانها وجيرانها فإذا كانت سمعتها حسنة قذف الله محبتها في قلب شابٍ صالح، تفاجأ في يوم من الأيام بأنه تقدم لها من أبيها ثم أنه كما ينبغي للمرأة أن تكون بهذه الصورة المثالية فلا بد أن يكون المتقدم كذلك. أهم شيء أن يكون صاحب دين وخلق وهذا ما حث عليه الإسلام أيضاً. فإن كان الزوجان بهذه السمة التي ترضي رب العالمين فإنهما لا محالة سيذوقان طعم السعادة الزوجية ولذتها. وهذا أمر مجرب على مر الأزمان والعصور، أما إذا كانا عكس ذلك فلا بد من أن يحصل بينهما شقاق وخلاف مستمر ولن يعرفا للسعادة طعماً عندما ينعدم الإيمان ولربما حصل الفراق في غضون أشهر أو بضع سنوات والقصص الواقعية في حياتنا اليومية تشهد بذلك. وعلى كل حال فإن الزواج سنة من سنن الكون بل إن الإسلام اعتبره من السعادات الدنيوية كما جاء في الحديث الشريف: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقوة ابن آدم ثلاثة، من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء**»[1]. وغير ذلك من الأحاديث. ثم يجب على المرأة المسلمة أن لا تفكر بأنها لن تكون سعيدة إلّا إذا تزوجت برجل ثري أو صاحب سلطان، أو صاحب مكانة مرموقة، أو صاحب شهادة عالية دون أن تفكر في أنه صاحب إيمان وخلق. إن مثل هذا التفكير خاطئ جداً. لأنه لا سعادة مع رجل ليس عنده إيمان وتقوى، فلربما تعيش في قمة السعادة مع شاب من ذوي الدخل المحدود يمتلك الزاد الروحي من الإيمان والتقوى أكثر من المادي، ثم أقول لمثل هؤلاء الأخوات أن السعادة ليست في المال ولا في الشهرة، ولا في الشهادات العالية إنما هي في الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك: ٢/١٥٧، رقم (٢٦٤٠) عن سعد بن مالك، وقال صحيح الإسناد، ورواه البخاري في الأدب المفرد: ١/٥٤، رقم (١١٦)، وبلفظ: «**من سعادة المرء المسلم المسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهني**»، عن نافع بن عبدالحارث.

٣ ـ قصة كريستينا أوناسيس (وهي مثال لشقاء أصحاب الأموال)

يروي هذه القصة أحد الدعاة المعاصرين[1] قائلاً: تلك القصة العجيبة التي تؤكد أن المال مهما زاد وكثر لا يمكن أن يكون وحده سبباً للسعادة، قصة عجيبة تابعت فصولها على مدى خمسة عشر عاماً أو تزيد، وانتهى آخر فصل منها منذ أشهر فقط إنها قصة: (كريستينا أوناسيس)، إليكم قصة هذه المرأة تلك الفتاة اليونانية ابنة المليونير المشهور (أوناسيس) ذلك الذي يملك المليارات، يملك الجزر، يملك الأساطيل، لقد ورثت عن أبيها ما يزيد على خمسة آلاف مليون ريال[2]. فتاة تملك أسطولاً بحرياً ضخماً، تملك جزراً كاملة، تملك شركات طيران، وخلاصة القول إن هذه الفتاة كانت قد تزوجت في حياة أبيها برجل أمريكي وعاش معها شهوراً ثم طلقها أو طلقته، وبعد وفاة أبيها تزوجت برجل آخر يوناني، وعاش معها شهوراً، ثم طلقها أو طلقته، ثم انتظرت طويلاً تبحث عن السعادة، أتعلمون من تزوجت؟

للمرة الثالثة (أغنى امرأة في العالم على الإطلاق) أتعلمون من تزوجت؟ لقد تزوجت شيوعياً روسياً، يا للعجب، قمة الرأسمالية تلتقي مع قمة الشيوعية، وعندما سألها الناس والصحفيون ـ بشكل خاص ـ عندما سألوها: أنت تمثلين الرأسمالية فكيف تتزوجين بشيوعي؟

عندها قالت: أبحث عن السعادة[3].

وبعد الزواج ذهبت معه إلى روسيا وبما أن النظام هناك لا يسمح بامتلاك أكثر من غرفتين، ولا يسمح بخادمة، فقد جلست تخدم في بيتها ـ بل في غرفتيها ـ فجاءها الصحفيون ـ وهم يتابعونها في كل مكان ـ فسألوها كيف يكون هذا؟ قالت: أبحث عن السعادة.

---

(١) هو الدكتور/ ناصر العمر من المملكة العربية السعودية.

(٢) كان ينبغي عليه أن يحدد جنسية العملة فلعله يقصد بالريال: الريال السعودي.

(٣) لعل زواج كريستينا بالرجل الشيوعي كان في عهد ذلك النظام الشيوعي المتبع في الثمانينات.

وعاشت معه سنة ثم طلقها، بل طلقته، ثم بعد ذلك أقيمت حفلة في فرنسا وسألها الصحفيون: هل أنت أغنى امرأة؟ قالت نعم أنا أغنى امرأة، ولكن أشقى امرأة.

وآخر فصل من فصول المسرحية الحقيقية تزوجت برجل فرنسي، لاحظوا أنها تزوجت من أربع دول، وليس من دولة واحدة، لعلها تجرب حظها.

أقول: تزوجت بغني فرنسي (أحد رجال الصناعة) وبعد فترة يسيرة أنجبت بنتاً، ثم طلقها، بل طلقته. ثم عاشت بقية حياتها في تعاسة وهم، وبعد شهور وجدوها ميتةً في شالية في الأرجنتين، لا يعلمون هل ماتت ميتة طبيعية أم أنها قتلت؟ حتى إن الطبيب الأرجنتيني قد أمر بتشريح جثتها ثم دفنت في جزيرة أبيها. بعد سرد هذه القصة علق الدكتور ناصر العمر عليها قائلاً: فلو كانت السعادة بالمال لكانت هذه المرأة أسعد امرأة في الدنيا لأنها كانت أغنى امرأة فالمال شيء والسعادة شيءٌ آخر، لو كانت السكينة، والطمأنينة، وانشراح الصدر وحلاوة الإيمان، والأنس بالرحمن يشترى بالمال لأمكن أصحاب الأموال أن يصيروا أسعد الناس، فالمال يشترى به الشهوات الدنيوية، والأعراض الدنية، أما السكينة، والطمأنينة، والرضا والقناعة، وغير ذلك فهي أغلى من أن تشترى بمال الأرض كله، وإنما يحصلها العبد بإيمانه بالله عز وجل وعمله الصالح. وقد أشار القرآن الكريم إلى شقاء أصحاب الأموال الذين لا يتقون الله عز وجل في جمعها وإنفاقها وإخراج حق الله عز وجل منها، فقال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[١]، أي: يعذبهم بجمعها فيواصلون الليل والنهار في تحصيلها ويبخلون بإنفاقها، وهم كافرون يمنع حق الله عز وجل[٢].

---

(١) التوبة: (٥٥).

(٢) ينظر: السعادة بين الوهم والحقيقة: ص٢١ ـ ٢٢.

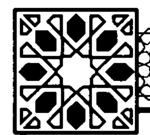

الفصل الرابع

أقسام السعادة عند بعض علماء السلوك

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد

المبحث الأول: رأي الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ

المبحث الثاني: رأي الإمام فخر الرازي ـ رحمه الله ـ

المبحث الثالث: رأي الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ

المبحث الرابع: استنتاج الباحث

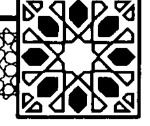

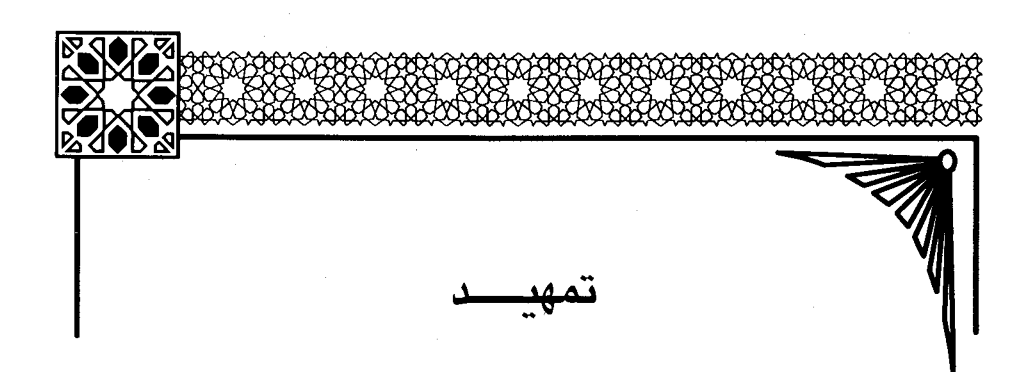

تمهيـــد

إنه من خلال الدراسة والبحث الدقيق وجد الباحث أن لبعض علماء السلوك باعٌ طويل في تقسيم السعادة، فقد قسموها إلى سعادة أخروية، وسعادة دنيوية وقسموا الدنيوية إلى أربعة أقسام: روحية (نفسية)، وبدنية، وخارجية وتوفيقية، واعتبروا الأولى أشرفها، ثم أنهم ألحقوا بهذه الأقسام فضائل عدة محققة للسعادة، مع اختلافهم في ذلك كلٌ حسب فهمه، فمنهم من تجد عنده نزعة فلسفية وصوفية، ومنهم من تأثر كل التأثر بمذهب الفلاسفة، ومنهم من تجنب ذلك، ومن هؤلاء العلماء الإمام الغزالي، والإمام فخر الدين الرازي، والإمام ابن قيم الجوزية، هذا إن لم يكونوا قد تفردوا عن غيرهم في تقسيمهم للسعادة لأن الباحث لم يجد سواهم، وسنبين تقسيم كلٍ منهم للسعادة، مع استنتاج ورأي الباحث فيما يأتي:

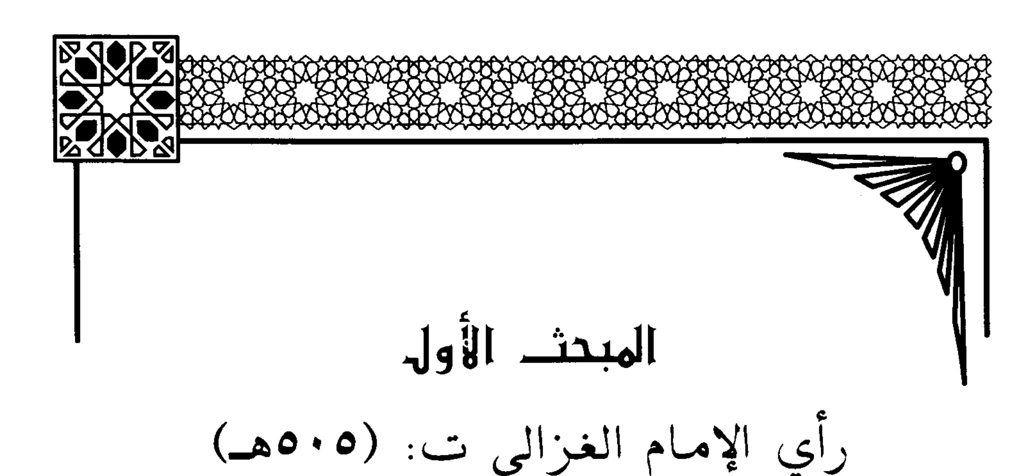

المبحث الأول

رأي الإمام الغزالي ت: (٥٠٥هـ)

يقول الإمام الغزالي: إن: (كيمياء السعادة لا تكون إلّا في خزائن الله سبحانه وتعالى ففي السماء جواهر الملائكة، وفي الأرض قلوب الأولياء العارفين فكل من طلب هذه الكيمياء من غير حضرة النبوة فقد أخطأ الطريق)[١] من هذا نجد أن الغزالي حدد الطريق لمن يبحث عن السعادة وهي الأخذ عن النبي الذي جاء بالشريعة قولاً وبالحقيقة عملاً وسلوكاً ثم أن الأنبياء عليهم السلام يعلمون الناس كيف يجعلون القلب في خندق المجاهدة يطهرونة ويصفونه من كل الأكدار والتغيرات التي تطرأ على النفس لكن كثير من الناس على الرغم مما جاءهم من الشرع فإن زيغ النفس يجعلهم يخلطون بين أنواع السعادات، فمنهم من يقف عند سعادات مقيدة ولذَّات فانية ولا يتجاوز إلى المطلق الخالد، ومنهم من يبحث عنها في مجالات شتى فيرجع صفر اليدين، وعلى هذا قسّم الغزالي السعادة إلى ضربين[٢]:

(١) كيمياء السعادة، ص١٠٦، نقلاً عن نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام د/ سعيد مراد، ص١٢٠ ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ط (١٩٩٢م).

(٢) ينظر: معراج السالكين، ص٢٩٥، (نقلاً عن نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام) مرجع سابق ص١٢١.

الضرب الأول: السعادة المطلقة

وهي التي اتصلت بالدنيا إلى ما لا نهاية له ولعل الغزالي يقصد بهذه السعادة، السعادة الروحية (النفسية) حيث اعتبرها هو والفخر وابن قيم بأنها أفضل وأشرف السعادات الدنيوية التي لها صلة عظيمة بسعادة الآخرة فإذا سعد الإنسان بها في الدنيا فإنها توصله إلى سعادة لا نهاية لها وهي سعادة الآخرة، لكن الناس يتفاوتون في هذه السعادة فلا يحظى بها إلّا أصحاب الهمم العالية.

الضرب الثاني: السعادة المقيدة

وهي ما كانت مقصورة على حال أو زمان ولا شك أن المطلق أفضل من المقيد، والكلي أشرف من الجزئي، واللانهائي أفضل من المنتهى المحصور قلت: فهذا الضرب الذي أتى به الغزالي ينطبق على من خلطوا بين أنواع السعادات فوقفوا عند سعادة مقيدة بحال ما أو زمن ما، كنعمة المال مثلاً، فإنه قد ينعم الله على عبدٍ من عباده نتيجة تجارة، فبمجرد أن تصيبه خسارة أصابته الهموم وأصابه الضجر لأنه فاقد للسعادة الأساسية التي هي السعادة الروحية، لأنه إذا كان يمتلك هذه السعادة لما أصابته الهموم والضجر والأحزان لأن الذي يمتلك هذه السعادة يرضى بقدر الله على ما أصابه، ويصبر ويحتسب لأنه يثق أن الله سيعوضه، فتلك النعمة نعمة الله وهكذا وبعد هذا فإن الغزالي بهذا التقسيم لم يعطنا إلا ضربين لتقسيم السعادة من ناحية أنها مطلقة ومقيدة لكننا وجدنا في بعض مؤلفاته إنه قد أجاد وبسط في الحديث عن تقسيمه للسعادة وإن كان ذلك التقسيم ممزوج بنزعة فلسفية لكن هذه النزعة احتوتها نزعته الصوفية الإسلامية سنستشف ذلك من خلال حديثه حيث قال: إن نعم الله وإن كانت لا تحصى مفصلة فجملتها منحصرة في خمسة أنواع[1]:

الأول: السعادة الأخروية التي هي بقاء لا فناء له، وسرور لا غمَّ

---

(١) ميزان العمل: ص٢٧.

فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر معه يخالطه، ولن يتوصل إليه إلَّا بالله، ولا يكمل إلَّا بالنوع الثاني.

الثاني: الفضائل النفسية: وجملتها في أربعة أمور:

١ ـ العقل: وكماله العلم. ٣ ـ الشجاعة: وكمالها المجاهدة.

٢ ـ العفة: وكمالها الورع. ٤ ـ العدالة: وكمالها الإنصاف.

وهي على التحقيق أصول الدين ـ يعني هذه الأربعة ـ.

الثالث: الفضائل البدنية: وهي منحصرة في أربعة أمور:

١ ـ الصحة ٣ ـ الجمال..

٢ ـ القوة. ٤ ـ طول العمر.

الرابع: وهي الفضائل المطيفة بالإنسان ـ يعني الخارجية ـ وهي منحصرة في أربعة أمور:

١ ـ المال. ٣ ـ العز.

٢ ـ الأهل. ٤ ـ كرم العشيرة.

الخامس: الفضائل التوفيقية: وهي منحصرة في أربعة أمور:

١ ـ هداية الله. ٣ ـ تسديده.

٢ ـ رشده. ٤ ـ تأييده.

هذا ما تفضل به الإمام الغزالي في تقسيمه للسعادات حيث قسمها إلى سعادتين أخروية وهي السعادة العظمى التي لا نهاية لها، والدنيوية التي حصرها في أربعة أنواع، وأدرج تحت كل نوع فضائله الفرعية كما رأينا ثم أن الغزالي ـ رحمه الله ـ بعد هذا التقسيم يستطرد حديثه عن مدى عظمة هذه الفضائل من حيث أنها مكملة لبعضها وكلٌ منها يحتاج إلى الآخر قائلاً: (فهذه السعادات بعد السعادة الأخروية ستة عشر ضرباً، ولا مدخل للاجتهاد في اكتساب شيءٍ منها إلَّا الفضائل النفسية على الوجه

الذي سبق، فقد عرفت أن هذه الخيرات خمسة، وهي: الأخروية، والنفسية، والبدنية، والخارجية، والتوفيقية، والبعض يحتاج إلى البعض، إما حاجة ضرورية كالفضائل النفسية التي لا مطمع في الوصول إلى نعيم الآخرة إلَّا بها، وصحة البدن الذي لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلَّا به. وإما حاجة نافعة كحاجة هذه الفضائل الخارجية، فإن المال والأهل والعشيرة إن عدمت تطرق الخلل إلى أسباب هذه الفضائل)[1] ثم بعد ذلك استطرد الإمام الغزالي حديثه موضحاً ومبيناً ما اندرج تحت هذه الأقسام الأربعة، وسنورد ما ذكره إن شاء الله في فصل (الفضائل المعينة على تحقيق السعادة) استشهاداً، وإذا كان هناك أي تعليق أو تحليل من قبل الباحث فقد رأى تأجيله ـ إلى بعد الانتهاء من أقوال الفخر الرازي وابن القيم ـ في مبحث استنتاجه ورأيه.

(١) ميزان العمل: ص٩٧.

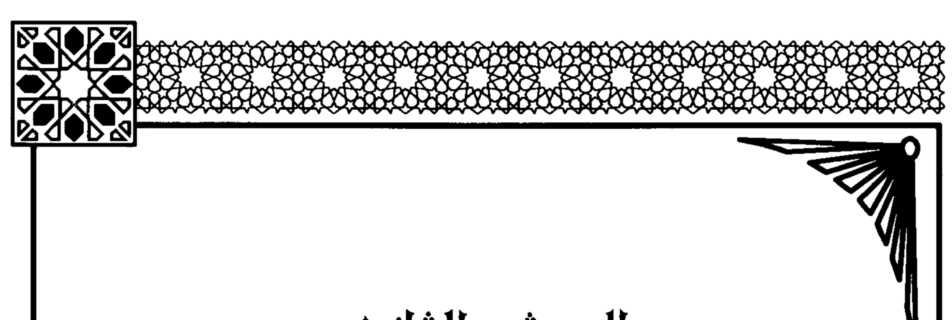

المبحث الثاني

رأي الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله ـ

إنه من باب الأمانة العلمية التي يجب على كل باحث أن يلتزم بها وهو نسب الحديث إلى قائله، لهذا فقد وجد الباحث أن هناك من كتب عن الفخر الرازي رسالة ماجستير بعنوان: (الرازي وأراؤه الكلامية والفلسفية) للباحث ـ محمد صالح الزركان ـ وأن مما ذكره الباحث في طي رسالته هو ما جمعه عن الرازي في رأيه وتقسيمه للسعادة فإنه بهذا قد سهل عليَّ مجهوداً كبيراً كنت سأبذله فجزاه الله عني خيراً. لكنه على الرغم من ذلك فإني اعتبرت ما أشار إليه من مصادر الرازي خطوطاً سرت عليها متتبعاً أقوال الرازي حيث تتبعت ذلك في كثير من أجزاء تفسيره (التفسير الكبير) لأن حديثه عن السعادة وتقسيمه لها موزع في أكثر من جزء، فعندما كنت أتأكد من أي نص أو تقسيم، أشير في الهامش بذكر الجزء والصفحة لأنني رجعت إلى طبعة أخرى غير الذي رجع إليها (الزركان) إلا أن هناك مصدر آخر للرازي يسمى (الملخص) لم أوفق في الحصول عليه لكن الباحث أشار إليه في ثنايا البحث كما سنلاحظ فيما يأتي، يقول الباحث: لا يخالف الفخر ما تواضع عليه الناس جميعاً من أن اكتساب السعادة أهم المطالب وأجلّ المقاصد... وهو لا يفرق بين اللذة والسعادة، ولذا فقد يعبر عن ذلك الهدف الذي يصبو إليه الإنسان تارةً باللذة وتارةً بالسعادة

فيقول مثلاً: (اللذة مطلوبة لذاتها والخلق قد أدركوا في هذه الحياة الدنيا أنواع اللذات الجسمانية، وما أدركوا شيئاً من السعادات الأخروية وإليه الإشارة بقوله سبحانه ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾﴾[1] ثم إنه تعالى نبه الخلق على الوجه الذي يرجح السعادات الأخروية على اللذات الدنيوية فقال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾﴾[2] وهذا البيان أقصى ما يمكن أن يذكر في هذا الباب ونقرره ببيان آخر: أن اللذات الأخروية خير من اللذات الدنيوية)[3] ويقول: - أي الفخر الرازي - : (السعادات الروحانية أشرف وأعلى من السعادات الجسمانية)[4] وعلى ذلك علق الباحث الزركان قائلاً: فمما لا ريب فيه إنه أطلق على السعادة اسم اللذة في قوله: (اللذة مطلوبة لذاتها) إذ من المسلم به أن المطلوب لذاته هو غاية الغايات وغاية الغايات هي السعادة بدلالة قول ابن الخطيب نفسه: (إن اكتساب السعادة أهم المطالب وأجلّ المقاصد). واستطرد الباحث في حديثه عن الرازي قائلاً: وأيضاً فقد عبر عن الهدف الدنيوي أو الجسماني مرة بالسعادة، ومرة باللذة وأطلق على الهدف الأخروي (أو الروحاني) آونة سعادة، وآونة لذة. وقد يجعل الرازي من (اللذة) أحد عناصر السعادة كما في قوله: (وأما السعادات البدنية: فالصحة، والجمال، والعمر الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة)[5] ويعلق الباحث على هذا النص قائلاً: (إلَّا إذا أمعنا النظر في هذا النص عرفنا إنه لا يقصد اللذة على التعميم بل اللذة الحسية التي تتبادر إلى أذهان الناس العاديين وهي لذة المأكل والمشرب والملبس،

---

(١) الأعلى: (١٦).

(٢) الأعلى: (١٧).

(٣) نقل هذا النص ابن القيم في كتابه (اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٢٠، ونقلاً عن فخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية) - محمد صالح الزركان - ص٥٨٩، دار الفكر - بيروت.

(٤) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر -. (٥٤٤ - ٦٠٤هـ)؛ ١١/١٣٦، دار الفكر - بيروت - لبنان، ط٥، (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

(٥) المصدر نفسه: ١٠/٨٣، وفخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية، ص٥٠٩.

واللذة الجنسية)[1] وبعد هذا الحديث عن السعادة واللذة عند الفخر الرازي شرع الباحث في الحديث عن تقسيم السعادة لدى الرازي حيث قال: (ويقسم الرازي السعادة تقسيمات متعددة والواقع أن ما يسميها أقسام السعادة إن هي إلَّا أقسام لوسائط السعادة والطرق المؤدية إليها لا للسعادة ذاتها. أي أن الفخر لم يشأ أن يميز بين السعادة وبين أسبابها اللهم إلّا في «الملخص» الذي سنؤخر بحثنا لموقفنا فيه نظراً إلى أنه يخالف كل أقواله الأخرى، وفيما يلي نعرض تلك التقسيمات التي ألمحنا إليها والتي قسمها إلى ثنائي وثلاثي ورباعي)[2].

أولاً: أتى بتقسيم ثنائي يجعل من السعادة (محصورة) فيما يأتي[3]:

١ - في كمال القوة العملية: وهي المواظبة على الأفعال الصالحة.

٢ - في كمال القوة النظرية: وهي التزود بالمعارف الإلهية.

وعبّر عن هذين القسمين في موضع آخر[4] وبـ(**التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله**).

ثانياً: وأتى بتقسيم ثلاثي، فقال: إن مراتب السعادات ثلاث:

روحانية، وبدنية، وخارجية.

١ - **أما الروحانية فاثنتان:**

أ - تكميل القوة النظرية: بالعلم.

ب - تكميل القوة العملية: بالأخلاق الفاضلة.

---

(١) فخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية: ص٥٩٠.

(٢) نفس المرجع: ص٥٩٠.

(٣) التفسير الكبير: ٢٠٣/٥.

(٤) المصدر نفسه: ١٠٠/٢٧.

٢ ـ **البدنية: اثنتان:**

أ ـ الصحة.

ب ـ الجمال.

٣ ـ **الخارجية: اثنتان أيضاً:**

أ ـ المال.

ب ـ الجاه[١].

وزاد الرازي هذا التقسيم تفصيلاً في مكانٍ آخر حيث قال: اعلم أن مراتب السعادة إما نفسانية، أو بدنية، أو خارجية. أما السعادات النفسانية فنوعان:

⇦ أحدهما: ما يتعلق بالقوة النظرية وهو:

١ ـ الذكاء التام.

٢ ـ الحدس الكامل.

٣ ـ المعارف الزائدة على معارف الغير بالكمية والكيفية.

⇦ ثانيهما: ما يتعلق بالقوة العملية وهي:

١ ـ العفة التي هي: وسط بين الخمود والفجور.

٢ ـ الشجاعة التي هي: وسط بين التهور والجبن.

٣ ـ استعمال الحكمة العملية التي هي: توسط بين البلة والجربزة.

ومجموع هذه الاحوال هو (العدالة) ثم إنه أضاف إلى السعادة البدنية العمر الطويل، واللذة والبهجة، أما السعادة الخارجية فقد توسع حتى أصبحت تشمل: كثرة الأولاد الصلحاء، كثرة العشائر، كثرة الأصدقاء

---

(١) ينظر: التفسير الكبير: ٢٠٣/٣.

والأعوان، والرياسة التامة، ونفاذ القول، وكونه محبوباً للخلق حسن الذكر فيهم، مطاع الأمر فيهم[1].

ثم ذكر الفخر الرازي بأن هذه الأمور هي مجامع السعادات وبعضها فطرية لا سبيل للكسب فيه وبعضها كسبية[2]، وهذا مما استدركته من كلام الرازي ولم يذكره (الزركان) ومما استدركته أيضاً أن الرازي أطلق على مراتب السعادة الثلاث الآنفة الذكر لفظ كمالات في موطن آخر حيث قال: (إن الكمالات على ثلاثة أقسام النفسانية، والبدنية، والخارجية وأشرف المراتب: النفسانية، وأوسطها: البدنية، وأدونها الخارجية. وأن الكمالات النفسانية محصورة في نوعين العلم اليقين والعمل الصالح)[3] وفي موطن آخر نجد الرازي يذكر مدى الترابط بين الروحانية، والبدنية حيث قال: (إن الإنسان مخلوق من جوهرين لطيف علوي روحاني، وكثيف سفلي جسماني وانضم إليهما حصول سعادة وشقاوة، فإذا حصلت الخيرات الجسمانية وانضم إليها حصول السعادات الروحانية كانت الروح فائزة بالسعادات اللائقة بها، والجسد واصلاً إلى السعادات اللائقة بها، ولا شك أن ذلك هو الفوز العظيم)[4] وهذا النص مما أستدركته أيضاً. وبعد هذا نعود إلى الباحث (الزركان) الذي فارقنا منذ لحظة حيث قال: (وفي الحق إنه لا يوجد فرق جوهري بين التقسيم الثنائي والتقسيم الثلاثي اللهم إلا من حيث الشكل ذلك لأن الرازي قد نظر في التقسيم الأول إلى طرق السعادة الأساسية فقصرها على العلم، والعمل، ونظر في التقسيم الثاني إلى كل الطرق ـ أساسية وثانوية ـ ومن ثم جعل أسباب السعادة النفسية (العلم والعمل) إحدى مراتب السعادة الثلاثة[5] وتابع الباحث تعليقه قائلاً:

---

(١) ينظر: المصدر نفسه: ١٠/٨٢ ـ ٨٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١٠/٨٣.

(٣) التفسير الكبير: ٢٧/١٢٢.

(٤) ينظر: التفسير الكبير: ١٦/١٣٧.

(٥) فخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية: ص٥٩١: والصواب أن يقول: الثلاث كما هو مقرر في تأنيث العدد وتذكيره.

(ويلاحظ أن التقسيم الثلاثي ما هو إلا ترديد لتقسيم أرسطو للخيرات الموصلة إلى السعادة، فقد رأى أرسطو أن الخير على ثلاثة أنواع: خير خاص بالنفوس وخير خاص بالأجسام، وخير خارجي، وذكر أن هذه الأنواع الثلاثة تشمل: التخلق بالأخلاق الفاضلة، والاستنارة العلمية، والصحة وحسن الصورة، والثراء، وتضافر الأصدقاء، والنفوذ السياسي، وشرف المولد، والعائلة السعيدة[١].

ثالثاً: أتى الرازي أيضاً بتقسيم رباعي للسعادة وأطلق عليه مراتب:

المرتبة الأولى: سعادة الكمالات النفسانية المتمثلة في:

أ ـ كمال القوة النظرية: وسعادة هذه القوة في حصول المعارف وأشرف المعارف وأجلّها معرفة إنه لا إله إلا هو.

ب ـ كمال القوة العملية: وسعادة هذه القوة في الإتيان بالأعمال الصالحة وأشرف الأعمال الصالحة هو عبودية الله تعالى.

المرتبة الثانية: وهي السعادات البدنية وهي قسمان:

أ ـ الصحة الجسدانية:

ب ـ كمالات القوة الحيوانية.

المرتبة الثالثة: وهي المتعلقة بالصفات العرضية البدنية وهي أيضاً قسمان:

أ ـ سعادة الأصول: والمقصود بها كمال حال الآباء.

ب ـ سعادة الفروع: والمقصود بها كمال حال الأولاد.

المرتبة الرابعة: وهي أخس المراتب فهي السعادة الحاصلة بسبب الأمور المنفصلة وهي:

أ ـ المال.

---

(١) المرجع نفسه: ص٥٩١ ـ ٥٩٢.

ب ـ الجاه[1].

هذا ما أورده (الزركان) على الرازي وتقسيمه للسعادة، وكذلك بعض الاستدراكات التي أضفتها ولم يأت بها الباحث من التفسير الكبير وما ذلك إلا لمزيد من الإيضاح ثم بعد ذلك عرج الباحث (الزركان) إلى ذكر أقوالٍ للرازي من كتابه (الملخص) التي تخالف أقواله السابقة حيث أشار إلى ذلك مسبقاً.

يقول الزركان: أما مذهبه في الملخص فيقوم على أن السعادة هي: (العلم بالله والاستغراق في محبته وأما العلوم الأخرى فلا يمكن أن تكون سبباً للسعادة)، فهو يقول: (والذي يظنه الأغمار من أن العلوم بالأمور العقلية كلها أسباب اللذة العقلية فهو خطأ، بل اللذة لا تحصل إلّا بالعلم بالله تعالى والاستغراق في محبته)[2].

والأخلاق أيضاً ليست سبيلاً إلى السعادة، غاية ما هنالك أنها تجنب النفس العذاب والألم، والتخلص من العذاب أمر سلبي، بينما السعادة إيجابية، وفي هذا المعنى يقول: (الصحيح عندي أن الأخلاق الفاضلة لا تكون سبباً للسعادة، فإن الغرض منه ألّا تصير النفوس شديدة التعلق بالبدن، فتأثيرها ليس إلّا في ألّا تصير معذبة أما في السعادة فلا)[3] وعلى هذا فقد علق الزركان قائلاً: (وإذا كان هذا هو موقفه من العلوم ـ عدا العلم بالله ـ والأخلاق الفاضلة الأحرى أن لا يقيم وزناً لباقي الأقسام الأخرى التي عرضناها فيما سبق)[4] هذا ما أورده الباحث (الزركان) عن آراء الرازي في تقسيمه للسعادة وما استدركته أيضاً إلّا إنه كان لي معه وقفات سأذكره في الاستنتاج إن شاء الله.

---

(١) التفسير الكبير: ١٩/٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) الملخص: ص١٦٣، نقلاً عن فخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية، ص٥٩٢.

(٣) الملخص: ص١٦٢، نقلاً عن الفخر الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية، ص٥٩.

(٤) المرجع نفسه: ص٥٩٣.

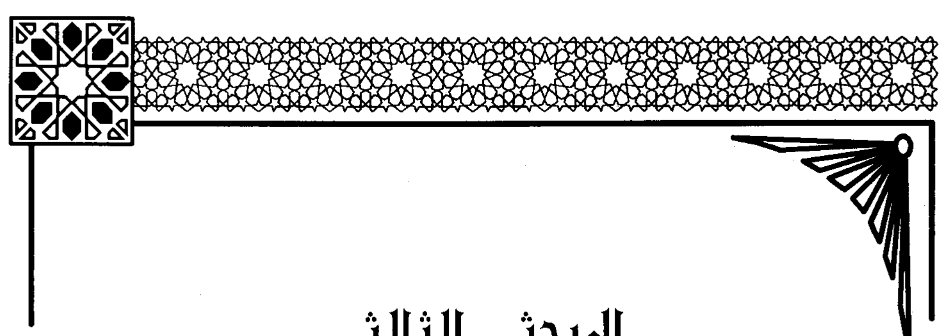

المبحث الثالث

رأي الإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ

يرى ابن قيم الجوزية ت: (٧٥١هـ) أن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادات:

الأولى: سعادة خارجية عن ذات الإنسان وتتمثل في:

أ ـ المال.

ب ـ الجاه.

لكنه اعتبر هذه السعادة مؤقتة كونها تزول حيث قال: بل هي مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية... ثم أكد ذلك قائلاً: فبينا المرء بها سعيداً ملحوظاً بالعناية مرموقاً بالأبصار إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالفهرواجي[١] فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة[٢] ابن عمه، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فإذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبَّادان[٣] قرية[٤] قلت: لقد أجاد الإمام ابن قيم ـ

---

(١) الفهراوجي: لم أجد له تفسير في معاجم اللغة إلَّا لكلمة (فهر) وهي الحجر التي يملأ اليد.

(٢) الجمة: بالضم مجمع شعر الرأس وهي أكثر من الوفرة لسان العرب، مادة (جم): ١٢/١٠٧.

(٣) عبَّادان: أن عبادان جزيرة أحاط بها شعبتان دجلة ساكبتين في بحر فارس، ونقلاً عن حاشية كتاب تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: ص٥.

(٤) ينظر: مفتاح دار السعادة ـ ابن قيم الجوزية ت (٧٥١هـ): ١/١٠٧، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ـ ط: (ب:ت).

رحمه الله ـ فيما عبر عنه من أن هذه السعادة مستعارة له من غيره لأن المال والجاه والأولاد والسلطان وغير ذلك تعتبر عارية الله على هذه الدنيا. لا يقدر أحد رد القدر عنها. لكن هذا لا يمنع من أن يفرح المرء بما أنعم الله عليه من المال والأولاد والصحة في البدن وغير ذلك لأن الله سبحان وتعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فالفرح والسرور يدل على أثر تلك النعمة فإن ذلك يعد من الشكر لله تعالى ومن تمام شكر العبد لربه أن يسخر تلك النعم في البذل والتضحية بالمال والجاه في طاعة الله حتى يتم الفرح والسرور.

والثانية: السعادة البدنية (الجسمانية) وتتمثل في:

أ ـ الصحة.

ب ـ اعتدال المزاج.

جـ ـ تناسب أعضائه وحسن تركيبه.

د ـ صفاء لونه.

هـ ـ قوة أعضائه.

ثم إنه عبر عن هذه السعادة بقوله: (فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه كما قيل:

يا خادم الجسم كي يشقى بخدمته   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان[1]

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه فإن البدن أيضاً عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها فسعادتها بصحته وجماله وحسنه

---

(١) ذكر في الهامش على أن البيت هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين:

يا خادم الجسم كي يشقى بخدمته   أتطلب الربح مما فيه خسران

انهض إلى الروح واستكمل فضائلها   فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها[1].

الثالثة: سعادة نفسانية (روحية) قلبية:

يرى الإمام ابن قيم على أن هذه السعادة هي حقيقية وأفاد أنها سعادة العلم النافع ثمرته فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره في دوره الثلاثة يعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال[2] ـ يعني الكمال الذي لم يبلغه إلّا الأنبياء ـ وبعد هذا التقسيم الذي أورده ابن قيم ـ رحمه الله ـ أخذ يبين حال كل سعادة من السعادات الثلاث المذكورة حيث قال: (أما الأولى فإنها تصحبه في البقعة التي فيها ماله وجاهه، والثانية تعرضه للزوال والتبدل بنكس الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة في الحقيقة إلا في الثالثة التي كلما طال الأمد ازدادت قوةً وعلواً، وإذا عدم المال والجاه فهي مال العبد وجاهه وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلَّا العلم بها، فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع)[3] قلت: وهذه حقيقة لا ينكرها أحد بأن الذي متعه الله بسعادة روحية فإنه لا يهمه مالٌ ولا جاه إذا نزع منه ذلك بقدر الله فالسعادة الروحية تغنيه لأنه راضٍ بما أصابه من الله أما الذي لا يمتلك هذه السعادة فتجده ضعيف النفس فبمجرد أن ينتزع الله منه مصلحة دنيوية أصبح في ضيق وحرج بل تضيق به الدنيا وهكذا، ويتساءل الباحث قائلاً: لماذا كثير من المسلمين ـ إن لم يكن الغالبية العظمى منهم ـ تركوا البحث عن السعادة الروحية وجعلوا كل همهم البحث عن السعادة الأخرى؟ يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ (وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها وعورة طريقها ومرارة

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة ١/١٠٧ ـ ١٠٨.
(٢) المصدر نفسه: ١/١٠٨.
(٣) المصدر نفسه: ١/١٠٨.

مباديها وتعب تحصيلها وأنها لا تنال إلّا على جد من التعب فإنها لا تحصل إلّا بالجد المحض بخلاف الأولين فإنهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه من ميراث أو هبة أو غير ذلك، وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق الطلب وصحة النية)[١] وقد أحسن القائل ذلك:

فقل لمرجي معالي الأمور ... بغير اجتهادٍ رجوت المحالا[٢]

وهذه حقيقة لا غبار عليها فقد أصبح الناس بعد أن تنكبوا الصراط وانحرفوا عن جادة الصواب أهملوا الجانب الروحي الذي فيه سعادتهم في الدور الثلاث ولما كان طريق هذه السعادة صعبة، وجهوا بحثهم إلى ما هو أسهل بحثاً عن سعادة مؤقتة بل لعلها في الحقيقة وهمية، لكن هذه الطريق التي يرونها سهلة في الدنيا ستعيقهم عن السير في طريق سعادة الآخرة السعادة الأبدية فعلى مثل هؤلاء أن يعيدوا النظر فقد أخطأوا الطريق نعم عليهم أن يراجعوا حساباتهم مع أنفسهم بأن يعرفوها طريق السعادة الروحية التي لا يتم الحصول عليها إلا بمجاهدة وتربية وتزود بالزاد الروحاني من الكتاب والسنة، فكما هو معلوم بأن الرسول ﷺ منذ بداية فجر الدعوة أول ما بدأ به هو الاهتمام بالجانب الروحي للصحابة الأوائل واستمر على ذلك حتى فارق الدنيا لذلك كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يتمتعون بهذه السعادة أفضل من أي سعادة حتى أنهم وجدوا ثمارها في كل خندق من حياتهم وكذلك التابعون الذين نهجوا نهجهم والأولياء والعلماء والدعاة في كل زمان ومكان. كما سبق توضيح ذلك.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١/١٠٨.

(٢) المصدر نفسه: ١/١٠٨.

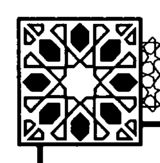

المبحث الرابع

استنتاج الباحث ورأيه:

إنه من خلال هذه التقسيمات الآنفة الذكر عن السعادة لبعض علماء السلوك استفادة الباحث استفادة عظيمة استنتج منها اتفاق هؤلاء العلماء الذين كان لهم باع طويل في تقسيم السعادة ـ على أنها تنقسم إلى أخروية، ودنيوية وأن السعادة الأخروية هي العظمى الدائمة التي لا تفنى وأن السعادة الدنيوية تنقسم إلى: روحية، وبدنية، وخارجية، وأضاف الإمام الغزالي التوفيقية وقد أيده الباحث على ما أضافه فإن الإنسان إذا وفق بأمر من أمور حياته يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه فإنه يحس بالسعادة، ومما استنتجه الباحث أيضاً: اختلاف العلماء المذكورين في الفروع التي تندرج تحت هذه الأقسام كل حسب فهمه واجتهاده، وعليه فقد كان للباحث وقفات: منها مؤيدة، ومنها ناقدة مع بعض التحليلات وهي على النحو الآتي:

أولاً: مع الإمام الغزالي:

١ ـ اتسمت منهجيته في تقسيمه للسعادة بنزعة فلسفية صوفية يتبين ذلك من خلال أسلوبه فالفضائل النفسية مثلاً التي يندرج تحتها: العقل، والعفة، والشجاعة، والعدالة فلعله أخذ ذلك من الحكماء القدامى الذين سبقوا أرسطو فإنهم قد أجمعوا على أن الفضائل والسعادة

كلها في النفس وحدها فعندما قسموها جعلوها كلها في قوى النفس وهي[1]:

١ ـ السعادة في الحكمة.

٢ ـ السعادة في الشجاعة.

٣ ـ السعادة في العفة.

٤ ـ السعادة في العدالة.

لكن وإن كان في تقسيم الإمام الغزالي نزعة فلسفية متأثراً بمن سبقوه من الحكماء القدامى، فإن النزعة الصوفية الإسلامية النابعة من فكره الإسلامي قد احتوت تلك النزعة نستشف ذلك حين جعل العلم كمال للعقل والعفة كمالها الورع والشجاعة ـ المجاهدة، والعدالة: الإنصاف. وهي المندرجة تحت الفضائل النفسية ثم إن الغزالي ـ رحمه الله ـ تعمق في توضيح ما اندرج تحت كل فضيلة[2] وسنستشهد بإيضاحاته تلك إن شاء الله في فصل الفضائل المعينة على تحقيق السعادة.

٢ ـ إن الإمام الغزالي حين رأى كثيراً من أئمة الإسلام في عصره انحرفوا وأصبحوا يتهافتون على مصالح الدنيا ومتاعها بحثاً عن سعادات دنيوية، مهملين الجانب الروحي الذي سينير لهم دروب السعادة الحقيقية كما أنارها لأسلافهم الصحابة والتابعين حين اهتموا به، حينها أراد الغزالي أن ينبههم من غفلتهم مبيناً لهم ولكل مسلم إلى يوم الدين حقيقة السعادة التي يجب أن ينشدوها وكأنه يقول: يا من أهملتم الروح واهتممتم بإمتاع الجسد وركنتم إلى الدنيا التي غرتكم حتى أصبحتم تتكالبون عليها، وغمرت قلوب بعضكم على بعض بالأحقاد والبغضاء حتى نتج التحاسد المذموم وأنتم تبحثون عن السعادة إنكم بهذا ضللتم طريق السلف الصالح

---

(١) ينظر: نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام: ص ٩٥.

(٢) للاستزادة: راجع إن شئت. كتاب ميزان العمل للغزالي مصدر سابق.

من قبلكم، إن السعادة الحقيقية هي في الآخرة تلك السعادة الأبدية التي لا تزول أبداً فإن كنتم تريدونها حقاً فارجعوا إلى جادة الصواب ثم أنه لا مانع أن تلتمسوها في الدنيا، فإذا أردتم البحث عنها فإنها موجودة في هذه الفضائل وما يندرج تحتها لكن بشرط أن يكون ذلك وفق ضوابط الشرع أما إذا كان على العكس من ذلك فإنه شقاء، ثم أن الغزالي يرى أن إطلاق اسم سعادات على هذه الفضائل إنما ذلك من باب المجاز كما سبق توضيح ذلك في مبحث حقيقة السعادة الدنيوية.

ثانياً: الإمام الرازي:

إن ما أورده الإمام الفخر الرازي ليدل على أنه نهج منهج الإمام الغزالي وغيره في بيان حقيقة السعادة وتقسيمها، إلَّا أن الفخر الرازي خاض في ذلك وتعمق كثيراً حتى أنه جمع بين مذهب الفلاسفة وغيرهم بل أنه تأثر بمذهب الفلاسفة أكثر من غيره. وبناءً على ما أورده الرازي فقد كان لي معه وقفات بعضها مؤيدة وبعضها ناقدة مع ملاحظات نبينها فيما يأتي:

١ - لقد تعجبت من الرازي على الرغم من غزارة علمه وجلالة قدره وجودة ذهنه من أنه لا يفرق بين اللذة والسعادة، وذلك من خلال أقواله التي أوردها الباحث (الزركان) من أنه أطلق على السعادة اسم اللذة، وعلى أنه عبر عن الهدف الدنيوي أو (الجسماني) مرة بالسعادة ومرة باللذة وأطلق على الهدف الأخروي (أو الروحاني) آونة سعادة وآونة لذة، فقد اعتبر الرازي في أحد أقواله (اللذة) أحد عناصر السعادة كما سبق توضيح ذلك[1] ولا داعي للتكرار. مع العلم أن هناك من كتب قبله عن السعادة وفرق بينها وبين اللذة، وبما أنه لم يرَ بينهما فرقاً فما الفرق بينهما إذاً؟

إنه من خلال التعريفات السابقة التي عرفنا معناها، وعليه فإن الفرق

---

(١) راجع إن شئت: ص١٢١ من هذا البحث.

بينها وبين اللذة يتمثل في: (أن السعادة حالة خاصة بالإنسان وأن رضا النفس بها دائم، على حين أن اللذة حالة مشتركة بين الإنسان والحيوان وإن رضا النفس بها مؤقت)[1] فهذا هو الفرق بينهما، وإذا أردنا معرفة حقيقة اللذة فإنها (شعور جسدي أو عقلي بما أحدثه الفعل من إرضاء لشهوة سواء أكانت جسدية، أم عقلية: فالشبع لذة لأنه سد الجوع، والصدق لذة لأنه أرضى الضمير، والفوز لذة لأنه أرضى الطمع بالشهوة أو رد بغياً، أو صان عرضاً، أو حفظ وطناً، والربح لذة لأنه أرضى شهوة الطمع في المال)[2] فهذه هي حقيقة اللذة، والحديث عنها طويل من حيث علاقتها بالألم وضروبها الكثيرة لا يتسع المقام هنا للحديث عنها، فيكفي أننا عرفنا هنا الفرق بينها وبين السعادة وحقيقتها أما عن تفاصيلها فلعلنا سنتناوله في ثنايا البحث إذا سنحت لنا الظروف واتسع بنا المقام.

٢ ـ أيدت الإمام الرازي على تقسيمه للسعادة تقسيماً ثنائياً رأى من خلاله أن السعادة في كمال القوة العملية: وهي المواظبة على الأفعال الصالحة، وفي كمال القوة النظرية التي هي: التزود بالمعارف الإلهية. وعلى تقسيمه الثلاثي الذي أطلق عليه مراتب السعادة: أولها الروحانية التي تعني: تكميل القوة النظرية بالعلم، وتكميل القوة العملية بـ (الأخلاق الفاضلة) لكنني عجبت منه عندما سلك مذهب آخر منافياً ومناقضاً لهذه الأقوال الواردة في تفسيره، وذلك في كتابه (الملخص) الذي أفاد فيه أن الأخلاق الفاضلة لا تكون سبباً للسعادة لكي لا تصبح النفس شديدة التعلق بالبدن[3]. قلت: كيف يحصل منه ذلك على الرغم أنه اعتبر أكثر من مرة أن الأخلاق الفاضلة عنصر من عناصر السعادة الروحية التي ذكر على أنها أشرف السعادات الدنيوية مراراً وتكراراً والعجيب أنه قيد الأخلاق الفاضلة فلو قال:

---

(١) المعجم الفلسفي: ص ٦٥٦ مرجع سابق.

(٢) الخلق الكامل: ١٩٤/١ مصدر سابق.

(٣) راجع ما قاله نصاً في ص ١٢٧ من هذا البحث.

أن بعض الأخلاق لا تكون سبباً للسعادة لتبادر إلى الذهن أنه يقصد بها الرديئة ـ كالكلام الكثير مثلا الذي ليس فيه فائدة بينما صاحبه يتلذذ به فإن هذا فعلاً ليس سبباً للسعادة، إنما هو سبب لإزالة الألم، فإن زوال ألمه بتفريغ ما بجوفه من كلام ـ أفضل من ذلك وعلى هذا التقييد الذي أتي به الرازي فإني لا أوافقه على ذلك لأن الأخلاق الفاضلة تعتبر من أهم ينابيع السعادة وقد جاء في الحديث عنه ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

٣ ـ عجبت من الرازي عندما توسع في السعادة الخارجية من تقسيمه الثلاثي لمراتب السعادة حين أضاف إلى المال والجاه كثرة الأولاد الصالحين، والأصدقاء، والأعوان، والرياسة ونفاذ القول، وحسن الذكر، وطاعة الناس على أساس أن هذه عناصر للسعادة الخارجية، وإن كان فيها ما هو مذموم فقد اعتبرها كذلك، بل تعد عناصر اللذة الروحية باعتبار كونه لا يفرق بين اللذة والسعادة، في حين أنه نقض هذا الرأي كما نقض جميع آراءه في كتابه (الملخص) كما أفاد الزركان سابقاً في أن الرازي يرى أن السعادة في العلم بالله والاستغراق في محبته أما العلوم الأخرى فلا يمكن أن تكون سبباً للسعادة، وقد رأيت أن أعيد ما قاله متجاوزاً قواعد البحث العلمي في عدم التكرار، ولكن الضرورة التي تبيح المحظورات اقتضت الإعادة كي يتسنى للمطلع وجه المقارنة بين أقواله المتناقضة يقول الرازي: (والذي يظنه الإغمار من أن العلوم بالأمور العقلية كلها أسباب اللذة العقلية فهو خطأ، بل اللذة لا تحصل إلا بالعلم بالله

(١) رواه البيهقي ـ أحمد بن الحسن بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي المتوفى (٤٥٨هـ): ١٩١/١٠، تحقيق/ محمد عبدالقادر عطا، مكتبة دار الباز ـ مكة المكرمة، ط: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م)، ومالك في الموطأ ـ أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي، المتوفى (١٧٩هـ) بلفظ: «**لأتمم حسن الأخلاق**»: ٩٤/٢، رقم (١٦٠٩) ودار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة: (ب:ت) وأحمد في مسنده بلفظ: «**لأتمم صالح الأخلاق**».

تعالى والاستغراق في محبته)[1] فلعل الرازي يعني باللذة هنا النابعة من السعادة الروحية فإذا كان هذا مقصده فهذا صحيح نؤيده على ذلك. أما إذا كان قصده النفي للّذات الأخرى التي ذكرها في التقسيمات الأخرى، وحصرها في هذا الجانب فقط فإنه بذلك قد نقض رأيه عندما تناول عناصر السعادة البدنية التي هي: الصحة، والجمال، والعمر الطويل في ذلك مع اللذة والبهجة[2] وقد فسر الباحث (الزركان) بأن الذي يمعن النظر في هذا الكلام أن إضافة عنصر اللذة والبهجة مع هذه العناصر يقصد بها لذة المأكل والمشرب والملبس واللذة الجنسية[3] قلت: فهذه حقيقة لا غبار عليها لو ثبت الرازي على رأيه ولم ينقضه حين جعل اللذة وما اندرج تحتها من الفضائل الآنفة الذكر عنصر من عناصر السعادة البدنية، لأن منها ما هو ضروري لبقاء النوع الإنساني كالطعام والشراب، ثم إن هذه الفضائل وما اندرج مثلها تحت اللذة إذا تناولها الإنسان وفق مقاصد الشريعة فإنها مكملة للسعادة الدنيوية فلذة الطعام مثلاً تحصل عندما يشعر الإنسان بالجوع المؤلم بسبب كون الطعام انقطع عليه مدة طويلة أثناء سفر أو قيامه بعمل شاق، فإنه بمجرد تناوله للطعام يزول ذلك الألم. فإذا زال الألم شعر بسرور وبهجة، وكلما زاد الألم زادت الشهية وكلما زادت الشهية للطعام كانت اللذة أقوى، ويزداد السرور أيضاً. خاصة إذا توفر في الطعام عناصر اشتهتها نفسه أثناء شعوره بالألم. وكذلك عندما تكون مصادر هذا الطعام من طرق الحلال. كذلك المشارب اللذيذة غير الماء، والملابس أيضاً فإن الإنسان ذكراً كان أو أنثى أو طفل، عندما يلبس الجديد في المناسبات أو غيرها يشعر بسرور وبهجة، وكذلك اللذة الجنسية فإن الرجل عندما يأتي لمواقعة زوجته فإنه

---

(١) سبق ذكر هذا النص في ص١٢٦ من هذا البحث.
(٢) راجع نص كلامه في ص١٢١ من هذا البحث.
(٣) راجع تفسير النص في ص١٢١ ـ ١٢٢ من هذا البحث.

يشعر بلذة تدخل السرور عليه والراحة النفسية وأمر المواقعة مع الزوجة يتفاوت من أوقات إلى أخرى، فالمنقطع عن ذلك نتيجة غياب فترة طويلة يكون الشوق أقوى واللذة كذلك ويزداد السرور والبهجة، بينما إذا كان العهد قريب فإن اللذة تكون أقل والسرور أيضاً وعلى كلٍ، سواء زادت اللذة أو قلّت، فإن السرور متواصل يخفف عن صاحبه الألم والمنغصات وبما أنه كذلك فإنه سبب لتمام السعادة البدنية لأن الزواج بذاته يعد إكمال لشطر الدين، لأنه بذلك سيعفه ويمنعه عن ارتكاب الحرام الذي سيحرمه من سعادة الدارين إذا كان إيمانه ضعيفاً. يقول الشيخ محمد أحمد جاد المولى عن علاقة اللذة بالألم: (وحال الإنسان لا تخلو من أمرين: لذة أو ألم: فإذا جاع أحس ألم الجوع، وإذا شبع أحس لذة الشبع، وحل السرور محل الألم، فالفعل ينقله من حال الألم إلى حال اللذة أو يقربه منها، والغريزة التي هي مصدر الأخلاق هي التي تحركه إلى الفعل الذي ينجو به من الألم).

٤ - إنه من خلال متابعتي لما أورده الرازي سابقاً من تقسيمات للسعادة في تفسيره ونقضه لها في كتابه الملخص كما أفاد (الزركان) تساءلت مع نفسي ما سر ذلك التناقض؟ فإذا بي أجد أن الفكر الفلسفي الصوري اليوناني الذي اقتبسه من آراءهم ومن بعض من تأثر بهم من فلاسفة المسلمين، وأراد أن يوظفه توظيفاً إسلامياً كالغزالي مثلاً فإنه لا يستطيع ذلك، لأن تلك الأفكار غلبت عليه حتى جعلت آراءه متضاربة وهذا ما دفعه إلى نقض أقواله، ليس في كتابه (الملخص) فقط بل في مؤلف آخر له اسمه (النفس والروح) فإنه في الوقت الذي أثبت أن اللذة والبهجة من عناصر السعادة البدنية نجده في هذا الكتاب يفند آراء أهل مذهب اللذة ويرد عليها وعلى أنصار هذا المذهب،

---

(١) الخلق الكامل: ١/١٩٤.

حتى إنه فرق بين اللذة والسعادة في هذا الكتاب فهو يرى أن السعادة ليست لها علاقة في لذة الطعام والمنكح والملك حتى إنه علل ذلك من عدة وجوه. وقد ذكرها في عشر حجج فلا داعي لسرد كل ما قاله وإنما سأقف على ما يهمنا هنا.. فقد كان من ضمن ما قاله: (لو كانت سعادة الإنسان متعلقة بهذه اللذات الحسية لوجب أن يكون الإنسان أخس الحيوانات)[1] ثم إنه كلما ذكر اللذات التي لها علاقة بالسعادة احتج عليها وقال: إن هذه ليس لها علاقة بالسعادة[2]، فما كان مني إلَّا أن تساءلت إذا كان الرازي قد أثبت كثيراً من هذه اللذات التي جعلها من عناصر السعادة البدنية والخارجية في تفسيره وهنا ينكرها فما السعادة عنده في هذا المؤلف؟ لقد وجدت الإجابة على هذا السؤال في الحجة العاشرة التي أوردها في ردوده على أصحاب مذهب اللذة حيث قال: إن: (سكان أطراف الأرض لما لم تكمل عقولهم وأخلاقهم ومعارفهم لا جرم صاروا في غاية الخسة والدناءة ألا ترى أن سكان الإقليم الأول وهم الزنوج وسكان الإقليم السابع وهم الصقالبة لما قل نصيبهم من المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة لا جرم تقرر في العقول حط درجاتهم ودناءة مراتبهم؟ وأما سكان المعمورة لما حازوا المعارف والأخلاق الفاضلة لا جرم أقر كل أحد بأنهم خير طوائف البشر وأفضلهم، وذلك يدل على أن فضيلة الإنسان وكماله لا تظهر إلا بالعلوم والمعارف والأخلاق الفاضلة لا بالأكل والشرب والوقاع)[3] قلت: لعل الرازي يقصد بسكان

---

(١) من كتاب (النفس والروح) لفخر الدين الرازي، ونقلاً عن (حول الاخلاق في الفكر الإسلامي) د. أشرف حرفوش، ص١٤ دار دمشق، ط١: (١٩٩٤م).

(٢) ينظر: حول الأخلاق في الفكر الإسلامي: ص١٤.

(٣) المرجع نفسه: ص١٧.

أطراف الأرض بلد الكفر فإن ذمه لهم ذم في محله كذلك الزنوج، فإنهم لم يستخدموا عقولهم في البحث عن الحكمة التي خلقوا من أجلها ولما كانوا كذلك انحطت أخلاقهم حتى أصبحوا بمنزلة الحيوانات في الضلال بل أضل منهم وهذا ما وصفهم الله به حيث قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾[1]، أما بالنسبة لأهل المعمورة فلعل الرازي يقصد بهم العالم الإسلامي فقد مدحهم بأنهم لما حازوا المعارف أصبحوا أهل أخلاق فاضلة. فأصبحوا خير طوائف البشر. إلى هنا نجد أن الرازي أنصف في حديثه من حيث الذم والمدح، لكن كلامه الأخير جعلني أقف منه وقفة ناقدة كالوقفات السابقة، وهي إنه اعتبر هنا أن فضيلة الإنسان وكماله لا تظهر إلا بما ذكر آنفاً أما الأكل والشرب والوقاع فلا، فالفضيلة هنا يقصد بها السعادة كما يسميها بعض حكماء اليونان ومن تأثر بهم من فلاسفة المسلمين وهو منهم فهو بهذا قد أوقع نفسه في خطأ كالمعتاد. لأنه في (الملخص) أفاد على أن الأخلاق الفاضلة ليست سبباً للسعادة، وأفاد في تفسيره كما سبق أن اللذة التي تندرج تحتها هذه الأمور عنصر من عناصر السعادة البدنية. وهذا ما اعتدناه من الرازي ـ رحمه الله ـ وبما أن آراءه مضطربة بهذه الصورة فإني لم أذهب إلى ما ذهب إليه الزركان، حيث سبق ذكر ذلك[2] لأن الإمام الرازي اجتهد فيما قاله عن السعادة وذاك رأيه لكنني أقول: كان ينبغي عليه ـ رحمه الله ـ أن يثبت على رأي واحد بدلاً من ذلك التناقض الذي جعلني وقد يجعل كل باحث أن يعيش مع أقواله في دوامة فلقد عشت معه في دوامة أثناء كتابتي لهذا البحث أسأل الله أن يغفر له ويسامحه، وبهذا القدر أكتفي من تحليل

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) راجع إن شئت ص١٢٧ من هذا البحث.

مناقشة آراء الإمام الرازي حول أقسام السعادة الدنيوية.

ثالثاً: مناقشة رأي الإمام ابن القيم:

بالنسبة للإمام ابن القيم فإنه لم يتعمق في الفروع التي أدرجها تحت أقسام السعادة الثلاثة الخارجية والبدنية والروحية فأدرج تحت الخارجية المال والجاه وقد بينا ذلك، وزدنا ذلك بياناً في تعليقنا عليه[1]، إلا إنه توسع في البدنية حيث أدرج تحتها أموراً لم يأت بها الغزالي ولا الرازي فذكر إلى جانب الصحة اعتدال المزاج وتناسب الأعضاء، وتركيبها، وصفاء اللون، والقوة، بينما جعل السعادة الروحية في العلم النافع ثمرته المصاحبة للإنسان في جميع أسفاره في دوره الثلاثة، وعليه فإن الباحث قد اختار تقسيمات الإمام الغزالي بالإضافة إلى ما جاء به الإمام ابن القيم من ذكر فضائل أخرى للسعادة البدنية ولم يذكرها الغزالي وقد اعتبرت العناصر التي أدرجت تحت تلك الأقسام فضائل معينة لتحقيق السعادة كما اعتبرها الإمام الغزالي في تقسيمه، أما بالنسبة للإمام فخر الدين الرازي فقد اجتنبت تقسيمه البتة نظراً لتعمقه الفلسفي الذي توسع به في التقسيم خاصةً الخارجية، بالإضافة إلى تضارب آرائه ونقضها بالكلية فالذي اخترته سيكون الحديث عنه في فصل قادم مستقل إن شاء الله تعالى.

---

(١) راجع إن شئت من ص ١٢٧ ـ ١٣٠.

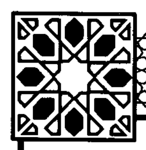

الفصل الخامس

الفضائل المكملة لتحقيق السعادة

ويشتمل على تمهيد وأربعة مباحث:

التمهيد

المبحث الأول: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة الروحية

المبحث الثاني: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة البدنية

المبحث الثالث: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة الخارجية

المبحث الرابع: الفضائل المكملة لتحقيق السعادة التوفيقية

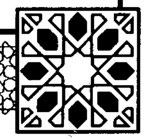

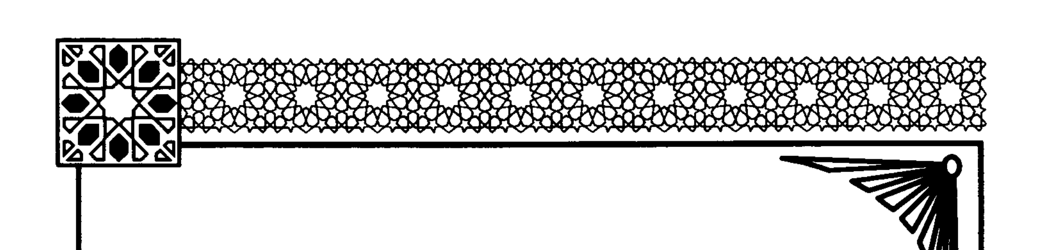

تمهيـــد

لقد اخترت تلك العناصر التي أدرجها الإمام الغزالي تحت أقسام السعادة مع إضافة عناصر جديدة أدرجها الإمام ابن القيم تحت السعادة البدنية ولم يأت بها الغزالي ولا الفخر الرازي ثم إني تركت ما أدرجه الرازي من العناصر تحت تقسيماته للسعادة نظراً لنقض أقواله كما سبق توضيح ذلك، وأود التنبيه إلى أنه سيتبادر إلى ذهن القارئ من أن هذا تكرار لما سبق. فالحقيقة أنه ليس بتكرار ولكنه بيان وتوضيح لتلك الأقسام وما اندرج تحتها وما ذلك إلا كي يتسنى لنا أن نعرف معرفة تامة من أن تلك الأقسام مكملة لبعضها ومنها ما هو محتاج للبعض الآخر إما حاجة ضرورية كالفضائل النفسية التي لا مطمع للوصول للآخرة إلا بها وصحة البدن التي لا وصول إلى تحصيل الفضائل النفسية إلا بها، وإما حاجة نافعة كحاجة هذه الفضائل الخارجية كما أفاد الغزالي. وقد خصصت لهذه الأقسام وما اندرج تحتها هذا الفصل الذي اشتمل على أربعة مباحث.

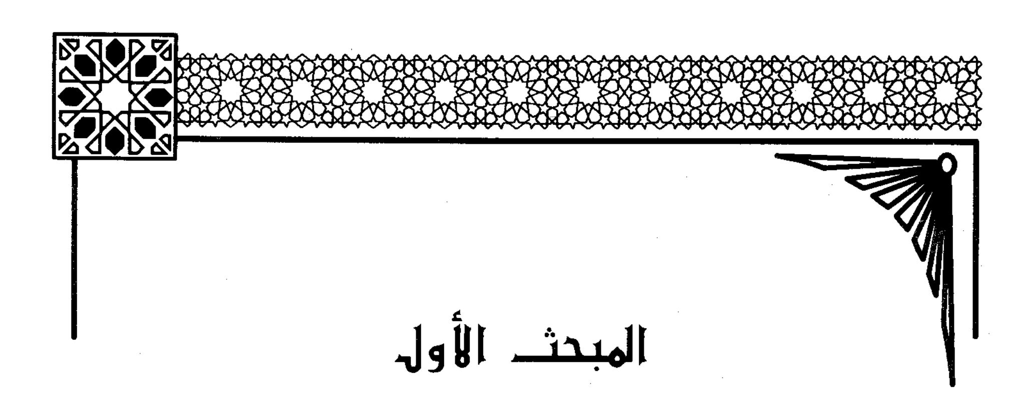

المبحث الأول

الفضائل المكلمة لتحقيق السعادة الروحية

أولاً: العقل: وكماله العلم

يقول الماوردي ـ رحمه الله ـ (إن العلم والعقل سعادة وإقبال وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال، والجهل، والحق حرمان وإدبار، وإن كثر معهما المال واتسعت معهما الحال، لأن السعادة ليست بكثرة المال، فكم من مكثر شقي، ومقل سعيد، وكيف يكون الجاهل الغني سعيداً والجهل يضعه، أم كيف يكون العالم الفقير شقياً والعلم يرفعه؟ وقد قيل في منثور الحكم: وكم من ذليل أعزه علمه، ومن عزيز اذله جهله)[1] من هذا نستفيد أن نعمة العقل نعمة عظيمة منحها الله العباد لكن هذه النعمة تتفاوت فيما بينهم باختلاف الأفراد ـ وهذه سنة الله في خلقه ـ وتتباين وتتفاوت مراتبها عندهم وتتفاضل ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ...﴾[2]، وقد جاء في السنة من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت: (يا

---

(١) أدب الدنيا والدين ـ أبي الحسن الماوردي ـ ت (٤٥٠هـ): ص٥٣، تحقيق وتعليق مصطفى السقا، المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٤ (١٣٩٨ ـ ١٩٧٨م).

(٢) هود: (١١٨، ١١٩).

رسول الله، بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «**بالعقل**» قلت: (وفي الآخرة) قال: «**بالعقل**» قلت: أليس إنما يجزون بأعمالهم، فقال: «**يا عائشة: وهل عملوا إلاً بقدر ما أعطاهم الله من العقل؟ فبقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يجزون**»[1].

يقول محمد أحمد جاد المولى: (إن الناس يتفاضلون في دنياهم وفي أخراهم بالعقل لأنه هو الذي يميز الخير من الشر والنافع من الضار والطيب من الخبيث وهو الذي يقدر الأمور قدرها، وينزلها منازلها ويصورها على حقيقتها ويكشف ماهيتها وسببها ونتيجتها، وكلما كمل وتمّ كان تحديده للسعادة أشمل وأعم فالمرء يحظى بالسعادة على قدر ما منح من العقل)[2] وللنبي ﷺ أحاديث كثيرة في هذا الباب (وقيل: لكل شيء غاية وحدًّ، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه كتفاوت الأزهار في الرائحة الطيبة)[3] ولما كان العقل كماله العلم فإن فضيلة العلم فضيلة عظيمة لا ينالها إلَّا من طلبها، ولطالب العلم منزلة رفيعة عند الله سبحانه وتعالى فقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم وأحاديث كثيرة في السنة النبوية وأقوال كثيرة لأهل العلم تدل على عظمة فضيلته ومنزلة طالبه، فمما جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[4]، فهذه الرفعة في الدنيا حباهم الله إياها فضلاً عن منزلتهم الرفيعة في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فالله سبحانه وتعالى أنكر هنا المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

---

(١) ذكره صاحب كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على السنة الناس ـ إسماعيل بن محمد العجلوني ـ المتوفى (١١٦٢هـ)، ٢٧٦/١، رقم (٢٣)، تحقيق/ أحمد القلاش، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٤: (١٤٠٥هـ).

(٢) الخلق الكامل: ٢٣٨/١، ٢٣٩.

(٣) الخلق الكامل: ٢٣٩/١.

(٤) المجادلة: (١١).

(٥) الزمر: (٩).

﴿ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1]، (فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمراً أو يفهم منه زجراً، ولا شك أن ثمرة العلم العمل، والعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر)[2] هذا بعض ما جاء في القرآن الكريم عن فضل العلم، أما ما جاء في السنة النبوية الشريفة فالأحاديث كثيرة منها قوله ﷺ: **«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»**[3] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة...»** الحديث)[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[5] نستفيد من هذا الحديث أن أعمال ابن آدم التي اكتسبها في الدنيا تنتهي كلها لأنها رافقته حين موته بل سيجدها معه منذ أن يوضع في قبره إن كانت صالحة وجدها أنيسة له في تلك الحفرة المظلمة حيث لا أنيس ولا جليس، وتظل رصيداً له في ميزان حسناته حتى قيام الساعة وإن كانت سيئة وجد الوحشة الدائمة في تلك الحفرة، وتظل رصيداً له في ميزان سيئاته حتى قيام الساعة، ثم إنه لا يبقى من عمله إلا هذه الثلاث الصدقة الجارية، والعلم الذي ينتفع به، والولد الصالح فإن كان من أهل الصدقات، فإنه لا يزال يجني من ثمارها حتى وهو في قبره تصله كالعين الجارية، وكذلك الذين يرثون علماً، والذين يخلفون أولاداً صالحين فإن دعائهم لهم يصلهم وهكذا، ولكن أفضل هذه الأمور هو العلم لأن أهل العلم لا يجدون الدعاء من أولادهم فقط بل من كل من نال من علومهم واستفاد منهم، إذاً فالذي يريد السعادة في دوره الثلاث فعليه بالعلم الشرعي، لأن طالب العلم هو وصية النبي ﷺ كما جاء في الحديث الشريف: **«سيأتيكم أقوام يطلبون العلم فإذا رأيتموهم، فقولوا لهم: مرحباً**

---

(١) العنكبوت: (٤٣).

(٢) الخلق الكامل: ٢٤١/١١.

(٣) رواه البخاري ـ كتاب فرض الخمس: ٣٩/١، رقم (١٧).

(٤) رواه مسلم في (الذكر والدعاء) باب (١): ٢٠٧٤/٤، رقم (٢٦٩٩).

(٥) رواه مسلم في صحيحه: ١٢٥٥/٣، رقم (١٦٣١).

بوصية رسول الله وأفتوهم»[1] إن هذا الترغيب من رسول الله ﷺ هو للعلماء بأن إذا جاءهم طلبة العلم في حلقاتهم فعليهم أن يرحبوا بهم ويفرحوا بهم ويفتحوا لهم قلوبهم وإذا استفتوهم عن شيءٍ فليجيبوهم لأنهم وصية رسول الله ﷺ هذا بعض ما جاء في السنة عن أهل العلم وطلابه.

أما ما قاله أهل العلم عن ذلك فالأقوال كثيرة من ذلك قول الإمام الغزالي: (وأعظم الأشياء رتبةً في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولن يتوصل إليها إلَّا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذن أفضل الأعمال وكيف لا؟ وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته)[2]. وعليه فما هي إذن ثمرة العلم في الدنيا والآخرة؟ إن للعلم ثمارٌ عظيمة تعود على صاحبه في الدنيا والآخرة أمَّا الدنيا: فالعز والوقار، ونفوذ على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع ولو ابتلي بداء الحسد والعناد، ومن ثماره أيضاً اللذة التي تحصل لصاحبه فلذته لا نهاية لها ولا لذةٌ فوقها ومما يدل على ذلك ما كان يقوله محمد بن الحسن عندما تنحل له مشكلات العلوم: أين أبناء الملوك من هذه اللذة؟، وأيضاً فإن شرف العلم لا يقبل العزل، كعزل الولاة والأمراء وسائر أرباب المناصب الدنيوية، هذا بالنسبة للذته في الدنيا وأما في الآخرة: فلكونه وسيلة نادرة إلى أعظم اللذائذ الأخروية وأخرى إلى أكمل السعادات الأبدية. أما الأول، فلذة الوصول إلى جوار رب العالمين، والبلوغ إلى مرضاته التي هي المقصد والسعادة الكبرى، ولذة النظر إلى وجهه الكريم التي هي غاية الغايات ومنتهى جميع السعادات وأما الثاني: فلأن العلم لا أقل من أن يكون سبباً للوصول إلى الأفق المبين، ولحوق زمرة الملأ

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه ـ محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ـ المتوفى (٢٧٥هـ): ١٩٠/١ رقم (٢٤٧)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ط (ب: ت) عن أبي سعيد، وصححه الالباني في صحيح الجامع رقم (٣٥٤٥).

(٢) إحياء علوم الدين ـ أبي حامد محمد الغزالي: ٢٣/١، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١ (١٤٠٦ـ ـ ١٩٨٦م).

الأعلى في جوار رب العالمين ولا بلوغ إلى شيء منها إلا بالعمل المتوقف على العلم[1].

ويتساءل الباحث وهل كل عالم أو طالب علم سيحظى بمكارم العلم وثماره في الدنيا والآخرة؟ حقيقيةً إنه لن يحظى بمكارم العلم وثماره في الدنيا والآخرة إلا أصحاب الهمم العالية الذين طلبوا العلم لهداية أنفسهم وهداية عباد الله وتنوير بصائرهم به، ليس للدنيا لأن العلماء أصناف يقول الإمام الغزالي: (العلماء ثلاثة إما مهلك نفسه وغيره وهم المصرحون بطلب الدنيا والمقبلون عليها وإما منقذ نفسه وغيرهم وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه)[2] قلت: وما أكثر الصنف الأول المهلك لنفسه وغيره في عصرنا هذا من الذين استغلوا العلم لقضاء مصالحهم في الدنيا وأهملوا مصالح الآخرة فتجدهم يتقربون إلى الرؤساء والملوك، وأصحاب السيادة والزعامة فيداهنونهم على الظلم والجور في حق عباد الله بل تجدهم يغالون في مدحهم، على الرغم من انحرافهم وزيغهم عن دين الإسلام، وحبهم ومودتهم وموالاتهم للكفرة أعداء الإسلام والمسلمين، بل تجد منهم من جند نفسه لمحاربة إخوانه العلماء الدعاة إلى الله، في حين أنه عالم، وما ذلك إلا ليكسب رضا الرئيس أو الملك أو الزعيم، أو الحزب الفلاني، ونسي رضا رب العالمين أصبحوا يعبدون بشراً مثلهم ونسوا عبادة ربهم، أين هؤلاء من العلماء الحقيقيين الذين ابتغوا بعلمهم رضوان ربهم وخالقهم والدار الآخرة، أين إخلاصهم لله، بل أين ورعهم وزهدهم من أولئك العلماء. كأمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة، بل أين هم من عروة بن الزبير، وسعيد بن جبير الذي قتله الحجاج من أجل قوله

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: ٢٣/١ ومفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم تأليف، أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زادة: ١١/١ ـ ١٢، مطبعة الاستقلال الكبرى ـ القاهرة ط: (ب: ت).

(٢) إحياء علوم الدين: ٦٠/١.

الحق، أين هم من الحسن البصري الذي قال للحجاج قول الحق فكفاه الله شر قتله لقد كانت حياة هؤلاء مليئة بالسعادة بسبب إخلاصهم بل سجل لهم التاريخ صحائف مشرقة إلى يوم الدين كما سبق أن بينا وذكرنا نماذج كثيرة لمثل هؤلاء في فصل (الباحثون عن السعادة الحقة)[1] أين هم من أولئك ومن حذا حذوهم إلى يوم الدين. إني أقول لمثل هؤلاء العلماء الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة عليهم أن يتقوا الله ويراجعوا أنفسهم ويحاسبوا أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبوا بعد مفارقتهم لهذه الدنيا مباشرةً منذ أن يوضعوا في قبورهم فكل عالم من هؤلاء نازل حفرة مظلمة لن ينفعه أحد ولا يؤنسه أحد لا رئيس ولا ملك ولا وزير ولا شيخ العشيرة إنما سينفعه العمل الصالح سيجده أنيساً له. ثم أن من أوائل الأسئلة التي ستطرح عليه: وعلمك ماذا عملت به؟ بماذا سيجيب؟ ذلك الملك؟ والحديث ذو شجون عن مثل هؤلاء نسأل الله السلامة، والثبات على حسن الاستقامة ونكتفي بهذا القدر وإن كنت قد أسهبت.

ثانياً: العفة: وكمالها الورع

إن العفة فضيلة من الفضائل التي امتن الله بها على كثير من عباده المتقين فإذا ما حظي العبد بهذه الفضيلة استطاع أن يضبط نفسه بالمجاهدة بكبحها عن الشهوات يقول الإمام الغزالي: (وأما العفة فهي فضيلة القوة الشهوانية، وهي انقيادها على تيسير وسهولة للقوة العقلية حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها)[2] يعني أن العفة تقود القوة الشهوانية بسهولة ويسر للقوة العقلية فتخضعها لها حتى تسير تحت إشارة العقل ثم أن العفة وسط بين رذيلتي الشره، والخمود، فالشره تعني أفراط الشهوة إلى المبالغة في اللذات التي تستقبحها القوة العقلية وتنهى عنها، والخمود هو خمود الشهوة عن الانبعاث إلى ما يقتضي العقل نيله، وتحصيله[3] ونفهم

---

(١) راجع ص ٤٨ ـ ٩٦ من هذا البحث.

(٢) ميزان العمل: ص٧٨.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ص٧٨.

من هذا أن القوة العقلانية إذا تغلبت على القوة الشهوانية حصلت العفة، ثم إنه إذا تم الحصول عليها نتج عنها خصالٌ طيبة ممدوحة ذكر ذلك ابن القيم ـ رحمه الله ـ في المدارج بأن العفة تحمل صاحبها على اجتناب الرذائل، والقبائح من القول والفعل وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة[1] ثم إن العفة تعد من مروءة الرجل المسلم وهي نوعان:

أحدهما: العفة عن المحارم، والثاني: العفة عن المآثم.

أ ـ فأما العفة عن المحارم: فنوعان:

أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني: كف اللسان عن الأعراض.

ب ـ وأما العفة عن المآثم: فنوعان أيضاً:

أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة[2]. من هذا نفهم أن العفة فضيلة عظيمة تعد من أمهات الأخلاق. ونظراً لأهميتها وعظمتها فقد ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية لحث الناس على الالتزام بها فمما جاء في القرآن الكريم مادحاً لمن اتسم بهذه الفضيلة خاصةً الذين رغبوا عن المسألة قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[3]، قال ابن عابس: إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء، واذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء[4] يعني صابرين على السراء والضراء مقتنعين بالشيء اليسير، وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا

(١) ينظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية: ٣٠٨/٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط: (ب:ت).

(٢) المصدر نفسه: ٣٠٨/٢.

(٣) البقرة: (٢٧٣).

(٤) ينظر مدارج السالكين: ٣٠٨/٢ ـ ٣٠٩.

﴿فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[1]، هنا نجد أن الله سبحانه وتعالى يحث الغني أن يلزم العفاف فيستحي من رب العالمين الذي أنعم الله عليه بتلك النعم فلا ينفق أمواله في طرق الحرام منقاداً لرغباته وشهواته وإرضاء غرائزه وحث الفقير على الأكل بالمعروف يعني يبحث عن رزقه من الكسب الحلال، ويرضى بما وهبه الله من نعمه ولو كانت قليلة فلا يتجاوز الحدود بحثاً عن رزقه، من سرقةٍ، أو نصب أو أخذ رشوة فكل هذه الأمور حرمها الشرع. قال تعالى عن الذين لا يجدون ما يعينهم على النكاح: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2].

ومما جاء في السنة النبوية قوله ﷺ: «**من استعف أعفه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن سأل الناس وله عدل خمس أواقٍ فقد سأل إلحافاً**»[3] وقوله ﷺ: «**من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها**»[4] هذا بعض ما جاء في كتابه الكريم وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام من العفة وما ذلك إلّا لحكمة يراد بها ضبط النفس ومجاهدتها عن الزيغ، ولما كانت العفة متوسطة بين رذيلتي الشره والخمود كما تبين لنا مما سبق فإنه ينبغي على الإنسان أن يحكم قواه العقلية التي وهبه الله إياها فيسخرها في الحفاظ على فضيلة العفة كي لا تكتنفها رذيلتا الشره والخمود أو إحداها ولذلك يقول الإمام الغزالي: (وعلى الإنسان أن يراقب شهوته، والغالب عليها الإفراط لا سيما إلى مقتضى الفرج والبطن، والى المال، والرياسة، وحب الثناء،

---

(١) النساء: (٦).

(٢) النور: (٣٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده: ٣/٣، رقم (١١٠٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٦٠٢٢).

(٤) رواه بن حبان في صحيحه بترتيب ابن بلبان ـ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى (٣٥٤هـ): ٢/٤٤٦، رقم (٤٢١٧)، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م) وابن ماجه في سننه: ٢/١٣٨٧، رقم (٤١٤١) عن عبدالله بن محيصن الأنصاري عن أبيه.

والإفراط والتفريط في كل ذلك نقصان وإنما الكمال في الاعتدال، ومعيار الاعتدال العقل والشرع، وذلك أن يعلم الغاية المطلوبة من خلق الشهوة والغضب)[١] فشهوة الطعام مثلاً إنما خلقت لتبعث على تناول الغذاء، كي يبقى البدن حياً والحواس سليمة ليتوصل بالبدن إلى نيل العلوم ودرك حقائق الأمور، التي فيها السعادة الحقة، فمن عرف هذا كان قصده من الطعام التقوية على العبادة دون التلذذ به، كذلك شهوة الجماع ما خلقت إلّا لتكون باعثة على الجماع الذي هو سبب بقاء النوع محفوظاً، وذلك بالزواج الشرعي الذي حث عليه الإسلام لغرض التحصن وعفاف النفس عن الحرام[٢] إذاً نفهم من هذا بأن العفة هي ضبط النفس ولزومها الاعتدال في الميل إلى اللذة، والاعتدال. والاعتدال ليس مقصوراً على اللذائذ الجسمية والجنسية فحسب بل يشمل اللذات النفسية أيضاً كالانفعالات فلا يسمى الشخص ضابطاً لنفسه إلّا إذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكل ونحوه، واعتدل من انفعالاته أيضاً فلا يغضب لأتفه الأسباب لأن الغضب مهلك لصحته ثم إنه خلق مذموم، ولا يندفع في السير وراء عواطفه كأن يفرط في حزن لفقد عزيز عليه أو يجزع إذا أصيب بمصيبة وإنما عليه أن يلزم الاعتدال، وضروب الاعتدال كثيرة[٣].

والمقصود بالاعتدال هو الورع الذي هو كمال العفة عند الغزالي، فهما فضيلتان متلازمتان تكمل كل منهما الأخرى بل أن الورع فضيلة بحد ذاته، ومرتبة من مراتب الزهد. وقد حث الإسلام على الالتزام به لما له من أثر عظيم في سلوك المسلم يقول الرسول ﷺ: «**كن ورعاً تكن أعبد الناس...**» الحديث[٤] وقال ايضاً: «**فضل العلم أحبُ إليَّ من فضل العبادة**

(١) ميزان العمل: ص ٧٩.
(٢) المصدر نفسه: ص ٧٩.
(٣) ينظر: كتاب الأخلاق ـ أحمد أمين: ص ٢١٢، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط (١٩٦٩)، والخلق الكامل مصدر سابق: ١٠٨ ـ ١٣٤ ضروب الاعتدال.
(٤) رواه ابن ماجه في سننه: ١٤١٠/٢، رقم (٤٢١٧).

وخير دينكم **الورع**»[1] نستفيد من هذه الأحاديث أن الورع مرتبة عظيمة من مراتب الأخلاق. فمن لزم الورع كان من أعبد الناس. وهو من خير فضائل الدين فطوبى لمن يحظى بهذه المرتبة الرفيعة، التي هي سمة من سمات الأنبياء، ولمّا كان بهذه المنزلة، فقد تشبث بها السلف الصالح من الصحابة والتابعين حتى أصبحت سمة من سماتهم في شتى دروب حياتهم لدرجة أنهم كانوا يتركون كثيراً مما لا بأس به من المباح وقد وردت الآثار والأقوال الكثيرة عن هؤلاء[2].

ثالثاً: الشجاعة: وكمالها المجاهدة

الشجاعة هي مواجهة الألم أو الخطر عند الحاجة في ثبات وحزم، وعلى هذا فهي فضيلة ربانية كسائر الفضائل الأخرى، والشجاعة لها مظاهر عظيمة خاصة حين يستخدمها من حباه الله إياها وفق ضوابط الشرع ونجح في أمر من الأمور هنالك يشعر صاحبها بالسعادة ومن ثم الرضا مهما واجهه من المتاعب والآلام. فمن مظاهر هذه الفضيلة يستطيع الإنسان الدفاع عن ماله وشرفه وعرضه، ودينه، وقول الحق عند سلطان جائر، ومناصرة المظلوم، وحب الجهاد في سبيل الله، والبذل والتضحية، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل إن كل عمل يقدم عليه الإنسان من أعماله اليومية وتنتج عنه آلام ومتاعب ولكن صاحبه لا يكل من ذلك يعتبر شجاعة، يقول أحمد أمين: (وليست الشجاعة مقصورة على حمل السلاح ومشاهد الحروب بل إن كثيراً من الأعمال اليومية يحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة الجنود، فرجال المطافئ والأطباء وعمال المناجم وصيادي الأسماك في البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير: ٣٨/١١، رقم (١٠٩٦٩)، تحقيق/ أحمد بن عبدالحميد السلفي، مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل، ط٢ (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م)، وفي الأوسط: ١٩٧/٤، رقم (٣٩٥٦)، والحاكم في المستدرك: ١٧٠/١، رقم (٣١٤)، وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) راجع إن شئت صلاح الأمة في علو الهمة (علو الهمة في الورع) ٤/ ٣٢١ ـ ٣٧٨.

والممرضات اللاتي يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية وربانو السفن البخارية كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار كما يتحمل الجنود، ويقابلون الشدائد بصبر وثبات)[1] واستطرد أحمد أمين في حديثه عن مظاهر الشجاعة قائلاً: (ومن أكبر مظاهر الشجاعة حضور الذهن عند الشدائد، فشجاع من إذا عراه خطب لم يذهب برشده، بل يقابله برزانة وثبات ويتصرف فيه بذهن حاضر وعقل غير مشتت، قد يرى إنسان ناراً تلتهم بيته أو لصاً يفتش منزله أو قطاراً يكاد يهشم رجلاً، أو سفينة أشرفت على الغرق فإن فقد رشده وضاع صوابه وحار طرفه ودَلِهَ عقله ولم يدر ماذا يفعل كان جباناً وإن هو ملك نفسه وثبت قلبه وتصرف في الأمر على أحسن وجه كان شجاعاً حقاً)[2].

ويتساءل الباحث قائلاً: وهل الشجاعة فطرية أم مكتسبة؟ قد تكون فطرية وقد تكون مكتسبة من البيئة التي يتربى فيها الفرد منذ صغره، فقد ينشأ في بيئة تتسم بشجاعة ممدوحة التي من محاسنها ما ذكرناه آنفاً فيكتسبها، وقد ينشأ في بيئة تتسم بشجاعة مذمومة التي ينتج عنها رذائل سيئة تجلب على صاحبها أضراراً وخيمة وعلى الآخرين فيكتسبها، كالتخطيط لارتكاب جريمة أو تعدي على حقوق الآخرين، نتيجة غروره وكبريائه بقوته البدنية أو لعلو مركزه أو التهور الناتج عن الغضب فقد يدفع صاحبه إلى ارتكاب جريمة لأتفه الأسباب وهذا ما حذر منه الإسلام يقول الرسول ﷺ: «**ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[3] نستفيد من هذا الحديث، عدم التهور وهو ضبط النفس وقهر شهوتها الغضبية، يقول الإمام الغزالي: «وأما الشجاعة فهي فضيلة للقوة الغضبية لكونها قوية الحمية ومع قوة [الحمية] منقادة للعقل المتأدب بالشرع

---

(١) كتاب الأخلاق: ص ٢٠٦.

(٢) المرجع نفسه: ص ٢٠٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب ـ باب (الحذر من الغضب) ٢٢٦٧/٥ ورواه مسلم في باب (من يملك نفسه عند الغضب) ٢٠١٤/٥ برقم (٢٦٠٩).

في إقدامها وإحجامها، وهي وسط بين رذيلتيها المطيفتين بهما وهما التهور والجبن، فالتهور لطرف الزيادة عن الاعتدال، وهي الحالة التي بها يقدم الإنسان على الأمور المحظورة التي يجب في العقل الإحجام عنها، وأما الجبن فلطرف النقصان وهي حالة بها تنقص حركة الغضبية عن القدر الواجب فتصرفه عن الإقدام حيث يجب الإقدام»[1] قلت: ولما كانت الشجاعة متوسطة بين هاتين الرذيلتين، فيجب على المرء أن يحكم عقله فلا يكون متهوراً يطلق العنان لنفسه لتفعل ما تريد، ولا يكون جباناً فيحذر نفسه حيث يجب الإقدام كالدفاع عن النفس أو العرض، أو قول حق، أو الإدلاء بشهادة دون خوف أن يظفر به المقابل بسبب ذلك أو تغيير منكراً عند القدرة والاستطاعة، وإنما ينبغي عليه الاعتدال المتمثل في مجاهدة النفس يقول محمد أحمد جاد المولى: (إن الشجاع الحق من جاهد نفسه عند الغضب، وقهر بحلمه غضبه، وتمكن من التمييز والنظر فيما يدهم، ولا يستفزه ما يرد عليه من المحركات لغضبه، بل يتروّى، وينظر كيف ينتقم، وممن ينتقم، أو على أي قدر يكون انتقامه وكيف يصفح ويغض، وعمن وفي أي ذنب؟)[2] وهذا ما نبهنا ودعانا إليه الله تبارك وتعالى في محكم كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[4].

وبهذا فقد كان السلف الصالح من الصحابة يتمتعون بهذه الفضيلة والذين كانوا يواجهون بها الأعداء، حتى أن الله سبحانه وتعالى مدحهم عليها من فوق سبع سماوات قال تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾[5]، بل أنهم اكتسبوا قوة هذه الشجاعة مع الأعداء من رسول الله ﷺ خاصة

---

(١) ميزان العمل: ص ٧٦.

(٢) الخلق الكامل: ٣٧٥/١.

(٣) النور: (٢٢).

(٤) آل عمران: (١٣٤).

(٥) الفتح: (٢٩).

مواقفه الشجاعة مع الأعداء التي مارسها منذ بداية فجر الدعوة أمام قريش في مكة، وصدعه بالحق، أو دعوته لهم، وغشيانه مجالسهم على الرغم من كل أساليب الاستخفاف والاستهزاء والسخرية والإيذاء التي استخدموها ضده، إضافة إلى الضغوط النفسية التي مارسوها ضده وضد أصحابه فما وهن له غور وما لانت له قناة، بل مضى يبلغ دعوة ربه بشجاعة فائقة وإقدام لا نظير له غير ملتفت لتهديداتهم، هكذا استمرت تلك الشجاعة في غزواته حتى أنه إذا اشتد الخطب وضرت المعركة احتمى به أكثر أصحابه(١).

رابعاً: العدالة: وكمالها الإنصاف

إن العدالة من المثل الأساسية التي جاء الإسلام بها، ليقررها بين بني الإنسان وقد كان طبيعياً من الإسلام أن يأتي بمثل هذا المبدأ العظيم، وما ذلك إلَّا حرصاً على كرامة الإنسان من ألَّا يضيع حقه سدى، فقد أثبت حق الرجل، وحق المرأة، وحق الطفل، وحق المجتمع بل دعا الإسلام المسلم إلى أن يطبق هذا المبدأ حتى على قواه الداخلية التي هي: قوة الشهوة، وقوة الغضب، والقوة العقلية التي تتحكم على هذه القوى إذا عرفت من رشدها، فإذا ما عرفت ذلك استوعبت هذا المبدأ وطبقته على قوتي الشهوة والغضب، يقول الإمام الغزالي: (وأما العدل فهو حالة للقوى الثلاث في انتظامها على التناسب بحسب الترتيب الواجب في الاستعلاء والانقياد، فليس هو عبارة عن جملة الفضائل، والعدل في أخلاق النفس يتبعه لا محالة العدل في المعاملة والسياسة ويكون كالمتفرع منه، ومعنى العدل الترتيب المستحب إما في الأخلاق، وإما في حقوق المعاملات، وإما في أجزاء ما به قوام البلد)(٢) قلت، والعدل في المعاملة والسياسة قد بينها الإسلام وفصلها تفصيلاً كلياً وجزئياً لأن العدل في المعاملة والسياسة

---

(١) ينظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية: د. زياد محمود العاني، ص ١٦٧، شركة الرشيد للطباعة والنشر ـ بغداد، ط١ (١٩٩٥م).

(٢) ميزان العمل: ص ٨٠.

فيها قوام الأمة من الفرد إلى المجتمع إلى الدولة، فدولة الإسلام بسياستها الداخلية والخارجية ما قامت إلَّا بالعدل منذ أن أسسها الرسول ﷺ الذي بعثه الله لإرساء قواعد العدالة في المجتمع كسائر الأنبياء من قبله، واستمر شعار دولة الإسلام العدل والإنصاف في الخلافة الراشدة، وقد كان من أبرزها خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه الذي لقب بالخليفة العادل، ولم يبدأ ضعف العدل السياسي إلَّا في عهد الدولة الأموية حتى أيد الله في آخر عهدها من يأتي يجدد للأمة أمر دينها بالعدل في جميع صوره في عهد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه والحديث عن العدل طويل جداً لا يتسع المقام للخوض فيه كونه فرع من الفروع المحققة للسعادة، ولما كان الإنصاف يعتبر كمالاً للعدل فسنقصر حديثنا عن بعض مظاهره في النقاط الآتية:

⇦ ١ ـ عدل ولاة الأمر بين الرعية:

إنه مما يجب على ولاة الأمر أن يراقبوا الله الذي أوكل إليهم هذه الأمانة، والمتمثلة في رعاية الأمة، وذلك بالعدل والإنصاف بين شرائح المجتمع لا يفرق بين أبيض ولا أسود ولا غني ولا فقير، بل الواجب عليه أن يعدل بينهم، وينصف المظلوم ممن ظلمه ويردعه فإن لم يرتدع زجره وحبسه، وقد حث الله سبحانه وتعالى ولاة الأمر والقضاة والذين يحكمون بين أفراد المجتمع في قضاياهم بل جعله أمراً واجباً في أكثر من آية في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[٢]، فولي الأمر الذي يعدل بإنصاف بين رعيته يحبه الله ويحبه الرعية لأنه أسعدهم بعدله، ثم إنه بعدله ذلك سيجني من ثماره في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فمحبة الناس ومحبة الله الذي قذف

---

(١) ص: (٢٦).

(٢) النحل: (٩٠).

محبته في قلوبهم، ثم تجده يمشي آمناً ويتنقل بين مدن دولته وريفها وبين الناس دون خوف لأنه يحس أنه قد أرضى ربه فطالما أرضاه، فإنه متكفل بحراسته وحمايته، ثم أنه بعدله هذا يجعل كل واحدٍ من رعيته حارساً له أينما حل وأينما ظل، وقد سجل لنا التاريخ صوراً رائعةً لمن خافوا الله وراقبوه فطبقوا مبدأ العدل بين الأمة، كالخلفاء الراشدين، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أبرزهم بتطبيق هذا المبدأ فإنه عندما تولى الخلافة اهتم بأمور الرعية حتى أنه كان يتفقد أحوالهم ليلاً ونهاراً خاصة الفقراء، ويتنقل بين مدن الدولة الإسلامية يتفقد شؤون الرعية، ويراسل ولاة الأمصار بالحث على ذلك، بل أنه كان يتحرى عنهم ثم أنه كان يضع الشخص المناسب في المكان المناسب، حتى أن الناس في عهده أحسوا بالسعادة، فأحبه كل مسلم إلَّا من كان في قلبه حقد على الإسلام أو لم يبلغ الإسلام من حناجرهم فحقدوا عليه، وعلى الرغم من ذلك كان يمشي آمناً بين الناس لا يخاف إلَّا الله فقد ذُكر أن وفداً من الفرس كلف بزيارة إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فعندما وصل إلى المدينة يسأل عن داره فدلوه وكان ببال هذا الرسول أنه سيجد خليفة المسلمين يعيش في قصر مشيد مليء بالخدم والحشم والحراسة العسكرية تحيط به من كل جانب، فعندما دلوه على دار الخليفة فإذا به يفاجأ! حين وجده كسائر الديار فتعجب واستغرب فطرق الباب فخرج أحد أبناءه فقال له: هذا دار الخليفة فقال: نعم أين والدك فقال له: التمسه في زوايا المسجد، فذهب فلم يجده، فقالوا له: لعله في ضاحية من ضواحي المدينة فالتمسوه فوجدوه نائماً تحت شجرة أمام بيته، عند ذلك قال قولته المشهورة التي أصبحت مثلاً (حكمت فعدلت، فأمنت فنمت) فهذا عمر رضي الله عنه وعدله كذلك عمر بن عبدالعزيز عندما تولى الخلافة طبق مبدأ العدل والإنصاف في كل أرجاء الدولة حتى أدخل السعادة في قلوب الناس صغيراً وكبيراً، كيف لا وقد عرفوا ما جزاء من يطبق العدل في الدنيا والآخرة، فالذي يطبق العدل عرفنا ما يجني من ثماره في الدنيا أما الآخرة فالفوز العظيم بل اعتبره رسول الله ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم

لا ظل إلَّا ضله حيث قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل**»، الحديث[1]، فبدأ بالإمام العادل الذي يعدل بين الناس، لأنه إذا لم يعدل بين الناس، فستكرهه الأمة صغيراً وكبيراً ويمقتونه بل أن مقت الله أكبر، فالحجاج بن يوسف الثقفي عندما ظلم وجار قذف الله كراهيته في قلوب الناس وعلى رأسهم العلماء. وهكذا ولاة الأمر الظلمة في كل زمان ومكان يكرهم الله سبحانه وتعالى وتكرههم الأمة، بل إن الله لعن الظالمين في الدنيا أما يوم القيامة لا ينظر الله إليهم ولهم عذاب عظيم، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: «**أربعة يبغضهم الله تعالى: البياع الحلاف، والفقير المختال، والشيخ الزاني، والإمام الجائر**»[3] فالإمام الجائر من هؤلاء الأربعة الذين يغضب الله عليهم.

⇦ ٢ ـ عدل الحكام بين الناس(القضاة):

إن عدل الحكام بين الناس من الأمور الواجبة شرعاً، لأن إنصاف الحكام للمظلومين ممن تعدى على حقوقهم سواء كان ذلك الحق مادي أو معنوي، فلا بد أن يؤدي الحاكم حقه لأن الحقوق الآدمية من الأمور التي لا يسامح الله فيها أبداً لأن المظلوم إن لم يأخذ حقه في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٢٣٤/١١، رقم (٦٢٩)، ومسلم في صحيحه: ٧١٥/٢، رقم (١٠٣١) وغيرهما وتكملة الحديث: «**وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه. ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه**».

(٢) هود: (١٨).

(٣) رواه النسائي في سننه (المجتبى من السنن) ـ أحمد بن شعيب أو عبدالرحمن النسائي ـ المتوفى (٣٠٣هـ): ٨٦/٥، رقم (٢٥٧٦)، تحقيق/ محمد محيي الدين عبدالحميد. دار الفكر ـ بيروت، ط: (ب:ت)، والبيهقي في السنن الكبرى: ٤٦/٢، رقم (٢٣٥٧).

الدنيا ممن ظلمه عن طريق القضاء أو غيره فسيأخذه ذلك اليوم في محكمة العدل الإلهي يوم يقول للمظلوم تقدم وخذ مظلمتك ممن ظلمك سواء كان من ذلك الشخص الظالم أو الحاكم الظالم الذي جار في الحكم أو تحيز، لأن الله سبحانه وتعالى قد حث الحكام وجوباً أن يعدلوا بين الناس قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[2]. وقال الرسول ﷺ: «**إذا حكمتم فاعدلوا، وإذا قلتم فاحسنوا فإن الله محسنٌ يحب المحسنين**»[3] يقول الدكتور، عبد الكريم عثمان: (والعدل في القضاء يقتضي العدل في التنفيذ وإقامة الحدود، فالاحكام إذا صدرت ولم يتهيأ لها أن تنفذ كان أدعى إلى اجتراء الناس على الحق وخروجهم على جادة الصواب، والحدود تقصد إلى حفظ الدين والعرض والمال والنفس والعقل)[4] وعليه فإن المظلوم عندما يرى حقه رجع إليه عن طريق القضاء يشعر بالسعادة والسرور.

⇦ ٣ ـ عدل الرجل بين زوجاته وأولاده:

وهذه صورة من صور مظاهر العدل تتمثل في أن يعدل الرجل بين زوجاته إذا كان متزوج بأكثر من امرأة لأن ذلك من جل السعادات الزوجية إقامة العدل بين الزوجات، أما إذا لم يكن هناك عدل فلا بد من حصول منغصات من إحداهن عندما تشعر بذلك ثم إن ذلك التحيز من قبل الزوج لا يحصل إلّا عن ضعف إيمان ولذلك نبه الله سبحانه وتعالى كل من يريد أن يقترن بزوجة أخرى ويخاف أن لا يعدل،

---

(١) النساء: (٥٨).

(٢) غافر: (٣١).

(٣) رواه الطبراني في الأوسط: ٤٠/٦ رقم (٥٧٣٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم (٤٩٤).

(٤) معالم الثقافة الإسلامية د. عبد الكريم عثمان: ص ٨٤ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط ١٥ (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[1]، ثم إن الرجل الذي اقترن بأكثر من امرأة ولا يعدل بينهما فإن ثمار ذلك وخيمة في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فكما ذكرنا عناء من المنغصات وغير ذلك أما في الآخرة فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل**»[2] وعليه فالأولى بالإنسان أن يعدل بينهن لأن ذلك مما يدخل السرور والبهجة في نفوسهن فيشعرن بالسعادة كذلك يجب عليه أن يطبق هذا حتى بين أبناءه لأن بعض الناس قد يتزوج وينجب أبناء فتموت أم أبنائه فيتزوج أخرى فينجب منها أبناء فنظراً للحب الذي انتقل إلى الأخرى تتغلب على العاطفة مما يدعوه ذلك إلى أن يميل إلى تنفيذ رغبات زوجته الأخرى فيميل إلى محبة أبنائها أكثر من أولاد الأولى على الرغم أنهم على ميزة واحدة من السلوك والأخلاق والطاعة، وعليه فإن هذا الميول والتحيز من قبل الأب حرام شرعاً، أو أن له أبناء من امرأة واحدة فيفضل ولد على ولد فهذا لا يجوز أيضاً شرعاً لأن العدل والمساواة بين الأولاد واجب يقول الرسول ﷺ: «**اعدلوا بين أولادكم في النحل**[3] **كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف**»[4] في هذا الحديث نجد أن رسول الله ﷺ يأمر أمراً جازم في أن يعدل الرجل بين أبناءه سواء كانوا ذكراً أو إناثاً فإنهم حين يرون ذلك فإنهم لا محالة سيشعرون بالسعادة عندما يرون ذلك إضافة إلى الحنان والعطف الأبوي. أما إذا رأى بعضهم ميلاً وتحيزاً إلى البعض الآخر أو إلى أحدهم فإن الآخرين يتألمون لأن عدم المساواة بينهم قد يولد العداوة والحقد والبغضاء فيما بينهم ويؤدي إلى قطيعة الرحم. والحديث طويل

---

(١) النساء: (٣).

(٢) رواه أبو داود في سننه: ٢٤٢/٢، رقم (٢١٣٣) وآخرون.

(٣) النحل: العطاء دون مقابل من هدية أو غيرها، مختار الصحاح، مادة (نحل).

(٤) رواه ابن حبان: ٥٠٣/١١، رقم (٥١٠٤)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى: ١٧٨/٦، رقم (١١٧٨٣).

عن العدل بين الأبناء ولكن نكتفي بهذا القدر[1].

❋ ❋ ❋

(١) للاستزادة ينظر: تربية الأولاد في الإسلام ـ عبدالله ناصح علوان ٣٤٢/١، دار السلام للطباعة والنشر ـ القاهرة، ط٨ (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م)، ومنهج التربية النبوية للطفل ـ محمد نور بن عبدالحفيظ سويد: ص ٢١٦، دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ القاهرة، ط٢ (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م)، والقصص القرآني ـ لعماد زهير حافظ: ص ١٦٥، دار القلم ـ دمشق، ط١: (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

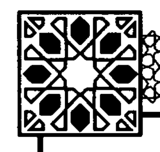

المبحث الثاني

الفضائل المكملة لتحقيق السعادة البدنية

أولاً: الصحة

إن الصحة البدنية فضيلة عظيمة وسر الحياة وبهجتها فكل إنسان هو بحاجة إلى الصحة، فإذا منح الله الإنسان صحة وعافية في بدنه استطاع أن يعمل ويصنع ويزرع ويذهب لجلب الرزق له ولأولاده إلى غير ذلك من الأعمال التي تعود عليه بالنفع له ولأسرته، وعليه فإذا أراد الإنسان أن يمتعه الله بهذه الصحة فعليه بطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه، وليعلم أنه إذا انحرف عن جادة الصواب فإن الله قادر على أن ينتزع منه هذه الصحة وليكفيه عبراً وعظة بالمعاقين المقعدين الذين لا يقدرون على التحرك والتنقل، بل وبالمصابين بالعاهات والأمراض المزمنة، ويحمد الله على هذه النعمة التي تعد من أهم السعادات، بل إنه إذا سخرها في طاعة الله كانت له وسيلة للظفر بسعادة الآخرة. كذلك لا ننسى صحة القلب الذي هو المحرك لجميع أعضاء البدن (ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما شاء فكأنها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقد من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا**

وهي القلب»[1] والقلب الصحيح له علامات كثيرة منها: (أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه فيستغني بحبه عما سواه، وبذكره عن ذكر ما سواه وبخدمته عن خدمة ما سواه)[2] ومما يجب على المسلم أن يراعي أموراً هامة لحفظ هذه الصحة منها: معاشرة الأخيار، والارتياض بالأمور الفكرية، وعدم إثارة قوتي الشهوة والغضب، والتدبر في كل الأمور، ومعاقبة النفس عند فعل المحظور واستقصاء عيوب النفس[3] والحديث كثير عن الصحة فنكتفي بهذا[4].

ثانياً: القــوة

يقصد بهذه القوة الجسمانية التي يندرج تحتها القوة العقلية والغضبية والشهوانية، ثم إن هذه القوى الثلاث تمثل عناصر الصحة التي سبق الحديث عنها، وتعد القوة العقلية هي الحاكمة لها، فإذا استطاعت هذه القوة أن تقهر قوة الشهوة والغضب عند التهور، وحل محلها الاعتدال شعر صاحبها بعد ذلك براحة وسرور لأنه استطاع أن يكبح شهوة قواه بل أنه في نفس الوقت سيشعر بالسعادة لأنه لم يقدم على محظور.

ثالثاً: طول العمر

إن طول العمر قد يكون نعمة وسعادة لمن قضاه في طاعة الله والتزم بشرعه وقد يكون نقمة وشقاوة لمن عصى الله وانحرف عن شرعه (فطول

---

(١) رواه البخاري في الرقاق: ٢٨/١، رقم (٥٢)، مسلم: ١٢١٩/٣، رقم (١٥٩٩)، وتزكية النفوس وتربيتها ما يقرره علماء السلف: ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبو حامد الغزالي: ص ٢٩، جمع وترتيب د/ أحمد فريد، تحقيق/ ماجد بن أبي الليل، دار القلم بيروت ـ لبنان، ط (ب: ت).

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٩.

(٣) الخلق الكامل: ٣٥٣/١ ـ ٣٦٠.

(٤) للاستزادة ينظر: طبيبك معك د. صبري القباني: ص٤٠، دار العلم للملايين ـ بيروت، ط٣: (ب: ت).

العمر مع حسن العمل يدل على سعادة الدارين والفوز بالحسنيين لأن من طال عمره في صلاح وتقوى اكتسب في طول الأيام ما يقربه إلى مولاه، ويوصله إلى رضاه)[1] وقد جاء في الحديث أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «**من طال عمره وحسن عمله**. قال: فأي الناس شر؟ قال: **من طال عمره وساء عمله**»[2]، وقال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الإنابة إليه**»[3].

رابعاً: الجمال

يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ عن هذه الفضائل التي ذكرت ومن ثم الجمال (أما الحاجة إلى الصحة، والقوة، وطول العمر، فلا شك فيه، وإنما يستحق أمر الجمال فيقال: يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة من تحري الفضائل، ولعمري إن الجمال لقليل الفناء، ولكنه من السعادات والخيرات على الجملة، أما في الدنيا فلا يخفى وجهه، وأما في الآخرة فمن وجهين:

أحدهما: أن القبح مذموم، والطباع منه نافرة، وحاجات الجميل إلى الإجابة أقرب فكأنه جناح مبلّغ مثال المال، والمعين على قضاء حاجات الدنيا معين على الآخرة إذ الوصول إلى الآخرة بهذه الأسباب الدنيوية.

والثاني: أن الجمال في الأكثر يدل على فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن والمنظر والمخبر كثيراً ما يتلازمان، ولذلك عول أصحاب الفراسة على هيئات البدن، واستدلوا بها على الأخلاق الباطنة، والعين والوجه كالمرآة للباطن، ولذلك يظهر فيهما أثر الغضب

---

(١) حاشية سر السعادة ـ سلمان نصيف الدحدوح: ص ١٠٧، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ لبنان، ط٢: (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

(٢) رواه الترمذي في صحيحه: باب الزهد: ٥٦٦/٤، رقم (٢٣٣٠).

(٣) رواه أحمد في مسند جابر: ٣٣٢/٣ رقم (١٤٦٠٤) ورواه غيره.

والشر، وقيل طلاقة الوجه عنوان ما في النفس وما في الأرض قبيح إلا ووجهه أقبح منه)[1] قلت لعل الإمام الغزالي يقصد بالوجه الأول في الآخرة، الصالحين الذين عبدوه حق العبادة وأطاعوه وعملوا بشرع نبيه في الدنيا، فإن نور الإيمان والطاعة مصاحباً لهم دائماً في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[2]، فلا يوجد قبيح فيهم لأن هذه الصفة تأتي ملازمة للعصاة الذين انحرفوا عن شرعه ولم يهتدوا بهدي نبيه. وقد فسر الإمام الغزالي هذه السمة في الوجه الثاني، ثم قال رحمه الله بعد ذلك: (ولسنا نعني بالجمال ما يحرك الشهوة، فإن ذلك أنوثة وإنما نعني به ارتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم، وتناسب الأعضاء، وتناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليها)[3] ولهذا كان رسول الله ﷺ من أساليبه عندما يرسل الدعاة فإنه يختار الشخص المناسب في المكان المناسب، فعلى سبيل المثال: أرسل دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل ملك الروم وكان دحية وسيماً ومن أحسن الناس وجهاً وكان جبريل عليه السلام يتشبه به، وكان ذا فهم وعلم، فالرسول ﷺ لم يختره إلا لوسامته وحسن وجهه ومظهره الجذاب الذي ناسب أشكال الروم الحسنة، أصحاب الشعر الأشقر، والعيون الزرقاء والذي كان يبهرهم المظهر فكأن رسول الله ﷺ أراد أن يضيف لرجاحة عقله رجاحة منظره حتى يكون أدعى للاجابة وأصغى للاستماع... والله أعلم[4].

خامساً: فضائل أخرى:

أضاف ابن قيم الجوزية إلى السعادة البدنية عناصر أخرى لم يذكرها

---

(١) ميزان العمل، ص: ١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) الفتح: (٢٩).
(٣) ميزان العمل، ص: ١٠١.
(٤) ينظر: أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية: ص ٤٩ ـ ٥٠. «وقد أشار المؤلف إلى ذكر سمات أخرى التي يجب توفرها في الداعية الناجح فكل من هذه وتلك جعلت رسول ﷺ أن يختار وحيه».

الإمام الغزالي حيث ذكر اعتدال المزاج، وتناسب الأعضاء، وصفاء اللون وقوة الأعضاء إلّا إنه لم يفصل القول فيها لأن هذه العناصر لا تمثل السعادة عنده وإنما مكملة للسعادة، فهو يرى أن هذه تعرضه للزوال والتبدل بعكس الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة في الحقيقة إلا في السعادة الروحية[1].

وبما أنه اعتبرها مكملة للسعادة البدنية فإنها بالفعل مكملة، فالمقصود باعتدال المزاج هو ضبط العواطف الانفعالية التي قد تعكر مزاج الشخص نتيجة تزاحم أعمال كثيرة أو ظروف قاهرة، أو موقف مثير فإن مثل هذه الأمور قد تجعله مشغول البال لا يستطيع أن يفكر في حل قضايا بسيطة لكنه إذا حاول أن يغير تلك الحالة التي أصبح عليها فيخرج لنزهة مع بعض إخوانه، أو يأخذ له قسطاً من الراحة، أو يتوضأ للصلاة فيصلي ركعتين ويدعو الله فيها فإن في ذلك راحة لنفسه، واعتدال للمزاج، أما تناسب الأعضاء فذاك مما يدخل السرور على صاحبه أيضاً فيحمد الله ويشكره على تلك النعمة خاصةً عندما يرى المعاقين عن الحركة أو الذين يصابون بحوادث فذاك يفقد إحدى قدميه وآخر يفقدهما معاً وآخر تبتر يده وهكذا، أو تشوه خلقي في الأعضاء بنقص أو زيادة، وكذلك صفاء اللون فإن صاحبه يسر به، أما قوة الأعضاء فإن ذلك مما يدخل البهجة والسرور على صاحب ذلك البدن لأنه يستطيع أن يمارس الكثير من الرياضات التي قد تزيده قوة ونشاطاً، ويستطيع بقوة تلك الأعضاء التي منحه الله إياها أن يظفر بمن يريد أن يؤذيه أو يتعدى عليه ثم أن ذلك يساعده في كثير من الأمور خاصة إذا كان الإيمان يملأ قلبه فإن قوة تلك الأعضاء يستطيع أن يستغلها في العبادة والطاعة، والجهاد فالمؤمن القوي مدحه رسول الله ﷺ بقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير... الحديث**»[2] وقال أيضاً: «**من أصبح منكم معافى في جسده آمناً**

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة: ص١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ٢/٣٧٠، رقم (٨٨١٥) والبيهقي في سننه ـ باب (فضل المؤمن القوي): ١٠/٨٩.

في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا»[1] نعم فإذا توفرت هذه الأمور الهامة المتمثلة في العافية، والأمن، والقوت المعين على العيش فكأنما حيزت الدنيا للإنسان بحذافيرها، طالما قلبه يملؤه الإيمان والحديث عن الصحة وأهميتها من منظور الإسلام كثير[2].

(١) سبق تخريجه في المبحث الأول (الفضائل المكملة للسعادة الروحية): ص١٥٠ من هذا المبحث.

(٢) راجع أن شئت: الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ـ د. يوسف القرضاوي: ص ٢٠ ـ ١٢٤، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).

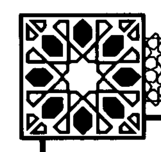
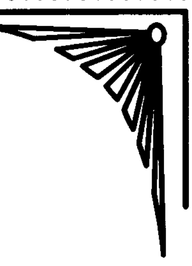

المبحث الثالث

الفضائل المكملة لتحقيق السعادة الخارجية

أولاً: المال

يعتبر المال من الوسائل الهامة المكملة لتحقيق السعادة الخارجية، فإذا توفرت هذه الوسيلة من طرقه المشروعة استطاع المرء أن يلبي حاجته الدنيوية والتي منها طلب العلم الذي سينير له طرق السعادة، ومنها ما يعينه على إكمال شطر دينه بالزواج ومن ثم إدخال السرور على أهله وأبنائه حين يؤكلهم ما يطلبونه ويلبسهم الملابس الجميلة في المناسبات وغير المناسبات، بل قد تتجاوز سعة إنفاقه حتى تصل إلى أقاربه وجيرانه وتفريج كربة مكروب، فإن فعل ذلك فإنه لا محالة سيجني من ثماره في الدنيا قبل الآخرة، أما في الدنيا فثمرات الدعاء التي سيستفيدها منهم فلرب دعوة تقيه شراً من شرور الدنيا أو مصيبة من مصائبها وأما الآخرة فإن الله يثقل بذلك ميزان حسناته ومنها أنه يستطيع بالمال أن يؤدي بقية أركان الإسلام من زكاة وحج وغير ذلك من أعمال الخير، أما إذا كان فقيراً فإنه كالذي يمشي في غابة بغير سلاح، يقول الإمام الغزالي: (أما المال فالفقير في طلب الكمال كساع إلى الهيجاء بغير سلاح، وكباز متصيد بلا جناح، ولذلك قال عليه

الصلاة والسلام: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»[1] وقال الغزالي أيضاً عن الفقير الذي لا يجد المال: (كيف ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت واللباس، والمسكن وضرورات المعيشة فلا يتفرغ لاقتناء العلم الذي هو أشرف الفضائل ثم يحرم من فضيلة الحج والصدقة، والزكاة، وإفاضة الخيرات)[2] قلت: إن الغنى والفقر سنة إلهية يبتلي الله بها عباده فصاحب المال الكثير قد يشغله ماله عن أمور كثيرة من أمور الدين لا يستطيع أن يؤديها كما يؤديها الفقير المحتسب الراضي بما قسم الله له، ولهذا جاء في الحديث الشريف الذي رواه أبو ذر ﵁ أن أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا للنبي ﷺ: (يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: **أوليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به، إن بكل تسبيحة صدقة وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**»)[3].

ولمزيد من التوضيح عن هذه المسألة يقول الإمام الغزالي:

(لكن من فهم فائدة المال وعلم أنه آلة على الدابة لسلوك الطريق، لم يعرّج عليه ولم يأخذ منه إلّا قدر الزاد، فإن اقتصر على ذلك سعد به قال: فالزيادة على قدر الكفاية مهلكة من ثلاثة أوجه: أحدها أن يدعو إلى المعاصي فإنه يمكن منها ومن العصمة أن لا تقدر، وفتنة السراء أعظم من فتنة الضراء، والصبر مع القدرة أشد. والثاني: أن يدعو إلى التنعم بالمباحات وهو أقل الدرجات، فينبت على التنعم جسده، ولا يمكنه الصبر

---

(١) رواه أحمد في مسنده: ٢٠٢/٤ من حديث عمرو بن العاص، وميزان العمل: ص ٩٨.

(٢) ميزان العمل: ص ٩٨، ولا تحزن: ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٦٩٧/٢، رقم (١٠٠٦).

عنه؛ وذلك لا يمكن استدامته إلّا بالاستعانة بالخلق والالتجاء إلى الظلمة، وذلك يدعو إلى النفاق، والكذب، والرياء، والعداوة، والبغضاء، ويتشعب منه جملة المهلكات. والثالث: أن يلهي عن ذكر الله عز وجل الذي هو أساس السعادة الأخروية إذ يزدحم على القلب خصومة الملامين ومحاسبة الشركاء للتفكر في تدبير الحذر منهم وتدبير استنماء المال، وكيفية تحصيله أولاً وحفظه ثانياً، وإخراجه ثالثاً، وكل ذلك مما يسود القلب ويزيل صفاءه ويلهي عن الذكر كما قال الله تعالى ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[1]، نفهم من هذا بأنه يجب على المرء الذي أنعم الله عليه بمال فعليه أن يسلك مبدأ الوسطية الذي دعا إليه الإسلام فلا يتجاوز في استخدامه عن حد قدر الكفاية فيسرف ويبذر، فإن ذلك قد يكون سبباً لشقائه فيجلب عليه المهالك من الوجوه الثلاثة المذكورة آنفاً، ولا يبخل في إنفاقه وزكاته لأن في ذلك نماء لماله، إذاً فنعمة المال تحتاج إلى إيمان فإذا ما توفر الإيمان وتعمق في القلب علم صاحب المال بأن هذا المال هو مال الله الذي أعطاه قادر على أن ينتزعه منه في لحظات ويجعله فقيراً، لذلك تجده يحاسب نفسه ويعلم أنه راجع إلى الله الذي سيسأله عن كل صغيرة وكبيرة عن هذا المال من أين اكتسبه وفيم أنفقه منذ أن يوضع في قبره فصاحب المال حمله ثقيل كحامل العلم الذي يكتمه في قلبه ولا يعلم به أحداً. ولما اعتبر المال فضيلة مكملة للسعادة الخارجية فإن سعادته لن تتأتى إلّا بالإيمان الذي هو أساس السعادة الروحية، فالسلف الصالح من الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ كان الكثير منهم يمتلك الأموال الطائلة لكنهم زهدوا عن ذلك فلم يجعلوا المال جل همهم في هذه الدنيا ولم يشغلهم عن أمور العبادة، وإنما وظفوه لخدمة دين

---

(١) التكاثر: (١ ـ ٨)، وكتاب الأربعين في أصول الدين ـ الإمام الغزالي: ص ٩٨ ـ ٩٩، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط٢: (١٩٧٩).

الإسلام والمسلمين، فقد كانوا يتنافسون على إنفاقه في وجوه البر والخير وبذل وتضحية من أجل نشر الإسلام ومساعدة الفقراء والمحتاجين أمثال أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وسعد بن معاذ، وعبدالرحمن بن عوف، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وغيرهم كما سبق أن أوضحت عن دور بعض منهم في هذا الميدان عندما تحدثت عن الباحثين عن السعادة الحقة[1] إن السعادة الروحية التي كان يتمتع بها الرعيل الأول جعلتهم يزهدون عن حب المال والتعلق به فبذلوا الغالي والنفيس من أجل إرضاء رب العالمين الذي أعد لهم في الآخرة أضعاف أضعاف ما أنفقوه في الدنيا، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[2]، لذا فالذي يجب على من أعطاه الله مالاً، أن يسخر هذا المال بإنفاقه في وجوه البر والخير، ويعلم أن سعادته ليست منه إنما سعادته في الدنيا في تفريج كربة مكروب، ودعم طالب علم، والإنفاق على معالجة مريض عاجز، وكفالة يتيم، فكل هذه الأمور وغيرها حث عليها الإسلام فقد جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما جلس قوم في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»[3] فهذا هو جزاء من يسعى في قضاء حوائج إخوانه المسلمين،

---

(١) راجع فصل الباحثين عن السعادة الحقة مبحث (الصحابة): ص٦٥ ـ من هذا البحث.

(٢) البقرة: (٢٦١).

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٢٠٧٤/٤، رقم (٢٦٩٩)، وأحمد في مسند: ٢٥٢/٢، رقم (٧٤٢١).

فالذي يسلك هذا المسلك ويعلم ما سيجني من ثمار فإنه يشعر دائماً بالسرور، والراحة، ويظل قلبه متعلق به لا يستطيع مفارقته، والحديث طويل عن المال بشكل عام لا يتسع المقام في التوسع خوفاً الإطالة فهذا القدر يكفي(١) وخلاصة القول: فإن الذي يمتلك مالاً ولا يمتلك إيماناً فإن السعادة عنده مفقودة، ولذا يقول الشاعر:

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ... ولكن التقي هو السعيد

نعم إن الذي يجعل همه على هذه الدنيا جمع المال فقد ذمه رسول الله ﷺ بقوله: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش**»... الحديث(٢).

ثانياً: الأهل

يقصد بالأهل الزوجة الصالحة والأولاد الصالحين، والأقارب، فالزوجة الصالحة من أسعد السعادات الدنيوية، لما لها من سمات عظيمة، منها أنها تعينك على الأعمال الصالحة إن كنت من المقصرين، وترويح النفس، وإيناسها بالمجالسة والنظر، والملاعبة فإن في ذلك إراحة للقلب وتقوية له على العبادة لأن النفس ملول، وهي عن الحق نفور لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت، وثابت، وإذا روّحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت، وفي

(١) للاستزادة: راجع أن شئت ميزان العمل فقد توسع الغزالي في حديثه في بيان تناول المال وما في كسبه من الوظائف حيث ذكر له خمس وظائف: الأولى عن رتبة المال من السعادة الخارجية، والثانية، في مراعاة جهة الدخل والخرج، والثالثة في المقدار المأخوذ منه، والرابعة في الخرج والإنفاق، والخامسة: النية الصالحة في الأخذ والترك: ص ١٥٣ ـ ١٦١.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد ـ باب الحراسة في الغزو في سبيل الله: ١٥٧/٣، رقم (٢٧٣١).

الاستئناس بالزوجة من الاستراحة ما يزيل الكرب ويروح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات ولذلك قال تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1]، وقال عليّ ﷺ: (روّحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت)[2] فالزواج إذاً من الأمور الجليلة التي تروح عن القلوب وتدخل البهجة والسرور عليها، ولما كان بهذه الصورة العظيمة نجد أن الإسلام حث عليه مؤكداً على اختيار الزوجة الصالحة صاحبة الدين التي من سماتها أيضاً السمع والطاعة، وبذل نفسها وتقديمها بين يدي زوجها بأسلوب جذاب، مخافةً عليه من الانحراف والميل إلى الغير، فتجد الزوج لا يرى منها إلّا أحسن منظر ولا يسمع منها إلّا أعذب الكلام، والضحكة المثيرة، ولا يشم منها إلا أطيب ريح، ومن سماتها أيضاً أن تشد من أزره عند متاعبه وتهدئه عند غضبه، وتألم عند ألمه وتفرح حين فرحه وتستقبله بكل بهجة عند قدومه، وتحفظه في ماله ونفسها وأولادها عند غيابه، فهذه هي المرأة الصالحة وليس هذا الكلام بإنشاء وإنما الأدلة كثيرة عن ذلك من السنة النبوية وأقوال العلماء أيضاً كثيرة، فلو أردنا التوسع في ذلك لما اكتفينا ببحث متكامل[3] ولكن سأذكر بعض الأحاديث التي تدل على أن من ينابيع السعادة الدنيوية اختيار الزوجة الصالحة، قال الرسول ﷺ: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة... ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء...**» الحديث[4] وجاء في حديث آخر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثلاث من السعادة وثلاث من الشقاوة فمن السعادة المرأة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها، ومالك... إلى أن قال: ومن الشقاوة المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها**

(١) الأعراف: (١٨٩).

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: ٣٤/٢.

(٣) للاستزادة ينظر: إحياء علوم الدين: ٣٦/٢ ـ ٥٦، والوصايا العشر إلى فتيات وفتيان وآباء العصر ـ د. موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر ـ مصر، ط١: (٢٠٠١م).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك: ١٤٤/٢ وصححه الذهبي.

لم تأمنها على نفسها ومالك...» الحديث[1]. من هذا نفهم أن الأصل في المرأة هو الصلاح لأن سعادة الرجل متعلقة بذلك، فذات الدين لا يفارقها الخلق الحسن مع زوجها لأن ذلك أصل مهم في طلب الفراغة والاستعانة على الدين، أما إذا كانت سليطة بذيئة اللسان سيئة الخلق كافرة للنعم، كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء،[2] فالخلق الحسن من الأمور الهامة التي حث عليها الإسلام فكما هو واجب على المرأة فإنه واجب على الزوج أيضاً فليس أمر الصلاح، بما فيه حسن الخلق وكل ما ذكرنا سابقاً محصور على الزوجة أن تلتزم به فقط بل يجب على الزوج أيضاً فالزوجين إذا كانا سوياً صالحين امتلأت حياتهما الزوجية بالسعادة، ثم ينعكس ثمار ذلك على الأبناء، وإن كان بالعكس أصبحت حياتهما تعاسة وشقاء وانعكست ثمار ذلك على الأبناء فيعيشون في كبد وشقاء منذ صغرهم لذلك يجب على الزوجين أن يكونا حسني الخلق، يقول الرسول ﷺ: «**أفضل شيء في الميزان يوم القيامة خلق حسن**»[3] هذا عن المرأة والحديث طويل وخوفاً من الإطالة نكتفي بهذا القدر[4] أما الولد فكل من اقترن بزوج اشتاق إلى الولد فإن كان الأبوان صالحين تمنيا أن يرزقهما الله الذرية الصالحة؛ لما لذلك من ثمار طيبة تعود على الأبوين في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فالطاعة والبر بهما والإحسان إليهما، وغير ذلك، وأما في الآخرة فالدعاء

---

(١) رواه الحاكم أيضاً: ٢/١٦٢، وقال هذا حديث صحيح الإسناد عن خالد بن عبدالله الواسطي.

(٢) إحياء علوم الدين: ٢/٤.

(٣) رواه ابن حبان: ١٢/١٥٠٦، رقم (٥٦٩٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه، والترمذي: ٤/٣٦٢، رقم (٢٠٠٢) وقال الترمذي حسن صحيح.

(٤) للاستزادة ينظر: أسرار السعادة الزوجية، وأسباب النجاح والفشل - تأليف محمد محمود عبدالله - مدرس علوم القرآن - بالأزهر الشريف، دار الرضوان - سوريا - حلب، ط (ب:ت)، والسعادة - حقيقتها وأسبابها - محمد المختار الشنقيطي، مكتبة أبي حذيفة السلفية، كتيب منشور، ط (ب: ت).

لهما بعد موتهما لأنه كما جاء في الحديث الشريف: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[1]. ومن الأمور التي يستفيد الوالد من الولد في الآخرة أنه إذا مات الولد قبله وهو صغير يكون شفيعاً له، ونكتفي بهذا القدر عن الولد. أما عن الأقارب فإنه إذا كثر أهله وأقاربه ساعدوه وكانوا له بمنزلة الآذان والأعين، والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية ما يطول فيه شغله لو انفرد، وكلما تحققت الأشغال الضرورية في الدنيا تفرغ القلب للعبادة، والعلم فهو معين على الدين)[2].

ثالثاً: العز

يقول الإمام الغزالي: (وأما العز فبه يدفع الإنسان عن نفسه الضيم، ولا يستغني عنه مسلم، فإنه لا ينفك عن عدو يؤذيه، وظالم يقصده فيشوش عليه وقته ويشغل قلبه، ولذلك قيل: الدين والسلطان توأمان، وقيل الدين أس والسلطان حارس وما لا أس له فمهدوم، وما لا حارس له فضائع ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[3]، وبالجملة دفع الأذى لا بد منه للفراغ للعبادة، ولا يتم ذلك إلّا بنوع من العز، وكما أن الموصل إلى الخير خير، فدفع الصارف عن الخير خيراً أيضاً)[4] وعليه نفهم من هذا بأن العز من الينابيع الهامة لدخول السعادة على النفس.

رابعاً: كرم العشيرة

المقصود بذلك أن تكون العشيرة ذات مكانة في المجتمع لما تمتاز

---

(١) سبق تخريجه ص ١٤٥ من هذا البحث.

(٢) ميزان العمل: ص ٩٩.

(٣) البقرة: (٢٥١).

(٤) ميزا العمل: ص ٩٩.

به من العز والشرف وفضل العلم والتقوى والكرم والنجدة، فإن كل فرد صالح منها يفتخر ويشعر بالسعادة بانتمائه إليها لذلك نجد أن رسول الله ﷺ افتخر أن الله اختاره من قريش وأن قريش من بني هاشم، وأن بني هاشم من كنانة فهي أشرف قبائل العرب لما كانت تتمتع به من مكانة عالية، فقد جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»[1].

إن مكانة كرم العشيرة أمر مرغوب لا يستهان به يقول الإمام الغزالي: (وأما كرم العشيرة وشرف الآباء فقد يستهان به ويقال: المرء بنفسه والناس أبناء ما يحسنون، وقيمة كل امرئ ما يحسنه؛ ولعمري إذا قوبل شرف الأصل دون شرف النفس بشرف النفس دون شرف الأصل استحقر شرف الأصل، أما إذا انظم إليه لم تنكر فضيلته: (فأين السرى إذا سرى أسراهما)[2]وقد شرط النسب في الإمامة وقيل: «**الأئمة من قريش**»[3] وكيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة وتسري من الأصول إلى الفروع)[4] ولذلك قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «**تخيروا لنطفكم، وأنكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم**»[5] إذاً فالإنسان الصالح يفتخر ويعتز بكل بهجة وسرور حين يرى نفسه أنه ينتمي إلى نسب عشيرة عريقة تمتاز عن غيرها بما ذكرنا من خصال، وذلك بخلاف من ينتمي إلى أسرة يسودها الشر والفساد ورداءة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١٧٨٢/٤، رقم (٢٢٧٦).

(٢) أي أشدهما سيراً، والسرى: السير ليلاً، حاشية ميزان العمل: ص ٩٩.

(٣) رواه أحمد في مسنده: ١٢٩/٣، ١٨٣، من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**الأئمة من قريش، إن لهم عليكم حقاً ولكم عليهم حقاً مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا، وإن عاهدوا أوفوا، وإن حكموا عدلوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»، رقم (١٢٣٢٩).

(٤) ميزان العمل، ص ١٠٠.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك: ١٧٦/٢، رقم (٢٦٨٧)، والبيهقي في سننه: ١٣٣/٧، رقم (١٩٥٣٦).

الأخلاق فإذا كان ذلك الفرد من أهل الصلاح فإنه لا يعتز بذلك.

خامساً: المركب الهني، والدار الواسع، والجار الصالح

إن هذه الأمور من ينابيع السعادات الخارجية التي لم يشر إليها الإمام الغزالي والإمام ابن قيم الجوزية أثناء تقسيمهم للسعادة فرأيت أنه لا بد من إلحاقها بينابيع السعادة الخارجية لما لها من أهمية عظيمة حيث وردت عنها أحاديث منها قوله ﷺ: **«من سعادة ابن آدم ثلاث، ومن شقوة ابن آدم ثلاث، من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء»**(١) وجاء عنه ﷺ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربع من السعادات: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، وأربع من الشقاء: المرأة السوء، والجار السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيق»**(٢).

---

(١) سبق تخريجه في فصل الباحثين عن السعادة الوهمية.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ١/١٦٨.

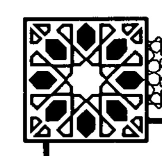
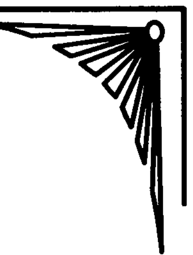

المبحث الرابع

الفضائل المكملة للسعادة التوفيقية

تمهيد:

إن التوفيق أمر محبوب ومرغوب إلى النفس فكل إنسان يحب أن يوفق في كل أمر من أمور حياته، وعليه فإنه لا يستغني عنه الإنسان في كل حال، ومعنى التوفيق هو: (موافقة إرادة الإنسان وفعله قضاء الله تعالى وقدره وهو صالح للاستعمال في الخير والشر، ولكن صار متعارفاً في الخير والسعادة ووجه الحاجة إلى التوفيق بين ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأكثر ما يجني عليه اجتهاده[1]

ثم أن التوفيق يندرج تحته عناصر هامة نبينها فيما يأتي:

أولاً: هداية الله

يقول الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ : (وأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب الفضائل إلا بها فهي مبدأ الخيرات كما قال تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ

(١) ميزان العمل: ص ١٠١.

(٢) طه: (٥٠)

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾[1]، يعني: (ولولا أن الله تفضل عليكم بالتوبة الممحصة لما طهر منكم أحد آخر الدهر من دنس إثم الإفك، ولكن الله يطهر التائبين بقبول توبتهم إذا محضوها)[2] إن هذه الآية وإن كانت خاصة بمن شاركوا في تناول أقاويل حادثة الإفك على أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ فعندما تابوا تفضل الله عليهم بقبول توبتهم ثم إن التوبة يتقبلها الله من عبده مهما كانت ذنوبه إذا كانت التوبة صادقة، فالله سبحانه وتعالى يفرح بقدوم عبده إليه تائباً مستغفراً، فيمنحه عند ذلك الهداية التي تعد من أسعد السعادات الدنيوية، لكن هذه الهداية لا تأتي من فراغ إذا لم يأخذ الإنسان بأسبابها، فيصطحب الصالحين، ويترك رفقاء السوء ويتقرب إلى الله بأداء الصلوات المفروضة، والنوافل، والدعاء الذي يعد من أقوى العوامل المسببة للسعادة، ولا ينسى أيضاً متابعة كل جديد من خطب ومحاضرات العلماء الدعاة، وغير ذلك من الأسباب يقول الشيخ الشنقيطي: (إذا أراد الله أن يسعد العبد أسعده أول ما يكون في نفسه فظهرت دلائل السعادة في التوبة إلى الله والإنابة إلى الله، والبكاء على ما سلف وكان من الذنوب والعصيان، ويسأل الله دائماً العفو والغفران، فيصلح الله من حاله ويبدل الله من أفعاله ومقاله إلى خير وبر، فمفاتيح السعادة في الهداية والإنابة إلى الله والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[3]، فالذي يريد من الله أن يهديه يسعى لذلك فإذا أخذ بالسعي للحصول إليها وفقه الله بها وشرح صدره للإسلام فإذا انشرح الصدر للإسلام نال صاحبه منازل الهداية لأن لها منازل يقول الإمام الغزالي: (والهداية ثلاث منازل:

الأولى: تعريف طريقي الخير والشر المشار إليه بقوله عز وجل ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[4]، وقد أنعم الله به على كافة عباده بعضهم بالعقل

---

(١) النور: (٢١)، وميزان العمل: ص ١٠٢.
(٢) تفسير الكشاف: ٥٦/٣.
(٣) الأنعام: (١٢٥)، والسعادة ـ حقيقتها، أسبابها: ص ١٦.
(٤) البلد: (١٠).

وبعضهم على ألسنة الرسل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[1].

والثانية: ما يمد العبد حالاً بعد حال بحسب ترقيه في العلوم وزيادته في صالح الأعمال، وإياه عني بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[2].

والثالثة: هو النور الذي يشرق في عالم الولاية والنبوة فيُهتدى به إلى ما لا يهتدى إليه ببضاعة العقل الذي به يحصل التكليف وإمكان التعلم، وإياه عني بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[3]، فأضافه إلى نفسه وسماه الهدى المطلق، وهو المسمى حياة في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[4]، وبقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[5].

ثانياً: رشده

الرشد هو التوجيه الإلهي للإنسان بأن يسلك طرق الخير ويتجنب طرق الشر، يقول الإمام الغزالي: (وأما الرشد فنعني به العناية الإلهية التي تعين الإنسان على توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[6]، وقال الزمخشري: (الرشد: الاهتداء لوجوه الصلاح)[7].

---

(١) فصلت: (١٧).

(٢) محمد: (١٧).

(٣) البقرة: (١٢٠).

(٤) الأنعام: (١٢٢).

(٥) الزمر: (٢٢).

(٦) الأنبياء: (٥١).

(٧) تفسير الكشاف: ٢/٥٧٥.

ثالثاً: تسديده

إذا حظي الإنسان بالهداية من الله تعالى وشرف منازلها أكرمه الله بالرشد فإذا نال ذلك أكرمه الله بالتسديد لكل أمر من أمور حياته وهذه المرحلة لا ينالها إلّا عباده المخلصون الأتقياء في كل زمان ومكان يقول الإمام الغزالي: (وأما التسديد فهو أن يقوم إرادته وحركاته نحو الغرض المطلوب ليهجم عليه في أسرع وقت، فالرشد تنبيه بالتعريف، والتسديد إعانة ونصرة بالتحريك)[١].

رابعاً: تأييده

التأييد هو فيض رباني يكرم به عباده الصالحين في شتى دروب حياتهم، فهو أعلى مراتب التوفيق فالسلف الصالح من الصحابة والتابعين عندما تعمق الإيمان في قلوبهم وأصبحوا يتمتعون بسعادة روحية، أنستهم أمور الدنيا فزهدوا عن ملاذها ومتاعها، وجعلوا همهم البذل والتضحية بالمال والنفس من أجل نشر الإسلام والذود عنه، وفقهم الله في شتى دروب الحياة فأكرمهم الله بعد الهداية، بكرم الرشد، حتى حملوا للأمة حقيقة هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ بشموله وواقعيته ومثاليته، ثم أن الله تعالى أكرمهم بسداد كل أمور حياتهم، فسدد الله أهدافهم ورميهم في كل مواطن الجهاد ضد أعداء الإسلام، وسدد خُطا أولي العلم في كل مجالات العلوم، بدءاً بعلوم الشريعة، فبينوها، وشرحوا مقاصدها حتى تجد منهم من تخصص في ذلك تخصص دقيق، فأهل الحديث عندما عقدوا نواياهم لجمع سنة الرسول ﷺ والحفاظ عليها من الغث والسمين، نجد أن الله أكرمهم بالسداد فغربلوا السنة ونقوها، فبينوا صحيحها وحسنها، وبينوا الضعيف بأنواعه، وما هو موقوف على الصحابي، وبينوا الموضوع وغير ذلك، كذلك علماء اللغة، وأئمة الفقه، وهكذا ثم أنه لما أكرمهم الله بتسديده أكرمهم أيضاً بتأييده فأيدهم بنصره على الأعداء في

---

(١) ميزان العمل: ص ١٠٢.

مواقع الجهاد وأيدهم بجنده وملائكته تنزل تقاتل معهم من السماء وقد ذكر الله لنا ذلك التأييد في محكم كتابه في أكثر من آية من ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٢٦﴾[2]، يقول الإمام الغزالي عن هذا التأييد: (وأما التأييد فهو تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش من خارج وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[3]، ويقرب منه العصمة وهو فيض إلهي يقوى به الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع من باطنه غير محسوس، وإياه عني بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ﴾[4].

❊ ❊ ❊

(١) الأنفال: (٩، ١٠).

(٢) الأنفال: (٢٦).

(٣) المائدة: (١١٠).

(٤) يوسف: (٢٤)، وميزان العمل: ص ١٠٣.

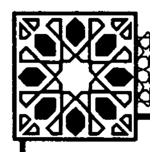

الفصل السادس

منغصات السعادة وطرق علاجها

ويشتمل على تمهيد ومبحثين:

التمهيد

المبحث الأول: منغصات السعادة

المبحث الثاني: علاج المنغصات وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الإيمان واتباع سنة النبي ﷺ وأثرهما في الوصول إلى السعادة

المطلب الثاني: تعهد العبد نفسه بالطاعات وأثرها في سعادته وسعادة العباد في الدارين وقد أخترت منها ما يأتي:

أولاً: الصلاة

ثانياً: الصيام

ثالثاً: الزكاة

رابعاً: الحج

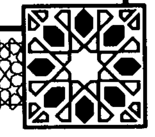

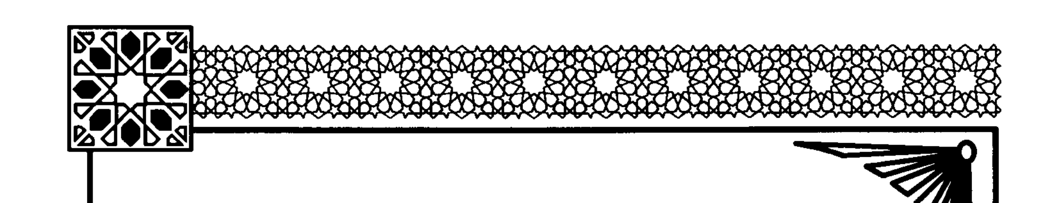

تمهيد

إن من سنة الله على هذه الحياة، بين عباده أن جعل الناس متفاوتين في السعادات كما يتفاوتون في الأرزاق وفي قوة البدن وصحته أو في العقل وغير ذلك من الأمور التي يتفاوتون فيها. فنجد أناس تغمرهم السعادة على الرغم من فقرهم، وما يواجهونه من المتاعب وما ذلك إلَّا لتعمق الإيمان في قلوبهم، ومنهم من تغمره السعادة تارةً ويفتقدها تارة على الرغم أنهم يمتلكون وسائل الراحة والرفاهية، وما ذلك إلَّا بسبب ضعف الإيمان إن لم يكن فقدانه، ومنهم من تجده لا يذق للسعادة طعماً على الرغم أنهم يمتلكون جميع وسائل الراحة، والرفاهية، وما ذلك إلا بسبب عدم الإيمان، وقد ذكرنا لهذه الأصناف نماذج واقعية، عند معرض حديثنا عن الباحثين عن السعادة الحقة[1] والباحثين عن السعادة الوهمية[2] كما تقدم. وعليه فإنه مهما شعر الإنسان بالسعادة مع وجود الإيمان فإنه لا بد أن يواجه المرء في حياته اليومية شيء من المنغصات لأنه لا لذة إلَّا بعد ألم وهذه سنة إلهية لم يسلم حتى الأنبياء عليهم السلام منها الذين واجهوا ذلك مع أقوامهم على الرغم أنهم ما جاؤوا إلَّا حاملين السعادة لهم، وكذلك السلف الصالح رضوان الله عليهم من الصحابة، والتابعين،

---

(١) راجع فصل الباحثين عن السعادة الحقة وأصناف الباحثين عن السعادة الوهمية، من: ص ٤٨ ـ ١١٣ من هذا البحث.

(٢) راجع فصل الباحثين عن السعادة الوهمية من: ص ٩٧ ـ ١٠٤ من هذا البحث.

والأولياء والعلماء والدعاة إلَّا أنهم كانوا يتمتعون بسعادة روحية، كما سبق أن أوضحنا ذلك في الفصل الثاني. ثم إن المنغصات متعددة وتختلف بحسب اختلاف الزمان والمكان وقوة الإيمان، وضعفه، وعدمه، فمنغصات السعادة في زمننا المعاصر كثيرة ومتعددة ولكن لكل علة دواء وهذا ما سنوضحه في المبحثين الآتيين.

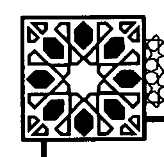
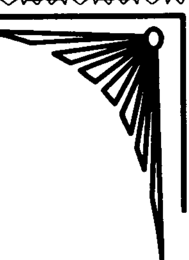

المبحث الأول

منغصات السعادة

إنَّ منغصات السعادة كثيرة جداً ولكن سنقصر الحديث عن أهمها:

١ ـ *التعلق بغير الله*

إن مما ينبغي على المسلم أن يعلم أنه عبدٌ لله سبحانه وتعالى الواحد الأحد الفرد الصمد فلا يتعلق قلبه بغيره فيكون آثم القلب، ثم أن التعلق بغير الله مذلة، فالله هو الرزاق وهو المعطي، وهو المحيي، وهو المميت، يقول الشيخ عايض القرني: (إذا كان المحيي والمميت والرزاق هو الله، فلماذا الخوف من الناس، والقلق منهم؟ ورأيت أن أكثر ما يجلب الهموم والغموم: التعلق بالناس، وطلب رضاهم، والتقرب منهم، والحرص على ثنائهم، والتضرُّر بذمهم، وهذا من قلة التوحيد)[١]:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ	وليتك ترضى والأنام غضاب
إذ صحَّ منك الود فالكل هينٌ	وكل الذي فوق التراب تراب[٢]

(١) لا تحزن: ص ١٤٨.

(٢) نفس المصدر: ص ١٤٨.

ومن التعلق بغير الله سبحانه وتعالى التعلق بالمسؤولين الظلمة الذين يحاربون أولياء الله ودعاته فنجد أصحاب النفوس الضعيفة يجعلون أنفسهم عبيداً للظلمة فيؤذون عباد الله الصالحين بوشاياتهم الكاذبة مقابل مصالح دنيوية. إن مثل هؤلاء قد جلبوا على أنفسهم الشقاء في الدنيا والآخرة لأن لحوم العلماء مسمومة، وهل من أخلاق المؤمن المسلم المتعلق بالله، بغض ومحاربة ورثة الأنبياء والطعن فيهم؟ إن ذلك ليس من الإنصاف، وإنما ذلك ظلم لا يعف عنه رب العالمين إلاّ بالتوبة المحضة، ومن التعلق بغير الله سبحانه وتعالى: حب الدنيا والتعلق بها فإن ذلك رأس كل خطيئة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**»[2] فالتعلق بالدنيا ونسيان الآخرة أمر مذموم، ومن التعلق بغير الله أيضاً. التعلق بالأولياء والصالحين والتوسل بهم من أنهم ينفعون أو يقضون الحوائج فهذا لا يجوز شرعاً إنما الضار والنافع هو الله، فالتوسل بذات الشخص لا يجوز حتى ولو كان ملكٌ مقرب، ولكن يجوز التوسل بأعمالهم الصالحة، أما خلاف ذلك فإنه إعراض عن الله سبحانه وتعالى وضلال قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[4]، قال ابن عباس: ضمن الله لمن اتبع القرآن أن لا يضل في

---

(١) يونس: (٧، ٨).

(٢) رواه الترمذي في صحيحه في كتاب الزهد ١٦٥/٦ رواه ابن ماجه بقريب منه في الزهد: ١٣٧٥/٣.

(٣) طه: (١٢٤).

(٤) طه: (١٢٣).

الدنيا ولا يشقى في الآخرة[1] ومن التعلق بغير الله أيضاً الاعتقاد بالمنجمين والعرّافين، والمشعوذين، وكل من يدعي أنه يعالج المرض بغير الرقية الشرعية، فقد حذر رسول الله ﷺ بقوله: «**من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»[2] وقال أيضاً: «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**»[3].

٢ ـ *عدم الرضا بالقدر والاستسلام لأمر الله:*

المقصود بذلك السخط والجزع: فإذا سخط الإنسان وجزع على ما أصابه حصل له إصابة الضنك، والهم، والغم، وقد قارن الشيخ عايض القرني بين الرضا والسخط قائلاً: إن السخط باب الهم والغم والحزن، وشتات القلب، وكشف البال، وسوء الحال، والظن بالله خلاف ما هو أهله، والرضا يخلصه من ذلك كله، ويفتح له باب جنة الدنيا قبل الآخرة، فإن الارتياح النفسي لا يتم بمعاكسة الأقدار ومضادَّة القضاء، بل بالتسليم، والإذعان، والقبول؛ لأن مدبر الأمر حكيم، لا يتهم في قضائه وقدره فالرضا يوجب له الطمأنينة، وبرْدَ القلب، وسكونه، وقراره وثباته عند اضطراب الشبهة والتباس القضايا وكثر الوارد، فيثق هذا القلب بموعود الله سبحانه وتعالى وموعود رسوله ﷺ، ويقول لسان الحال: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[4]، والسخط يوجب اضطراب قلبه، وريبته، وانزعاجه، وعدم قراره، ومرضه، وتمزقه فيبقى قلقاً ناقماً ساخطاً متمرداً فلسان حاله يقول: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾[5]، فأصحاب هذه إن يكن لهم الحق، يأتوا إليه مذعنين، وإن طولبوا بالحق إذا هم يصدفون، وإن

---

(١) تفسير الكشاف: ٢/٥٥٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه باب (تحريم الكهانة وإتيان الكهان): ٤/١٧٥١ برقم (٢٢٣٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: ١/٤٩ رقم (١٥) وقال لم يخرجاه الشيخان.

(٤) الأحزاب: (٢٢).

(٥) الأحزاب: (١٢).

أصابهم خيرٌ اطمأنوا به، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم، خسروا الدنيا والآخرة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، كما أن الرضا ينزل عليه السكينة التي لا أنفع له منها، ومتى نزلت عليه السكينة استقام وصلحت أحواله، وصلح باله، والسخط يبعده منها بحسب قلته، وكثرته، وإذا ترحلت عنه السكينة، ترحل عنه السرور والأمن، والدعة، والراحة، وطيب العيش ثم قال أيضاً: وعدم الرضا: إمَّا أن يكون لفوات ما أخطأه مما يحبه ويريده وإما لإصابة ما يكرهه ويسخطه، فإذا تيقن أن ما أخطأه لم يكن ليصبه وما أصابه لم يكن ليخطأه فلا فائدة في سخطه بعد ذلك إلَّا فوات ما ينفع وحصول ما يضره[2] وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال لي ﷺ: «**جف القلم مما أنت لاقٍ**». قال ابن عباس: لها سابقون سبقت لهم السعادة)[3] ويقول الداعية الشيخ محمد الغزالي: (إن الرجل الضعيف قد يفزعه المصاب، ويشتت أفكاره، فبدلاً من أن يختصر متاعبه بمجابهة الواقع والاستعداد يسترسل مع الأحزان التي تضاعف كآبته، ولا تغير شيئاً وانظر إلى ابن الرومي لما فقد ابنه كيف يقول:

وأولادنا مثل المشاعر أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد!!
هل السمع بعد العين يغني مكانها أو العين بعد السمع تهدي كما يهدي

ثم يستبد الجزع بالرجل المكلوم فتنهار أعصابه ويرسل هذه الصرخة المجنونة:

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد!

ما قيمة هذا الأعوال والتمرد؟ وما أثره في العاجل والآجل؟ لا شيء إلاَّ الحسرة!

(١) الحج: (١١).
(٢) ينظر: لا تحزن: ص ٢٧٥ باختصار.
(٣) رواه البخاري معلقاً في كتاب القدر باب (جف القلم على علم الله: وأضله الله على علم): ٦/ ٢٤٣٤.

أما موقف اليقين الناضج والتسليم الكريم، فنراه مثلاً في سيرة يعقوب لما جاءه بنوه وهم يتباكون على فقد يوسف الذي أكله الذئب ـ كما يخبرون ـ.

لقد قال الرجل الذي غاب عنه ابنه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1]، وانتظر الرجل أن يؤوب الغائب المتردد بين الموت والحياة، وطال الانتظار دون جدوى، ومرت السنون على الشيخ الأمل من الغيب، وإذا هو بدل أن يعود ابنه المرتقب يفقد ابنه الآخر، وينكأ الجرح القديم جرح جديد: ماذا يصنع؟ أينفس عن جواه بالصراخ والجزع؟ لا إنه يقول مرة أخرى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]، إن القنوط لم يصدمه فينشج بقول الشاعر:

وحملت زفرات الضحى فأطقتها وما لي بزفرات العشي يدان

كلا: لقد تحمل المأساة الأخيرة بالعاطفة نفسها التي تحمل بها الأولى، وظل على تشبثه برحمة الله، يرمق الغد وفي فؤاده شعاع من رجاء لم تطفئه الاحداث وقال لأبنائه: ﴿ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3]. ثم يواصل الغزالي حديثه قائلاً: من هذا السلوك العالي نلتمس الأسوة الحسنة، ونتعلم الثبات في وجه العواصف القاسية وما عساك تفعل إذا أصابك ما تكره؟ إن كان تغيير المكروه في مقدورك فالصبر عليه بلادة، والرضا به حمق. أما إذا كان ما عراك فوق ما تطيق، فهل هناك حيلة أفضل من الاتزان ورباطة الجأش؟ وهل هناك مسلك أرشد من الاعتراف بالواقع، ونشدان تغييره من صاحب الإرادة العليا، وواهب الخير الجزيل؟)[4].

---

(١) يوسف: (١٨).

(٢) يوسف: (٨٣).

(٣) يوسف: (٨٧).

(٤) جدد حياتك ـ محمد الغزال: ص٧٦ ـ ٧٨، دار التوفيق النموذجية ـ الأزهر مصر ـ ط٢ (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

إذاً فما على المرء إلا أن يستسلم لقضاء الله وقدره كي لا يحرم نفسه السعادة. يقول الشيخ محمد أحمد جاد المولى: (إن للتسليم شأن في تحصيل السعادة... ومن الناس من يضطربون لأقل عثرة، فعلى هؤلاء أن يوفروا قواهم النفسية، ولا يسرفوا في بعثرتها عند كل صدمة في العمل، والحذق في العمل لا يتعادل مع اندفاع العاطفة نحوه، بل كثيراً ما تكون شدتها مما يعرقل حذق الإنسان ومهارته، والأديان تنصح بالخضوع لإرادة الله، وليس من شك في أن الإنسان يضطر إلى أن يستسلم إلى شيء من هذا القبيل في كل أعماله وما يتعثر فيه وعلى المرء أن يعمل أقصى جهده، ثم يسلم الأمور بعد ذلك إلى مدبر الكون، والتسليم نوعان:

نوع يتصل أكبر الاتصال باليأس، ونوع يتصل بالأمل الذي لا يقهر: فالذين يندحرون اندحاراً يفقدهم كل أمل في الأعمال العظيمة يلجأون إلى تسليم اليأس، ويسرعون يعزون أنفسهم بترديد عبارات السلوى، ولكن نفوسهم تظل غير سعيدة، وأصحاب الأمل الذي لا يقهر مهما أصابهم من مصيبة يظلون سعداء)(١) وعليه فإن المصائب والمحن، إنما هي ابتلاء لم يسلم منها الأنبياء، فالذين يصبرون على قضاء الله وقدره بكل رضا فهم السعداء. ولذلك عندما عرّفت السعادة قلت على أنها شعور نفسي يتبعه رضا. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(٢).

٣ ـ الإعراض عن ذكر الله

إن سنة الله في المعرض عن هداه سنة حتمية لا مفر منها، وهي عيشة الضنك ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ

---

(١) الخلق الكامل: ١/٤٤٧ ـ ٤٤٨ مصدر سابق.

(٢) البقرة: (١٥٥ ـ ١٥٧).

مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1]، وذكر الله هو قرآنه، أو دينه الإسلام، والإعراض عنه يعني تركه وعدم اتباعه، وابتغاء الهدى من غيره[2] قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، وأعرض عنه، وتناساه، وأخذ من غيره هداه)[3]، وعليه فما مصيره في الدنيا والآخرة؟ إن المعرض عن هدى الله له المعيشة الضنك أي: الضيقة في الدنيا، لأن الضنك أصله الضيق والشدة، ووجه ضيق معيشته أنه شديد الحرص على الدنيا، متهالك عليها، وعلى الزيادة منها خائف من انتقاصها، لا طمأنينة له ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء أو أكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يعمره هدى الله لا يحس بسعادة ولا بطيب العيش. وهذا في الدنيا[4] أما في الآخرة فقد مضت سنة الله في الجزاء أنه سيصبه عقاب المعرضين عن هداه ومن هذا العقاب يوم القيامة العمى، لعماه عن آيات الله، وهداه قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾[5].

٤ ـ الحزن على ما فات

إن الحزن على ما فات من الأمور التي ليس بمقدور الإنسان أن يستبدل ذلك بفرح في حينه فإن ذلك من الصعب فالحزن لا بد من أن يعانيه أي إنسان حتى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فنبي الله يعقوب عليه السلام حزن على يوسف، ونبينا محمد ﷺ حزن عند موت ابنه إبراهيم، وكذلك نوح عليه السلام حزن حين فارقه ابنه فهذه سنة الله لا يستطيع أحد أن يلغيها، فالأمر

---

(١) طه: (٢٤).

(٢) ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان: ص ٤٠، دار إحسان. ط: (ب:ت)

(٣) تفسير ابن كثير: ١٦٨/٣.

(٤) ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: ص٤٠.

(٥) طه: (١٢٤ ـ ١٢٥).

إذا كان جلل فإن النفس تحزن كفقدان الولد أو أحد الأبوين، أو أحد الأخوان، أو قريب أو صديق وهكذا، ثم إن الحزن نوعان محمود ومذموم، فالمحمود ما توسط صاحبه فيه ولم يتماد، والمذموم ما تجاوز عن حده، ورافقه النياح، ولطم الخدود، وشق الجيوب وغير ذلك. يقول الشيخ محمد أحمد جاد المولى: (الحزن ألمٌ نفساني يعرض لفقد محبوب أو فوت مطلوب وسببه الحرص على القنيات الجسمانية، والشره إلى الشهوات البدنية، والحسرة على ما يفقده أو يفوته منها. ومتى كان الإنسان آمناً في سربه، معافى في بدنه، وله قوت يومه، فحزنه وغمه بسبب أمر الدنيا أمارة نقصانه وحماقته)[1]

ويقول الشيخ الغزالي: (ما قيمة لطم الخدود وشق الجيوب على حظٍ فات أو غرم ناب؟ ما قيمة أن ينجذب المرء بأفكاره، ومشاعره إلى حدث طواه الزمن ليزيد ألمه حرقةً وقلبه لذعاً؟ لو أن أيدينا يمكنها أن تمتد إلى الماضي لتمسك حوادثه المدبرة فتغير منها ما تكره، وتحورها على ما تحب لكانت العودة إلى الماضي واجبة.. ولهرعنا جميعاً إليه نمحو ندمنا على فعله، ونضاعف ما قلّت أنصبتنا منه، أما ذلك مستحيل فخير لنا أن نكرس الجهود لما نستأنف من أيام وليالٍ، ففيها وحدها العوض ويواصل فضيلة الشيخ حديثه قائلاً: إن المرء ليس متهماً في حرصه على مصلحته فإذا ضاعت هذه المصلحة لسبب ما، خصوصاً تلك التي تتصل بالآمال والأرزاق فلنجعل من إيماننا بالله، وقدره ما يحجزنا عن التعلق بالأوهام والحماقات. وهذا ما نبّه إليه القرآن الكريم بعد هزيمة (أحد) للباكين على القتلى النادمين على الخروج للميدان: لو بقيتم في بيوتكم ما طالت لكم حياة ولا امتد أجل)[2] ﴿لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾[3]، إذاً فالحزن المتجاوز عن حده والمستمر، يتعب البدن،

---

(١) الخلق الكامل: ١/٣٨٨.
(٢) جدد حياتك: ص ٩٤.
(٣) آل عمران: (١٥٤).

ويرهقه، ثم أن ذلك يغضب الله تعالى. لأنك عارضت قدره، فلا تحزن يا طالب الشهادة إذا فوجئت برسوب أو إكمال، ولا تحزن يا من أنفقت على مشروع من أجل تنمية المال لكنك فوجئت بخسارة، لا تحزن إذا فقدت قريباً لك فتتجاوز عن حده لأن ذلك مهلكه ومفسده للبدن ثم أنك بحزنك ذلك لن تعيد شيء مما مضى يقول الأستاذ (ديل كارينجي): (إن من المعقول أن تحاول تعديل (النتائج) التي ترتبت على أمر حدث منذ ١٨٠ ثانية أما أن تحاول تغيير الأمر نفسه، فهذا هو الذي لا يعقل، وليس ثمة إلَّا طريقة واحدة يمكن بواسطتها أن تصبح الأحداث الماضية إنشائية مجدية. تلك هي تحليل الأخطاء التي وقعت في الماضي والاستفادة منها ونسيانها نسياناً تاماً.

أنا أؤمن بذلك، ولكن هل تراني أملك الشجاعة دائماً لأفعل ما أؤمن به؟)[(١)] لقد سرد (ديل كارينجي) تجربة مرت به جعلها إجابة عن هذا السؤال حيث قال: (كنت قد وضعت مشروعاً ضخماً لتعليم الطلبة البالغين، وافتتحت عدة فصول في مختلف المدن، وأنفقت المال في الدعاية والإعلان وقد استغرق قيامي في هذه الفصول كل وقتي وسلبني كل رغبة في الاهتمام بالناحية المالية من المشروع، ثم أني كنت من السذاجة بحيث غاب عني أنني في حاجة إلى مدير لأعمالي، مدرب على تدبير شؤون المال. وأخيراً وبعد مضي سنة اكتشفت حقيقة مريرة هي: أنني رغم كثرة (الدخل) لم أحقق من الربح شيئاً! وكنت خليقاً بعد أن اكتشفت هذه الحقيقة أن أفعل شيئين، الأول: أن أفعل شيئاً مثلما فعل العالم الزنجي «جورج واشنجتون كارفر» حين أفلس المصرف الذي كان يودع فيه كل ما ادخره طيلة حياته، وقدره أربعون ألف دولار.. فقد سأله أحدهم إن كان قد عرف أنه خسر أمواله جميعاً أجاب: «نعم سمعت» ثم انصرف إلى

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة ـ تأليف: ديل كارينجي ـ مؤسس معهد العلاقات الإنسانية بنيويورك: ص ١٣١ ـ ١٣٤، وتعريب/ عبدالمنعم محمد الزيادي ـ ومكتبة الخانجي ـ القاهرة، مكتبة الديواني ـ بغداد، ط ١٦: (ب:ت).

التدريس وكأن شيئاً لم يحدث. لقد محا من ذهنه محواً تاماً كل تفكير في هذه الخسارة، حتى أنه لم يعد يذكرها بعد ذلك قط!.. والشيء الثاني: أن أحلل أخطائي وأخرج منها بدرس مفيد. ولكني لم أفعل شيئاً من هذا، بل أوقعت نفسي في براثن القلق وعشت أشهراً طوالاً في شبه دوار مستمر، لا أذوق النوم إلّا لماماً ولا أكاد أتناول من الطعام شيئاً.. إنني عوضاً عن أن أتعلم من هذه التجربة القاسية دراسات عدت، فكررت الخطأ نفسه ولكن على نطاق أضيق»[1].

ويواصل «كارينجي» حديثه قائلاً: «وأني ليدركني الاضطراب عندما أسلم بحماقتي هذه!.. ولكني اكتشفت بعد ذلك أن قيامي بتعليم عشرين شخصاً يتبعون تعليماتي! لكم تمنيت لو أتيح لي أن أكون طالباً في كلية «جورج واشنجتون» بنيويورك لأتتلمذ على «مستر براندوين» ذلك الأستاذ الذي تتلمذ على يديه «ألن سوندرز» من أهل مدينة نيويورك.

فقد حدثني «سوندرز» أن «مستر براندوين» مدرس الصحة بكلية «جورج واشنجتون» علمه درساً لا ينساه أبداً، ثم قص عليّ قصة هذا الدرس فقال (لم أكن بعد قد بلغت العشرين من عمري، ولكن كنت شديد القلق حتى في تلك الفترة المبكرة من حياتي، فقد اعتدت أن أستعيد أخطائي، وأهتم بها اهتماماً بالغاً، وكنت إذا فرغت من أداء امتحان، وقدمت أوراق الإجابة أعود إلى فراشي فاستلقي عليه، ثم أعض أصابعي وأنا في أشد حالات القلق خشية الرسوب. لقد كنت أعيش في الماضي، وفيما صنعته فيه وأود لو أنني صنعت غير الذي كان وأفكر فيما قلته من زمن مضى، وأود لو أنني قلت غير الذي قلت، وهكذا حتى كنت ذات صباح، وقد ضمني وزملائي الطلبة الفصل وبعد قليل دخل المدرس «مستر براندوين» ومعه زجاجة مملوءة باللبن، وضعها أمامه على المكتب وتعلقت أبصارنا جميعها بزجاجة اللبن، وراحت خواطرنا تتساءل: ما دخل اللبن في دروس الصحة التي يلقنها لنا «مستر براندوين» وفجأة، نهض «مستر

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة: ص ١٣٢.

براندوين» أطاح بزجاجة اللبن بظهر يده، فوقعت على الأرض، وكسرت، وأريق ما فيها من اللبن، وصاح «مستر براندوين»: «لا يبك أحدكم على ما فات» ثم نادانا الأستاذ واحداً فواحداً لنتأمل حطام الزجاجة، واللبن المراق على الأرض، وجعل يقول لكل واحد منا: «انظر جيداً.. إنني أريد أن تذكر هذا الدرس مدى حياتك، لقد ذهب هذا اللبن واستوعبته البالوعة، فمهما تشد شعرك وتسمح للهم والكدر أن يمسكا بخناقك فلن تستطيع أن تستعيد قطرة واحدة منه، لقد كان يمكن بشيء من الحيطة والحذر أن تتلافى إراقة اللبن ولكن.. لقد فات الوقت الآن، وكل ما تستطيعه أن تمحو أثره وتنساه، ثم تعود إلى عملك بهمةٍ ونشاط»[1].

٥ ـ الحزن على حاضر أو مستقبل

إن كثيراً من الناس من يحزن على هدف منشود في الحاضر أو المستقبل فنجده يصيبه الخوف والهلع، والاضطراب النفسي من أجل ذلك فحالته كحالة من يحزن على ماض وقد سبق توضيح ذلك، ولربما تختلف الصورة هنا، فإن كان حزنه على حاضر: فإما أن يكون حسداً لوصول نعمة إلى من يعرفه ـ وقد سبق بيان ذلك ـ وإما أن يكون حزناً للفقر، وفقدان المال، والجاه، وأسباب الدنيا، وسبب هذا الجهل بفوائد الدنيا وسمومها ولو عرفها معرفتها لشكر الله تعالى على كونه من المخففين دون المثقلين، ولو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يعشقه لم يعشقه! أو يعلم أن الدنيا حمالة المصائب كدرة المشارب... فمن كان معتبراً بما يتجدد كل يوم: من ارتجاع النعم من أربابها، وحلول القوارع بأصحابها، وشدة اغتمامهم بفقدها ـ ولم يتأسف على فواتها... ومتى أمعن الإنسان فكره في غفلة أرباب الدنيا عن الآخرة، وكثرة مصائبهم فيها تسلى عنها وهان عليه تركها. وكان بعض الصوفية وظف على نفسه كل يوم أن يحضر دار المرضى ليشاهدهم وبشاهد عللهم ومحنهم، ويحضر الحبس أيضاً

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة: ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

ويشاهد أرباب الجنايات ومجيئهم لإقامة العقوبات، وأيضاً يحضر المقابر فيشاهد أرباب المصائب وأسفهم على ما لا ينفع مع اشتغال الموتى بما هم فيه، وكان يعود إلى بيته بالشكر طول النهار على نعم الله عليه في تخليصه من كل البلايا، وحق على الإنسان في الدنيا أن ينظر أبداً ما عاش إلى من هو دونه ليشكر، وفي الدين إلى من هو فوقه ليشمر[1] فهذا هو حال من يحزن على حاضرٍ، فكيف حال من يحزن على مستقبل أيضاً؟ إن من يحزن على مستقبل تجده واقع بين حالتين: الأول: إن كان حزنه ذلك على أمرٍ ممتنع وجوده أو واجب كونه مثل الموت فعلاجه محال، وإن كان ممكناً وجوده نظر: فإن كان لا يقبل الدفع كالموت قبل الهرم فالحزن له حماقة، وإن كان قابلاً للدفع فلا معنى للغم، بل ينبغي أن يحتال للدفع بعقل غير مشوب بحزن، فإذا فعل ما قدر عليه من تمهيد حيل الدفع بقي ساكن القلب منتظر لقضاء الله وقدره، عالماً بأنه لا مرد لقضائه فيتلقاه بصبر، إن لم يندفع، ويتحقق أن ما قدر كائن[2] ويتذكر قول الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[4]. يقول الشيخ عايض القرني: «لا تستبق الأحداث: أتريد إجهاض الحمل قبل تمامه وقطف الثمرة قبل النضج، إن غداً مفقود لا حقيقة له، ليس له موجود، ولا طعم ولا لون فلماذا نشغل أنفسنا به ونتوجس من مصائبه ونهتم لحوادثه ونتوقع كوارثه ولا ندري هل يحال بيننا وبينه أو نلقاه فإذا هو سرور وحبور، المهم أنه في عالم الغيب لم يصل إلى الأرض بعد، إن علينا ألا نعبر جسراً، حتى نأتيه، ومن يدري؟ لعلنا نوفق قبل وصول الجسر، أو لعل الجسر ينهار قبل وصولنا، وربما وصلنا

---

(١) ينظر: الخلق الكامل: ١/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠ بتصرف.
(٢) الخلق الكامل: ١/ ٣٩٠.
(٣) الحديد من الآية (٢٢، ٢٣).
(٤) النحل من الآية (١).

بجسر ومررنا عليه بسلام[1].

وواصل القرني حديثه قائلاً: «إن إعطاء الذهن مساحة أوسع للتفكير في المستقبل وفتح كتاب الغيب ثم الاكتواء بالمزعجات المتوقعة ممقوت شرعاً، لأنه طول أمل ومذموم عقلاً، لأنه مصارعه للظل. إن كثيراً من هذا العالم يتوقع في مستقبله الجوع والعري، والمرض، والفقر، والمصائب وهذا كله من مفردات مدارس الشيطان[2]. قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾[3]. إذاً لا فائد في الحزن على مستقبل قد حدده الله في علم الغيب عنده لأن في ذلك إرهاق للفكر وإجهادٌ للبدن قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[4].

٦ ـ الأرق الزائد

إن الأرق من الأمور التي قد يبتلى به كثير من الناس وهذا أمر طبيعي إذا لم يتجاوز عن حده، خاصةً إذا أصابه أمر مؤلم، قهره، كأمر لم يحقق فيه هدفه الذي ينشده أو مصلحة فاتته، أو من شخصٍ أغضبه، أو صفقة تجارية استوردها، أو مشروع ما افتتحه أو غير ذلك والناس في هذه الأمور أصناف متفاوتون صنفٌ تجده لا يضرب لأي أمر واجهه من هذه الأمور أي حساب وهم أهل الإيمان والتقوى الذين زهدوا عن هذه الدنيا وتعلقت قلوبهم ونفوسهم بالآخرة، وصنف من تجده يعتدل في ذلك فإذا ما أصابه أمر آلمه وقهره، أصابه الأرق مدة زمنية قصيرة ثم جاهد نفسه وسلم أمره إلى الله والتجأ إليه بالتضرع والدعاء وهؤلاء هم الذين

---

(١) ثلاثون سبباً للسعادة د/ عايض بن عبدالله القرني: ص٣، دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٩م).

(٢) المرجع نفسه: ص ٣.

(٣) البقرة: (٢٦٨).

(٤) النحل: (١).

يسعون للتوفيق بين مصالح دينهم ودنياهم، بينما تجد الصنف الآخر إذا أصاب أحدهم أمرٌ من هذه الأمور أصابه الهلع والاضطراب النفسي وجاءه الهم والغم فلا يقر له قرار ولا يسكن له ساكن لا يرتاح نهاراً أيضاً، ولا يهنأ في نومه مساءً، بسبب ما يعانيه من أرقٍ شديد ومستمر، من جراء ذلك الأمر، إنه ضعف الإيمان إن لم يكن قد انتزع من جذوره لأن هذا السلوك المذموم سيجني على نفسه السخط من الله عليه في الدنيا والآخرة لأنه بذلك لا يستطيع أن يرد مقدور قد حصل أو ليس له قدرة في الرد على من أغضبه، فلماذا لم يعف عن ذلك جزءاً من أن يمرض نفسه؟ ولماذا لم يحاول أن يتناسى ذلك اليوم الذي لم يحقق فيه هدفه أو خسر فيه، أو فاتته مصلحة فيه؟ إذا كان ذلك بسبب ضعف الإيمان أو عدمه فلماذا لم يحكم عقله، فيرى أن ذلك الأمر خطر على صحته وعافيته بل لربما أثر على أفراد عائلته صغيراً وكبيراً، فلو أنه فكر وتأمل جيداً في أضراره، ما قدم عليه. يقول الدكتور صبري القباني: «إذا اشتد الأرق إلى ليلةٍ وليالٍ، اضمحل الشخص، وذوى أو انحطت قواه فعجزت عن أي نشاطٍ، وتوقف العقل عن الإنتاج، وران على المؤرق طبع قاتم متشائم... يميل به إلى الوحدة، وكره المجتمعات، وتحرى القبح، والسوء في صورة الحياة، ومظاهرها، فلا يستهويه جمال، ولا يرى عناصر الخير. فيكره المجتمع، ويكره نفسه، ثم يكره الحياة، ومعظم الذين يتعرضون للأرق هم الأشخاص الذين يكرهون بأذهانهم، وتضطرهم أحوالهم إلى التفكير المتواصل، كالزعماء والساسة، ورجال الفكر، والمقامرين، وأخصهم أولئك الذين يعيشون في وسط متسع حافل بالمفاجآت والأعمال المعقدة والصخب والضجيج»[١].

٧ ـ الزوجة السوء

كما سبق الإيضاح بأن الزواج من أسعد السعادات الدنيوية خاصةً

---

(١) طبيبك معك د. صبري القباني: ص ٣٨ ـ ٣٩.

حين يحظى المرء بالزوجة الصالحة ولما كان الأمر كذلك فإن الزوجة السوء تعد من أشد منغصات السعادة الدنيوية، بل من أسباب الشقاء خاصة إذا لم يكن عنده قدرة على استبدالها وسبق أن تحدثنا عن ذلك بكل وضوح فلا داعي للتكرار(١).

٨ ـ مصاحبة أهل السوء

إن الإنسان كائنٌ اجتماعي بالغريزة يحب الألفة والاقتران بالآخرين لهذا نجد أن الإسلام اعتنى عناية بالغة بسلوك الفرد المسلم فقد حثه على التمسك بمكارم الأخلاق الحميدة والتي منها اختيار الرفقة الصالحة واجتناب رفقاء السوء فمرافقة أصحاب الصلاح والتقوى لا ينتج عنه إلَّا ثمارٌ طيبة تعود على من اكتسبها منهم بالنفع في الدنيا والآخرة، أما رفقة السوء فإنه لا ينتج عنه إلا ثماراً سيئة وخبيثة لا تعود على من اكتسبها من أولئك الرفقة إلا بالمضرة في الدنيا والآخرة، لهذا نجد أن الرسول ﷺ شبه الصديق الصالح بحامل المسك، وشبّه الصديق السوء بنافخ الكير حيث قال: **«مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة»**(٢).

وعليه فإن الله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان عقلاً يميز بين الخير والشر، فالذي يسلك طريق الخير، فعليه باختيار الرفقة الصالحة التي سيجد السعادة معهم أينما حل وأينما ظل، والذي يسلك طريق الشر فإنه لن يختار إلّا رفقاء السوء فإنه يرى في ذلك سعادته حسب ظنه، لكنه أخطأ الطريق، فإنه لم يسلك إلَّا طريق الشقاء لا طريق السعادة يقول الشاعر:

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردِي

---

(١) راجع مبحث الفضائل المكملة للسعادة الخارجية. ص ١٦٨ ـ ١٧٧ من هذا البحث.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٢١٠٤/٥ رقم (٥٢١٢) ومسلم في صحيحه: ٢٠٢٦/٤، رقم (٢٦٢٦).

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فإن القرين بالمقارن يقتدي

وعلى كل حال فإن المثل المشهور يقول: (إن الطيور على أشكالها تقع)، وآخر يقول: (الصاحب ساحب) وهذه حقيقة لا غبار عليها فمن الأصحاب من تجده يدلك على مفاتيح السعادة أين هي؟ فستجده يحثك على الطاعة والعبادة، في أصطحابك معه إلى المسجد، في قراءة القرآن، في طاعة الوالدين، وفي حسن التعامل مع الناس، وفي الدعوة إلى الله، وفي الصدقة، وفي صلة الأرحام وهكذا فهذا هو الصاحب والرفيق الصالح الذي شبه الرسول ﷺ أخلاقه أيضاً «كالذي يحمل أفضل الروائح الطيبة وهو المسك الذي هو من طيب أهل الجنة. أما الصاحب والرفيق السوء فإنك لا تجده يرشد صاحبه إلاّ إلى مفاتيح الشقاء في معاصي الله سبحانه وتعالى بحثاً عن الملاذ والشهوات في السينما، في الأندية، بل قد يتجاوز حد تلك الصحبة السيئة عند بعض أهل السوء إلى شرب الخمر، واستعمال الحشيش، والمخدرات، وسماع الأغاني حتى يدمر فكره وبدنه تدميراً كاملاً فتصبح نهايته حسرةٌ وندامة والقصص الواقعية تشهد بذلك نسأل الله السلامة[1]، فهذا هو الصديق السوء الذي شبه الرسول ﷺ أخلاقه كالذي ينفخ كير الحدادة فما الذي ينتج من مجالسته أثناء عمله إن حياة رفقاء السوء حياة تعيسة تغمرها الهموم، ويغمرها القلق والأرق والكآبة وغير ذلك، لقد أحرموا أنفسهم سعادة الدنيا والآخرة، ثم أنهم ممقوتون وملعونون عند الله والناس في الدنيا ويعيشون في خزي وعار، إلاّ أن يتوبوا فإذا لم يراجعوا عقولهم ويتوبوا ويندموا على ما جنوه على أنفسهم فإنهم سيخسرون ويندمون في الآخرة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾[2]، إن تلك الحسرة والندامة

---

(١) راجع إن شئت: قصص واقعية تربوية هادفة من: ص١٥٦ ـ ١٧٠، مرجع سابق.

(٢) الفرقان: (٢٧ ـ ٢٩).

التي سيتمثل بها أمام رب العالمين ذلك اليوم لن تنفعه أبداً، بل أن تلك الصداقة التي بنيت بين أهل السوء في الدنيا على مصالحها ومطامعها وملاذها وشهواتها يصبحون في ذلك اليوم أعداء قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[1]، بينما الذين تبنى صداقاتهم في الدنيا على طاعة الله والمحبة فيه لا من أجل مصالح الدنيا فقد اعتبرهما الرسول ﷺ من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلاَّ ظله»[2].

٩ ـ الحسد المذموم

إن الحسد خلق مذموم حرمه الشرع، لأنه يعد أول معصية يعصى بها الله رب العالمين من قبل إبليس عندما امتنع أن يسجد لآدم مع الملائكة وما ذلك إلا حسداً له على المكرمة التي أكرمه الله بها بأنه سيصبح خليفة على هذه الأرض لكن الملائكة سجدوا جميعاً إلَّا إبليس أبى استكباراً فقد كان الكبر الدافع الأساسي لحسد آدم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾[3]. لقد أصبح الحسد سنة سيئة إلى يوم الدين سنها إبليس، ثم أن هذه السنة أصبحت من أخلاق المشركين، واليهود والمنافقين ولقد كان لهؤلاء دور بسبب الحسد ضد الرسول ﷺ والإسلام والمسلمين. وعليه فأنه مرض من أمراض النفس، لأنه تمنى زوال النعمة على من أنعم الله عليه، وسواء تمنى تلك النعمة التي تمنى زوالها أن تعود إليه أو لا[4]. وقال السيد قطب: «هو انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني

---

(١) الزخرف: (٦٧).

(٢) سبق تخريجه: ص١٥٨ في هذا المبحث.

(٣) البقرة: (٣٤).

(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن ـ أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري المتوفى (٦٢٢هـ ـ ٦٧١هـ): ٤٩/٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

زوالها»[1] قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[2]، إذاً هو من أخلاق الكافرين، ليس من أخلاق المسلمين، وقال الرسول ﷺ محذراً كل مسلم بقوله: «**إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[3] ويقول الماوردي: إن أول ما يصيب الحاسد هو مرض في جسده بحيث يعاني من حسرات ذلك الحسد وسقام في الجسد ثم لا يجد لحسراته انتهاء ولا يأمل لسقامته شفاء قال بعض السلف: الحسد داء الجسد[4] وما ذلك إلَّا من أجل نعمة أنعم الله بها على غيره: يقول الإمام ابن تيمية: (فيكون ذلك مرضاً في قلبه، ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل نفع بزوالها، لكن نفعه بزوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة وأشده كالمريض الذي عولج بما يسكن وجعه والمرض باق فإن بغضه لنعمة الله على عبده مرض، فإن تلك النعمة قد تعود على المحسود وأعظم منها)[5] وبهذا نجد أن الحسد بهذه الصورة المؤلمة من أعظم المنغصات لسعادة الإنسان هذا في الدنيا أما في الآخرة فإنه قد يخسر سعادتها لأنه يخسر من حسناته كما جاء في الحديث السابق ذكره، ثم إنه بذلك معترض على قسمة الله بين عباده فقد يكون ذلك منزلق إلى الردة.

١٠ ـ الكبر، والحقد، والغضب

إن هذه الأمور تعد من أراذل الأخلاق التي ذمها الشرع، ثم أنها من

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب: ٦/ ٤٠٠٨، دار النشر ـ بيروت ـ القاهرة، ط٩: (١٣٩٩هـ ـ ١٩٨٠م).

(٢) البقرة: (١٠٩).

(٣) أخرجه أبو داود في السنن باب: (ما جاء في ذم الحسد): ٤/٢٨٣ رقم (٣٠٩٤).

(٤) ينظر: أدب الدنيا والدين: ص ٢٦٤.

(٥) أمراض القلوب وشفاؤها: ص ١٥ ـ ١٦ يليها التحفة العراقية في الأعمال القلبية ـ شيخ الإسلام تقي الدين أحمد ابن تيمية ـ، المتوفى (٧٢٨هـ)، المكتبة الوطنية ـ بغداد ـ مطبعة الزمان (١٩٨٩م).

أعظم المنغصات لسعادة المسلم، فالكبر كان الدافع الأول لإبليس حين حسد آدم فلما سأله رب العالمين: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[1]، هنالك دفعه الكبر بأن يرد عليه بكل وقاحة: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[2]، لقد اغتر إبليس بالعنصر الذي خلقه الله منه وهو النار عن الطين إنها البلادة والحماقة، وهكذا من سار على سنته تلك تجده يغتر ويتكبر بأي نعمة يتميز بها عن الآخرين. فزعماء المشركين الذين كانوا يتطلعون للزعامة في مكة امتنعوا أن يستجيبوا لدعوة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ منعهم الكبر لأنهم أهل سلطان وجاه ومال، وسادة، وأشراف، ودين محمد جاء مساوياً لهم مع العبيد وهكذا أصحاب الزعامة والسيادة في كل زمان ومكان تجدهم لا يستجيبون للحق ولا يذعنون له.

وما ذلك إلّا كفران بأنعم الله التي أعطاهم، على الرغم أن مثل هؤلاء جلبوا على أنفسهم الشقاء في الدنيا والآخرة يقول الرسول ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من كبر**»[3].

والحقد والغضب من السمات المذمومة التي ذمها الشرع وحث المسلم أن يجتنبها كي لا تنغص سعادته، لأن الحسد المحرم الذي سبق الحديث عنه ناتج عنهما يقول الإمام الغزالي: (اعلم أن الحسد... من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب فهو فرع فرعه والغضب أصل أصله)[4] ولتوضيح معنى الحقد الذي هو فرع فرعه ومعنى الغضب الذي هو أصل أصله يقول عبدالرحمن الجزيري: (الحقد هو الانطواء على البغضاء بأن يشتغل قلب الحاقد على من يحقد عليه وينفر عنه ويبغضه، وهو نتيجة الغضب وثمرته لأن الغضب إذا ثار وطغى فإنه لا يهدأ إلا بأمرين

---

(١) الأعراف: (١٢).

(٢) الأعراف: (١٢).

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: كتاب الإيمان - باب - (تحريم الكبر وبيانه): ٩٣/٣، رقم (٩١).

(٤) إحياء علوم الدين: ٢٠١/٣.

أحدهما: الحلم وهو: يستلزم تقدير الأمور، والتدبر في عاقبة الغضب، وما يجر إليه من المصائب، والبلايا، وهذه درجة رفيعة، ومنزلة سامية لا ينالها إلا عظماء الرجال الذين تمتلك عقولهم أبدانهم... ثانيها: التشفي والإنتقام من المغضوب عليه فمن ثار غضبه ولم يكن حليماً وعجز عن البطش بمن أهاجه انقلب غضبه حقداً)[1] ولخطورة هذه الأمور نجد أن القرآن الكريم دعانا إلى أن نعفو ونصفح ونحسن لأن ذلك هو سبيلنا إلى الخروج من آفات النفوس إذا أردنا أن نعيش سعداء قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[3]، هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم، أما ما جاء في السنة النبوية فقد وردت أدلة كثيرة تحثنا على الصبر والتروي والحلم والعفو من ذلك أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «أوصني، قال: **لا تغضب**، فردد مراراً قال: **لا تغضب**»[4].

فهذه هي أبرز المنغصات التي تنغص على المسلم سعادته فإن جاهد نفسه كان من السعداء، ثم إن هناك منغصات أخرى كنت أتمنى ذكر أكثر من ذلك لكنه لم يتسع بنا المقام خشية الإطالة فاكتفيت بهذا القدر، وبالمناسبة فالمنغصات سواء كانت قليلة أم كثيرة فإنه لا بد من الوقاية والعلاج، وإن كان أمر ذلك صعب عند كثيرٍ من الناس لكن المريض الذي يريد أن يشفى من مرضه فإنه يصبر على مرارة الدواء مهما كانت درجة تلك المرارة، من أجل مرض واحد، فما بال المرء إذا تنوع المرض واشتد على صاحبه، فإنه من المؤكد سيذهب إلى أكثر من طبيب أخصائي لمعالجة نفسه، فلماذا لا يكون حرياً بنفسه ويهتم بما هو أخطر من ذلك

---

(١) كتاب الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ـ عبدالرحمن الجزيري: ١١٧/١، مطبعة الأنوار مصر، ط (ب:ت).

(٢) النور: (٢٢).

(٣) آل عمران: (١٣٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب الأدب ـ باب ـ (الحياء): ٥/ ٢٢٦٧، رقم (٥٧٦٦) عن أبي هريرة، ورواه ابن حبان في صحيحه: ٥٤/١٢، ورقم (٥٦٩٠).

فيعالج روحه ونفسه وبدنه من أمراض هذه المنغصات وغيرها بعلاج نافع مفيد دون مقابل جاء به طبيب القلوب ومداويها سيدنا محمد ﷺ، إن هذا الدواء هو ما سيكون الحديث عنه في المبحث القادم الذي يعتبر الثاني والأخير من هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

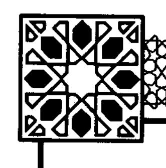
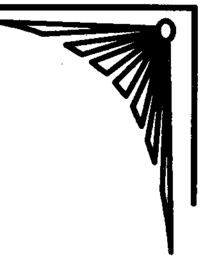

المبحث الثاني

علاج منغصات السعادة

لقد كتب الكثير من علماء السلف عن السعادة إلا أنهم لم يتناولوها من جميع جوانبها، ولم يتعمقوا في الحديث عن طرق الهداية المؤدية إليها، والتي تمثل مقتضيات وينابيع سعادة الدارين وهي كثيرة، ولكني سأقصر الحديث عن أبرزها معتبراً ذلك علاجا نافعاً إن شاء الله لمن عمل به كما سنبين ذلك في المطالب الآتية:

المطلب الأول: الإيمان واتباع سنة النبي ﷺ وأثرها في الوصول إلى سعادة الدارين

يقصد بالإيمان هو التصديق والاعتقاد، بأن الله سبحانه وتعالى ربٌّ فلا رب سواه ومعبود لا يعبد أحدٌ سواه، فهو الإله المتعال المنزه عن كل نقص، فإن في ذلك فلاحٌ لقلب العبد، وسروره واطمئنانه... يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ القلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يُسرّ، ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده، وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه، ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون،

والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلّا بإعانة الله له، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلّا بإخلاص الحب لله بحيث يكون الله هو غاية مراده، ونهاية مقصوده ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة (لا إله إلا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية، والمحبة لله، وكافيه من نقص التوحيد، والإيمان بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك[1] ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (لا يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾[2]، علماً وحالاً فيثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الألوهية، فإنه إذا تيقن أن الضرر والنفع، والعطاء والمنع، والهدى، والضلال، والسعادة، والشقاء كل ذلك بيد الله لا بيد غيره، وأنه الذي يقلب القلوب ويصرفها كيف يشاء، وأنه لا موفق إلّا من وفقه وأعانه، ولا مخذول إلّا من خذله وأهانه، وتخلى عنه...)[3] فهذا هو معنى الإيمان بالله، ولا يقتصر إيمان العبد على ذلك بل يجب عليه أيضاً أن يؤمن بأسمائه التي يسمى بها بأنه: الأول، والآخر، الظاهر، والباطن، والخالق، القوي... الخ ويؤمن بصفاته التي يتصف بها بأنه: العدل، البار، الرحيم، التواب، الغفور، الودود... الخ وقد جاء في الحديث الشريف: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة**»[4] يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ (والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاها لآثارها من الخلق والتكوين، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب، والجوارح، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع، والخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة يثمر له عبودية التوكل وثمراته

---

(١) العبودية ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص ٧٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط: (١٩٨٥م).

(٢) الفاتحة: (٥).

(٣) مدارج السالكين ـ بين منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: ٤١١/١. مصدر سابق.

(٤) رواه البخاري: في (الدعوات): ٢١٤/١١، ومسلم: في باب الدعاء: ٦٥٨٧.

ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى، وبصره، وعلمه أنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض فإنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، يثمر له حفظ لسانه، وجوارحه، وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأنه يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطناً، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء، ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة، والباطنة بحسب معرفته وعلمه، وكذلك علمه بكماله، وجماله، وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية، فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات)[1] ولما كانت هذه هي حقيقة الإيمان بالله تعالى الذي يعد أول أركان الإيمان الستة، فإن هناك أركان أخرى لا يتم إيمان العبد إلَّا بها والمتمثلة في الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة على أنبيائه، ورسله، وبالقضاء، والقدر خيره وشره كله من الله تعالى. فإذا أمن العبد بهذه الأركان كمل إيمانه وحسن عمله وعرف معنى السعادة أما إذا كذب بركن من هذه الأركان فقد كفر والعياذ بالله وأصبح من الأشقياء يقول الرسول ﷺ: «**ثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»[2] وقال أيضاً: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً**»[3] نعم إن الإيمان إذا تعمق في القلب أصبح له لذة لا تفارق قلبه وأثرٌ عظيم في إدخال السعادة على العبد المؤمن يقول الدكتور/ يوسف القرضاوي: (السعادة شيءٌ ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه، حدثوا أن زوجاً غاضب زوجته فقال لها متوعداً: لأشقينك.

(١) مفتاح دار السعادة: ٢/٩٠، ٩٨١ رقم (٥٨٥) ومسلم: ٤/٤٦٣، رقم (٢٦٧٧).
(٢) رواه البخاري في باب الإيمان: ١/١٧٧، ومسلم في باب الإيمان: ٢/١٣.
(٣) رواه مسلم في باب (الإيمان): ٢/٣.

فقالت الزوجة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني كما لا تملك أن تسعدني.

فقال الزوج في حنق: وكيف لا أستطيع؟

فقالت الزوجة في ثقةٍ: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينةٍ من الحلي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيءٍ لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون.

فقال الزوج في دهشةٍ: وما هو؟ فقالت الزوجة في يقين: إني أجد سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي لا سلطان لأحدٍ عليه غير ربي)[(١)]. وواصل الدكتور القرضاوي حديثه بعد ذلك قائلاً: (هذه هي السعادة الحقة، السعادة التي لا يملك بشر أن يعطيها ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال: (إننا نعيش في سعادةٍ لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف)[(٢)].

هذا هو الإيمان حين يتعمق في النفوس لكنه لن يكتمل إلَّا باتباع سنة النبي ﷺ ولن ينال المؤمن السعادة إلَّا باتباعها. لأن الإسلام هو دين الله المنزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ ودينه المنزل على أنبيائه السابقين، لأن أصول أديان كل الأنبياء واحدة لا تختلف في شيء، وإنما الذي يختلف هو أحكام الشرائع التي أتى بها كل نبي للقوم الذين عاش بينهم. إذا نظر إلى كل شريعة نظرة جامعة دون النظر إلى جزيئاتها، ثم إن كل نبي من الأنبياء الذين سبقوا نبينا محمد ﷺ كان يبعث إلى أمة معينة بينما الرسول ﷺ لما كان خاتم النبيين بعثه الله إلى الناس كافة. جاءهم بدين الإسلام الذي فيه سعادتهم قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[(٣)]، وقال أيضاً ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[(٤)]،

---

(١) رواه البخاري في باب الإيمان: ١٧٧/١، ومسلم في باب الإيمان: ١٣/٢.

(٢) الإيمان والحياة: ص ٧٨ والقائل هو إبراهيم بن أدهم وقد سبق ذكر ذلك في: ص٨٨ من هذا البحث.

(٣) الأنبياء: (١٠٧).

(٤) المائدة: (١٦).

وقال ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1]، وبما أن هذا النبي بعثه الله رحمة، ومخرجاً لمن تبعه من الظلمات إلى النور ويضع عنهم الإصر والأغلال فهذه هي السعادة الحقة، لذا فإن الواجب اتباعه، والعمل بالقرآن الذي أنزل عليه وتطبيق سنته، ولهذا كان معنى الإسلام: الاستسلام، والإذعان، والانقياد، أي يجب على كل مسلم أن يستسلم ويذعن وينقاد لهذا الدين. يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها، وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به من حد الجاهلين به في عداد أتباعه، وشيعته، وحزبه، والناس في هذا بين مستقل ومستكثر، ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)[2] وقد دلت الأدلة المتواترة من الكتاب والسنة الصحيحة على وجوب اتباع سنة النبي ﷺ والعمل والتمسك بها، لأن كل طريق إلى الجنة مقطوعة على صاحبها ما لم يتبع سنة نبيه ﷺ فمن الآيات الدالة على اتباع سنته قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[4]، في هذه الآيات نجد أن الله سبحانه وتعالى قرن طاعة الرسول بطاعته يعني إذا أطاعوا النبي فقد أطاعوه فإن في ذلك الفوز العظيم الذي هو الظفر بسعادة الدنيا والآخرة. هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم عن اتباع سنته أما من السنة فمنها قوله ﷺ: «**إنما مثلي، ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينين وإني أنا النذير العريان، فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب**

---

(١) الأعراف: (١٥٧).

(٢) زاد المعاد: ١/١٥.

(٣) الأنفال: (٢٠).

(٤) آل عمران: (١٣٢).

بما جئت به من الحق»[1] فهذا هو مثل من أطاع رسول الله ﷺ ومثل من عصاه ضربه لأمته إذاً فالذي يريد أن يكون من أهل السعادة في الدنيا، ويفوز بالجنة وينجو من النار فعليه أن يفرح بنعمة الإسلام التي تعد من أكبر النعم تفضل الله بها على عباده يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ بشأن قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[2]، وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته الإسلام والسنة، وعلى حسب حياة القلب يكون فرحه بهما وكلما كان أرسخ فيهما كان قلبه أشد فرحاً حتى أن القلب إذا باشر روح السنة ليرقص فرحاً أحزن ما يكون الناس، فإن السنة حصن الله الحصين الذي من دخله كان من الآمنين، وبابه الأعظم الذي من دخله كان من الواصلين[3].

المطلب الثاني:

تعهد العبد نفسه بالطاعات وأثره في سعادته وسعادة العباد في الدارين

إن من أراد أن يشعر دوماً بالسعادة فعليه أن يتفقد نفسه بالطاعات والعبادات التي فرضها وحبب إليها دين الإسلام، لأن الإسلام ليس اسم شعار يفتخر به دون العمل بما جاء فيه من العبادات والطاعات، بل إن الإسلام بذاته لا يفتخر بمن يحمل اسمه ويقول: إني مسلم ولا يعمل بما تضمنه، وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن ممن يدَّعون الإسلام، والإسلام براء منهم فكم من أناس تركوا فرائضه من صلاة وصيام وزكاة وحج، وانتهكوا محارمه من ارتكاب الكبائر بجميع أنواعها وغير ذلك فبماذا سيجيبون ربنا غداً؟ وهو يقول لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[4]، لا شك أنه سيكون جوابهم له ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا

---

(١) رواه البخاري في (الاعتصام): ٢٦٩/١٣، ومسلم في الفضائل: ٧٠/١٥.

(٢) يونس: (٥٨).

(٣) ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن قيم الجوزية: ص ٣، ط (دار الفكر).

(٤) المؤمنون: (١٠٥).

قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[1]، شقاوة الدنيا غلبتهم فأصبحوا يبحثون عن ملاذها وشهواتها ومطامعها وغير ذلك، جعلوا همهم وعنايتهم بالجانب المادي وأهملوا الجانب الروحي، فلم يتعهدوا أنفسهم بالطاعات والعبادة استعداداً للآخرة التي فيها سعادتهم الأبدية، إنما آثروا الفانية على الباقية فهل يقبل الله ذلك العذر منهم؟ إن الله لا يقبل منهم أي عذر لأنه بعث إليهم النذير البشير وهو محمد ﷺ بآيات بينات واضحات متمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية لكنهم أعرضوا عنها بل وكذبوها فأصبحت موازينهم خفيفة الحسنات ثم يرد الله عليهم قائلاً: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾[2]. هذه هي سمات المنافقين في كل زمان ومكان يسخرون من عباده الصالحين الذين جاهدوا أنفسهم وتعهدوها بالطاعات لقد جلب هؤلاء على أنفسهم الشقاوة في الدنيا لأن كل منحرف ومكذب فإنه من الأشقياء، وجلبوا على أنفسهم الشقاء في الآخرة، من سخط الله عليهم وغضبه، وحرمانهم الجنة، والدخول النار، إذاً الأمر خطير وليس هيناً، لذا يجب على كل من ينتمي للإسلام أن يجاهد نفسه ويحارب الشيطان الذي يعيقه، ويتعهد نفسه دائماً بالطاعات والعبادات، ثم يجب عليه أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب فلا ينسى أنه منذ أن يفارق هذه الدنيا مصيره الدخول إلى تلك الحفرة المظلمة حيث لا أنيس ولا جليس، إنما سيجد الأعمال الصالحة أنيسة له في قبره تلك الأعمال التي كان يتعهد بها نفسه في الدنيا، فهنيئاً لمن فعل ذلك ثم أنه لا إيمان للعبد إذا لم يعمل بأركانه الخمسة، وغيرها من الطاعات يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ بشأن قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[3]: (فهذا خبر أصدق

(١) المؤمنون: (١٠٦، ١٠٧).
(٢) المؤمنون: (١٠٨ ـ ١١١).
(٣) النحل: (٩٧).

الصادقين، ومخبره عند أهله عين اليقين، بل هو حق اليقين، ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه، وعمله، ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل، والمشارب، والملابس، والمناكح، أو لذة الرياسة، والمال، وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات، ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان، فمن لم تكن عنده لذة إلَّا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام فذلك ممن ينادى عليه من مكان بعيد، ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلَّى عن الأبناء والنساء والأوطان، والأموال، والإخوان، والمساكن، ورضي بتركها كلها، والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكاره، والمشاق، وهو متحل بهذا منشرح الصدر به...)[1] هؤلاء هم الذين تعهدوا أنفسهم بالطاعات والأعمال الصالحة لأن الإيمان عندما يتعمق في نفس العبد المؤمن، فإن تلك النفس تجدها تواقة دائماً إلى الأعمال الصالحة، وبالجملة فإن كل عمل صالح مع الإيمان له حلاوة وسعادة في قلوب العباد، وكذا ترك المعاصي والتنزه عن الشبهات والشهوات، كان أسلم منها قلب العبد فإنه يسعد في الدنيا والآخرة، والأعمال الصالحة كثيرة، سنخص منها بالذكر، الصلاة، والصيام والزكاة، والحج.

⇦ أولاً: الصلاة وأثرها في إدخال السعادة على الفرد والمجتمع:

إن الصلاة هي أحد أركان الإسلام الخمسة، فرضها الله على أمته خمساً في العمل وخمسون في الأجر، ثم أنها همزة الوصل بين العبد وربه والحديث طويل جداً عنها ولكن سنتناول ما يهم البحث وبالتحديد الآثار الناجمة عنها التي تدخل السعادة على الفرد بحيث ترى تلك الآثار تنعكس على النفس والروح، والبدن، والأخلاق، والمجتمع، وفي قضاء الحوائج.

---

(١) مفتاح دار السعادة: ١.٣٥.

١ ـ أثرها على النفس والروح

كما هو معلوم بأنه لا يمكن الاتصال الدائم والمستمر بين العبد وربه إلّا بالصلاة لأنها مناجاة الله سبحانه وتعالى يقول سيد سابق ـ رحمه الله ـ والمنجاة: مخاطبة الله مباشرة، وهي تشعر المرء بوجود الله وجوداً حقيقياً، وأنه قريب منه، يسمع دعاءه، ويلبي نداءه، ويستجيب له، وإذا واظب المصلي على هذه المناجاة، خمس مرات في اليوم والليلة، تيقظت قواه الروحية، وأحس بأن الله يمده بالقوة، والعون، وأنه سبحانه معه لا يتخلى عنه فتقوى عزيمته، وتشتد إرادته، ويمضي إلى غايته دون تردد أو ضعف مهما اعترضته الصعاب، أو واجهته العقبات)[١]، ويقول الدكتور نظام الدين عبدالحميد: إن العبد عندما يقف بين يدي ربه في اليوم خمس مرات متذلل بين يديه أثناء صلاته مبتدأ بحمده وثنائه، ومخاطبته بأنه يعبده وحده ويستعين به وحده في جميع أموره، ويلتمس منه الهداية والرشاد، ويرجو أن يهديه سواء السبيل، ويوفقه في أمور دينه ودنياه، فإنه يرى في ذلك لذة روحية ما لا يمكن وصفه، ويجد من صفاء النفس، ويقظة المشاعر ما لا يمكن أن يجده أحد إلّا من كان في مثل حاله، ويشعر بفيض من المسرة ما لا يشعر به أي إنسان في أية حالة من حالات حياته الدنيوية من سعة جاه، وكثرة ثراء، ورفعة مكانة وهذه الحالات من اللذة الروحية، وصفاء النفس، ويقظة المشاعر تظل آثارها في النفس، وتجعل صاحبها موصول السبب بالله خلال الفترة بين الصلاتين فهي قد تضعف بسبب المشاكل ولكنها لا تنقطع[٢] ثم قال بعد ذلك: (إن الصلاة معراج المؤمن ـ كما ذكر ـ يرتفع بها عن سفاسف الأمور وتحمله إلى حيث الألطاف الإلهية فيتجرد عن كل ما يدعو إلى

---

(١) إسلامنا ـ السيد سابق: ص ١١٦، دار الكتاب العربي ـ بيروت لبنان، ط: (ب:ت).

(٢) العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية د.نظام الدين عبدالحميد: ص٥٤ ـ ٥٥، مطبعة الخلود بغداد ـ رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد لسنة (١٩٨٥م).

الانزعاج)[1] وقال الدكتور أنس أحمد كرزون: (إذا أقبل العبد على صلاته بهمةٍ، ورغبة، واستشعر مناجاته لربه وتضرعه بين يديه، فإن تلك الصلاة تُمدُّه بقوةٍ روحية، وتمنحه طمأنينة النفس، وراحتها، وتعينه على مواجهة متاعب الحياة، ولذلك قال الله تعالى موجهاً عباده إلى أهمية الصلاة في تحقيق الراحة النفسية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[2]. فالصلاة أكبر عون على مهمات الحياة، ومصائبها: يلجأ فيها العبد المكروب إلى ربه فيجد راحته ويحس بتأييد الله له ورحمته به[3]. لهذا كان رسول الله ﷺ إذا اشتد به الحال نادى بلال ليقيم الصلاة كما جاء في الحديث أنه كان يقول: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**»[4]، نستفيد من هذا الحديث أن في الصلاة راحة من متاعب الدنيا وهمومها وآلامها. وهذا هو السر الذي جعل عروة ابن الزبير رضي الله عنه يرفض طلب الأطباء الذين أحضرهم الوليد بن عبدالملك لمعالجة رجله حين أصيبت بأكله، فأرادوا أن يسقوه جرعة من مسكر لكي لا يشعر بآلام القطع ثم أتوا برجال كي يمسكوه فقال لهم: لا أحب أن أستعين بحرام على ما أرجوه من العافية، ولا أحب أن أسلب عضواً من أعضائي دون أن أحس بألمه. وقال عن الذين أرادوا مسكه: لا حاجة لي بهم، وإني لأرجو أن أكفيكم ذلك بالذكر والتسبيح[5] يقول أليكس كارليل: (إن الصلاة تحدث نشاطاً روحياً معيناً يمكن أن تؤدي إلى الشفاء السريع لبعض الأمراض)[6] وصدق الشاعر إذ يقول:

أقم الصلاة ففي صلاتك راحة تعش الحياة من الهموم براء

---

(١) المرجع نفسه: ص ٥٥.

(٢) البقرة: (١٥٣).

(٣) ينظر: طريق السعادة: ص ١٨٣.

(٤) رواه أبو داود: ٢٩٦/٤ برقم (٤٩٨٥)، رواه الطبراني في الكبير: ٢٧٧/٦٦ برقم (١٢١٥) عن عبدالله بن محمد بن الحنفية.

(٥) ينظر: صور من حياة التابعين: ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٦) طريق السعادة: ص ١٨٢.

٢ ـ أثرها على البدن

لو تأمل المسلم سر حكمة تكرار الصلاة كل يوم خمس مراتٍ لوجد أن تلك حكمةً ربانية اقتضتها الإرادة وما ذلك إلَّا رحمة منه بعباده لأنه يعلم بأن عباده يعصون ويذنبون لهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى جعلها كفيلة بتطهير ذنوب بدن الإنسان التي يذنبها بين كل فرض وآخر وهذا ما أشار إليه المصطفى ﷺ وهو يحدث أصحابه قائلاً: «**أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات فهل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»[١]، وليس أثر الصلاة مقصوراً على هذه النعمة العظيمة التي هي غسل الأدران وتكفير الخطايا فحسب ولكن لها آثار صحية أيضاً فالمسلم المحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها يشعر بنشاط مستمر في بدنه وهي خير من الأدوية التي يتناولها قاطعوا الصلاة أثناء مرضهم يقول الدكتور: (أليكس كاريل) لعل الصلاة هي أعظم طاقة مولدة للنشاط عرفت إلى يومنا هذا، وقد رأيت بوصفي طبيباً كثيراً من المرضى فشلت العقاقير في علاجهم فلما رفع الطبيب يديه عجزاً وتسليماً تدخلت الصلاة فأبرأتهم من عللهم[٢]. ومن فوائدها الصحية أيضاً الوقوف، والركوع، والسجود فإن لهذه الحركات التي يؤديها المصلي أثناء صلاته خمس مرات فوائد عظيمة إذ يشترك فيها جميع أعضاء الجسم من الرأس، واليدين، والرجلين، والفقرات، ومفاصل الجسم فهذه عملية رياضية تجعل المصلي يحس بالصحة والنشاط. ومن الجدير بالذكر هو أن القيام المبكر لصلاة الصبح يبعث النشاط إلى الجسم، ويدفع عنه الخمول، والكسل، ويمكِّن الإنسان من استقبال عمله اليومي بغاية النشاط وكامل الاستعداد[٣].

---

(١) رواه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة: ٢/١٥ ومسلم: باب (المساجد ومواضع الصلاة)، رقم (٦٦٧).

(٢) ينظر العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية: ص ٥٤.

(٣) ينظر: المرجع نفسه: ص ٦٨.

٣ ـ أثرها على الأخلاق

إن من سنة الله سبحانه وتعالى أن جعل عباده يتفاوتون في الأخلاق فمنهم من يتمتع بدرجة عالية من الأخلاق الرفيعة وهم الذين أذعنوا أنفسهم لاتباع تعليم هذا الدين الحنيف الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ ومنهم من تجدهم يتمتعون بدرجة متوسطة من الأخلاق وهم الذين في مرحلة المجاهدة لأنفسهم للوصول إلى مكارم الأخلاق، ومنهم من دنت أخلاقهم إلى الحضيض وهم المنحرفون الذين تغلبت أبدانهم ونفوسهم على عقولهم: فلو تأمل الإنسان في خلق نفسه لوجده خلقاً عجيباً فيه من روحانية الملائكة، ومن البهيمة شهوتها، ومن السباع ضراوتها، وكثيراً ما تغلبه الشهوة، ويستفزه الغضب، ويجذبه طين الأرض الذي خلق منه فيقع في الخطايا ويتردى في الدنايا وهذا أمر طبيعي في أن الإنسان يذنب ويتوب ويستغفر أما إذا تمادى في الخطأ واستمر في الانحدار حتى يصير كالأنعام وأضل سبيلاً فهنا الخطأ الجلل والعيب الكبير.

وعليه فما العلاج والدواء لمثل هؤلاء؟! إن التوبة إلى الله والإنابة إليه هي خير علاج، وليكن أول جرعة يتناولها هي الصلاة لأنها تهذّب سلوك العبد فإن في الصلاة اليومية الخمس فرصة يؤدب فيها الخاطئ إلى رشده ويفيق المغرور من سباته، ويرجع الإنسان المخطئ إلى ربه ليطفئ هذا السعار المادي الذي أججته المطامع الدنيوية، والشهوات البهيمية، والتغافل عن الله والدار الآخرة. إن الصلاة بالإضافة إلى أوصافها السابقة فأنها قوة خلقية تمد ضمير الإنسان المؤمن بما يعينه على فعل الخير، وترك الشر، ومجانبة الفحشاء والمنكر، كما تقوي نفس المؤمن بما يصد عنه الجزع، والهلع عند الملمات. فهي تغرس في القلب مخافة الله، ومراقبته، ورعاية حدوده يقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]. لكن قد يقول قائل: إنني أصلي ومع ذلك أزاول المنكرات؟! فالجواب عليه: بأن العيب ليس في الصلاة، إنما العيب فيه، بحيث أن توبته كانت هشة فقلبه لا يزال معلقاً بما

---

(١) العنكبوت: (٤٥).

كان يفعله قبل توبته، أو أنه يقبل عليها بدون خشوع وتذلل بين يدي ربه مفرغاً لقلبه مما يشغله عن صلاته فإنه إن فعل ذلك نهته صلاته. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾[1].

٤ ـ أثرها الاجتماعي

يقول سيد سابق ـ رحمه الله ـ : (إذا كانت الصلاة تكسب المرء سكينة النفس، وتطبعه بطابع خلقي جميل، فإن هذه الصفات تجعل المقيم لها رضي النفس، حسن الخلق، عضواً نافعاً في المجتمع الذي يعيش فيه، وتخلق منه خلية حية تعمل وتنتج ويعم خيرها الناس. ثم إن الإسلام حبب في صلاة الجماعة، وأوجب صلاة الجمعة كل أسبوع. واجتماع أهل الحي في اليوم خمس مرات مع اجتماعهم يوم الجمعة اجتماعاً أوسع فهذا ـ يقوي الروابط الاجتماعية، ويشد أواصر الصلات بين الجماعة، ويشعر كل واحد بأنه أخ لكل من في المسجد، وأنه مساوٍ له، فتنمو روح المساواة الحقيقية، لا فرق بين غني وفقير، ولا بين عظيم وحقير، فكلهم عباد الله، أجتمعوا في بيته تظللهم ظلال المحبة والأخوة في الله. وبهذه الممارسة العملية للمساواة، تنتفي فوارق اللون، وفوارق الثراء، وفوارق الدم، فيشعر الفرد شعوراً حقيقياً بأنه من الجماعة، وتشعر الجماعة بأنها منه، وهذه الغاية هي أسمى الغايات، التي يجهد العلماء والحكماء، والمربون، والفلاسفة أنفسهم في تحقيقها ليعم البشرية الأمن والسلام، ويلاحظ أن هذه الحكم لا يمكن أن تتحقق إلّا إذا أقبل المصلي على صلاته بوعي كامل ـ ويقظة تامة ـ وتأمل حقيقي في أقوال الصلاة، وأفعالها، وهذا هو المعبر عنه بالخشوع في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾[2]، فإذا تجردت الصلاة من هذا الوعي كانت قليلة الثمرة بل عديمة الجدوى)[3] وبالجملة فإن الصلاة إذا كانت بهذه الفضيلة

---

(١) الأعلى: (١٤، ١٥).

(٢) المؤمنون: (١، ٢).

(٣) إسلامنا: ص ١١٨ ـ ١١٩.

والمكانة الرفيعة لما لها من الآثار العظيمة التي ذكرناها فإنها تعد من أعظم ينابيع سعادة الدارين.

٥ ـ أثرها في قضاء الحوائج

إن الصلاة التي يعبد بها المسلم ربه ويتقرب بها إليه ليست محصورة على الصلاة المفروضة فحسب، إنما هناك صلاة محببة يحبها الله تبارك وتعالى وهي صلاة التطوع والتي منها الوتر، وقيام الليل، وقضاء الحاجة والتراويح، والتهجد في رمضان، وغيرها لأن العبادة مراتب فالذي يريد أن يرقى بنفسه إلى مرتبة أعلى، فذلك خير وتلك مرتبة العباد السالكين وكلما زاد الإنسان من طاعته لله رب العالمين زاد تقرباً إلى الله وتقرب الله منه، لأنه أصبح ينافس الملائكة بتلك الطاعات، هنالك تجد أن كل حوائجه تنقضي وهمومه تنجلي، بل إنه إذا احتار في أمرٍ من أمور الدنيا كالإقدام على مشروع يفكر في أنه سيدر عليه أرباح أو سينتج عنه خسارة أو سفر إلى مكان معين وغير ذلك حثه النبي ﷺ على أن يصلي صلاة الاستخارة فإنه إذا فعل ذلك وجد الخيرة بعد تلك الصلاة خاصة إذا أقبل إليها بقلب خاشع وعين دامعة، ثم إن استخارة الله في قضاء الحاجة تعد من السعادة وإن عدم الاستخارة تعد من الشقاء كما جاء في الحديث الشريف: «**من سعادة ابن آدم استخارته الله، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله عز وجل**»[١] أما عن كيفية صلاة الاستخارة فإنها ركعتين يصليها ثم يدعو فيها بدعاء بعد القيام من الركعة الثانية فهي شبيهة بصلاة الصبح.

⇦ ثانياً: الزكاة وأثرها في إدخال السعادة على الفرد والمجتمع:

الزكاة فريضة من فرائض الإسلام بل ركن من أركانه، ثم أنها تعد من أهم ينابيع السعادة بعد الصلاة على الفرد والمجتمع وقد سميت الزكاة

---

(١) رواه الترمذي: ٤٥٥/٢ برقم (٢١٥١) عن سعد بن أبي وقاص وقال الترمذي غريب، ورواه أحمد في مسنده: ١٦٨/١ برقم (١٤٤٤).

بهذا الاسم: (لأنها تطهير لنفس الغني من الشح والبخل، وتطهير لنفس الفقير من البغض، والحسد لأخيه الغني، وتطهير للمال بأداء حق الله عز وجل فيه، وتطهير للمجتمع من جرائم السرقة والاغتصاب والقتل وغير ذلك مما يكون نتيجة لعدم تآلف طبقات المجتمع واستئثار الغني بالمال دون أخيه المحتاج كما يحدث في البلاد الكافرة)[1] هذه هي الحكم التي شرعت من أجلها الزكاة، ومن أجل ذلك سنقصر الحديث على بعض آثار هذه الحكم التي تنعكس على الغني حين يزكي وعلى الفقير حين تصله تلك الزكاة، وعلى المجتمع حين تسوده فضائل الزكاة.

١ ـ أثرها في إدخال السعادة على الغني

يقول السيد سابق ـ رحمه الله ـ :

(إن الزكاة عطاء وبذل، ومواساة، ومعاونة النفس بطبيعتها تهتز للكرم وتفرح بالجود، وتجد الراحة والاطمئنان في مواساة الغير، وإدخال السرور عليه، وهذا هو السبب في أن بعض الناس يقومون بمساعدة المحتاجين، ومعاونة المعوزين، دون رغبة في ثواب، أو رهبة من عقاب)[2].

قلت: لكن الأغنياء ليسوا بدرجة واحدة من الكرم والعطاء وهذه سنة الله في خلقه. فصاحب الإيمان والتقوى يجد الخوف يملأ قلبه، والشفقة والرحمة تسود كيانه ووجدانه لأنه يعلم أن المال مال الله، وأن هذه الزكاة مطهرة له وتزكية له، ومنمية لماله فكيف يبخل؟ وهو يعلم أن الله تعالى يقول: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[4]. ثم أنه يعلم ماذا قال الله تبارك وتعالى في شأن من يكنزونها

---

(١) طريق السعادة: ص ١٨٩.
(٢) إسلامنا: ص ١٢٠.
(٣) التوبة: (١٠٣).
(٤) البقرة: (٢٦١).

ويحرمون الفقراء المحتاجين وما ذلك إلَّا لبخلهم غافلين عن أن المانح لهم هو الله ليس بذكائهم ولا عبقريتهم فقد قال بشأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ۝٣٥﴾[1]. لقد كانوا يظنون أنهم سعداء بما كانوا يكنزون، ولكن الحقيقة عكس ذلك ثم أنهم حرموا أنفسهم سعادة الآخرة، وأبدلهم الله ذلك العذاب. ومن أجل هذا كله تجد المؤمن الغني الذي يخاف الله روحه ونفسه متلهفة للمسارعة لفعل الخير، ونفسه راضية ومطمئنة لأنه يشعر في أعماق نفسه أنه سعيد عندما يرى أنه يفرج كربة المكروبين والمحتاجين ومعالجة المريض، ودعم طالب علم، وكفالة اليتيم، كل هذه الأعمال وغيرها تدخل على نفسه السرور والسعادة. ثم يحس بأن ما يفعله استجابة لأمر الله تعالى وأمر نبيه ﷺ القائل: «**من نفس عن مؤمنٍ كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...**»[2] إنها لمشاعر عظيمة تهيج العواطف في قلب كل مسلم غني في أن يبذل ويضحي وعليه فإني أقول لمن غمر قلبه الطمع خوفاً على المال أن يتدرب على مخالفة هوى نفسه وما جبلت عليه من الشح، والبخل وأن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب فيدخل في نفسه الشفقة والرحمة، ويعلم أن هذا المال زائل وأنه سيفارقه ولن ينفعه ذلك اليوم إلَّا عمله الصالح قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨﴾[3]، ثم أن الشريعة قد حددت مقادير للزكاة يخرجها رغماً عن أنفه قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ

---

(١) التوبة: (٣٤، ٣٥).

(٢) سبق تخريجه في مبحث (الفضائل المكملة للسعادة الخارجية)، (المال) ص ١٧١ من هذا البحث.

(٣) الشعراء: (٨٨، ٨٩).

حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[2]، إن التدريب على إخراج الزكاة تحرير للعبد من عبودية النفس التي جبلت على حب المال لأنه إذا ترك للنفس عنانها وهواها استعبدته وكان من الأشقياء في الدنيا والآخرة وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ بقوله: **«تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم»**[3].

٢ ـ أثرها في إدخال السعادة على الفقير

كما هو معروف بأن كل إنسان قبل قدوم العيد يستعد كل حسب إمكانيته المالية ليستقبل العيد ـ سواء كان عيد الفطر أو عيد الأضحى ـ بمظهر لائق جميل في الملبس له ولأفراد أسرته، إضافة إلى (الصرفة) الزائدة التي سيخرجها لتناول الطعام المتنوع والمشروبات الشهية، والألعاب التي يسر بها الأطفال، والنزهات الترويحية وغير ذلك فنجده ينفق لأيام العيد أكثر مما ينفقه في بقية الأيام، ذلك هو الصنف الميسور الحال سواء كان من أهل الغنى أو من له قدرة على ذلك. وبالمقابل فإن هناك صنف آخر وهو: من ضاقت به اليد، ولازمه الفقر، لا يستطيع أن يستعد لاستقبال العيد ويشترك مع هؤلاء في المسرة، والأفراح، فما هو الحل لهؤلاء؟ لقد تكفلت عناية الإسلام بهذا الصنف حيث أوجب الله سبحانه وتعالى هذا اللون من الزكاة تأخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم بل أوجبها على كل من يجدون فضلاً عن قوتهم وقوت عيالهم ليلة العيد ويومه عند أكثر الفقهاء، وأمر بصرفها إلى ذوي الحاجة والفاقة ليحسوا بمعاني الإخاء ويشاركوا غيرهم فيما هم فيه من مسرةٍ وفرح[4].

يقول السيد سابق: (وكما أن المعطي يهتز للجود والندى، فإن الآخذ

---

(١) المعارج الآية (٢٤، ٢٥).

(٢) النور: (٣٣).

(٣) سبق تخريجه: ص١٧٢ من هذا البحث.

(٤) العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية: ص ٨٢.

لا يقل عنه فرحاً واغتباطاً)[1] قلت: فالزكاة بالإضافة إلى أنها تدخل السرور على الفقير فإنها في نفس الوقت تعد نماء لشخصية الغني ومن ثم نماء لشخصية الفقير لأنه بذلك يحس أنه ليس ضائعاً في مجتمعه بل يجد من يدرك واقعه ويحس بحاجته فهو بهذا أحس أن المجتمع قد أدركه وأنصفه وأنقذه وبهذا يكون المجتمع الإسلامي مجتمع أمثل عن طريق الصدقة ومنها الزكاة التي عمل بها على إقالة عثرة الفقير، وتحمل عنه أعباءه، وأثقاله، ومد له يد العون بكل ما يستطيع، عند ذلك يشعر الإنسان الفقير بكرامة نفسه، وعزة ذاته ثم إن أمر مساعدة الفقراء والمحتاجين من المسلمين ليس محصوراً على الزكاة فقط بل يدخل في عموم ما يجلب السعادة ويزيل الهم والكدر: فعل الإحسان من الصدقة، والبر والخير للناس، فإن هذا من أحسن ما يوسع به الصدر. ويسعد المعطي، والفقير قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[2]، وقال أيضاً: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[3]، إن الصدقة التي يخرجها الغني أو الميسور لها شأن عظيم إذ هي بمثابة قرضة يقرضها لله سبحانه وتعالى.

٣ ـ أثرها في إدخال السعادة على المجتمع

إن للزكاة أثر كبير في إدخال السعادة على المجتمع بكل شرائحه الأغنياء، والفقراء، فالاغنياء يفرحون حين يرون أثر الزكاة والصدقات التي يقدمونها بأنها أدخلت السرور والفرح على الفقير واليتيم والأرملة، والصغير والكبير أصحاب ذوي الحاجة وكذلك هؤلاء فإنهم يسرون ويفرحون بذلك ويشعرون بأن لهم مكانة وكرامة، ثم إنهم عندما يرون أنه أصبح يصلهم ما يكفيهم، أصبحوا أعضاء نافعين، ومواطنين صالحين فقد

---

(١) إسلامنا: ص١٢٠.

(٢) البقرة: (٢٥٤).

(٣) التغابن: (١٧).

يكون فيهم من هو أوفر ذكاء، وأقدر على النهوض بالأعمال الجسام، إذا وجد ما يقوم به حاجته الضرورية من الطعام، والملبس والمأوى[1] ويتساءل الباحث قائلاً: إذا لم يصل هذه الشريحة الفقيرة من المجتمع حقها المفروض من الزكاة ما الذي سينتج عن ذلك؟ يقول السيد سابق - رحمه الله - : (إذا لم يجد الفقراء والضعفاء الكفاية مما هو ضروري، وتعرضوا للجوع حملهم ذلك على الإتيان بكل ضرب من ضروب الشر، للحصول على الضروري من القوت، فإن البطون إذا جاعت دفعت أصحابها إلى الجرائم، وارتكاب كل موبقة واعتبرت ذلك عملاً مشروعاً وبالإضافة إلى ذلك، فإن الجماعة التي ينتشر فيها الفقر، وينشب أنيابه فيها يشتعل فيها العداوة، والبغضاء، فيهتز كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع، وتتعرض لرواج المذاهب المتطرفة، ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلا بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذي فرضه الله وجعله أمانة في يد الأغنياء. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[2]، ثم إن الزكاة تقوي الصلة بين الأغنياء، والفقراء، وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير، وتنمية المال وتقوية الأواصر، وهي الضمان الاجتماعي الذي يكفل التوازن بين الطبقات، ويضمن اشتراكية سليمة، وهي أفضل وسيلة لتوزيع المال، فهي في الوقت الذي لا يطيق بها الغني، ترفع مستوى الفقير إلى حد الكفاية، وتجنبه شظف العيش، وألم الحرمان)[3] ويقول الدكتور/ نظام الدين عبد الحميد: (فالمزكي عندما يخرج زكاة أمواله ويوجهها إلى مصارفها يكون قد ساهم بالفعل لتسود المجتمع هذه الفضائل، أما إذا تخلف، وبخل فإن الأمر يسير باتجاه عكسي في المجتمع، إذ يحل العداء محل الصداقة، والكراهة محل المحبة، والتقاطع محل التعاون، لأن أصحاب الحاجة من الفقراء عندما

---

(١) ينظر: إسلامنا: ص ١٢١.

(٢) الحديد: (٧).

(٣) إسلامنا: ص ١٢٢.

يرون شح الأغنياء وامتناعهم عن صرف ما أوجبه الله لهم من الحق في أموالهم، تدب كراهة هؤلاء إلى قلوبهم ويرجون لهم كل شر ومكروه، فإذا ما تقلبت الأيام وتغيرت الأوضاع، واحتاج هؤلاء إلى أولئك لم يجدوا منهم أي تعاطف أو عون)[1] هذه بعض أحكام الزكاة وأسرارها ثم أن لها حكم آخر وفوائد كثيرة وثمار طيبة تعود على الفرد والمجتمع[2].

⇦ ثالثاً: الصيام

يعتبر الصيام من ينابيع السعادة في الدنيا والآخرة، وهو أحد أركان الإسلام وقد تعجب كيف يكون الصيام من أسباب السعادة مع أنه ترك الطعام والشراب والشهوات؟ والسر في ذلك هو ما ذكرنا سابقاً من السعادة الحقة هي السعادة الروحية التي تعد أشرف السعادات. إذ أن الصيام يعد من ينابيعها وقد فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على من تقدمها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[3]، ثم إن الصيام ما شرع إلا لحكم كثيرة وعظيمة سنقصر الحديث على بعض آثار هذه الحكم التي تنعكس على نفسية الفرد، وأخلاقه والمجتمع، فيشعرون بالسعادة، وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

١ ـ أثره على نفس الصائم

إن للصيام أثر عظيم على نفس صاحبه، فإنه ـ يعتبر ـ مطهر للنفس من الذنوب والخطايا التي ارتكبها طوال عام مضى، فكما أن الصلوات الخمس كفارة لما بينها فإن شهر رمضان كفارة أيضاً لذنوب عام بأكمله

---

(١) العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية: ص ٨٠.

(٢) للاستزادة ينظر: التكافل الاجتماعي في الإسلام ـ الإمام محمد أبو زهرة: ص ٧٧ ـ ٩١، دار الفكر العربي ـ القاهرة، ط: (ب: ت) والتكافل الاجتماعي في الإسلام ودوره في حماية المال العام والخاص، تأليف د/ محمد بن أحمد الصالح: ص ٦٩ ـ ٩٣، إدارة الثقافة والنشر ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ الرياض، ط: (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

(٣) البقرة: (١٨٣).

جعله الله فرصة للتوبة بل إن شهر رمضان ميزه الله عن سائر الشهور، فهو شهر التوبة، والمغفرة، والعتق من النيران، لهذا تجد كل مسلم عرف قيمة هذا الشهر ومكانته يستقبل هذا الشهر استقبالاً حاراً من أعماق نفسه ويهيم وجدانه في مكرماته ثم تجده يترك شهواته. وأحب الأشياء إليه ـ مع قدرته عليها ـ امتثالاً لأمر الله، ومسارعة إلى مرضاته، وهذا من شأنه أن يورث خشية الله، وينمي ملكة المراقبة، ويوقظ الضمير، ثم إن الصيام يقوي الإرادة، ويعودها الصبر والاحتمال، فيستطيع الإنسان مواجهة الحياة، ومكافحتها بشجاعة، فلا تثنيه صعابها ولا تتغلب عليه أحداثها، وبقدر ما تقوى الإرادة، يضعف سلطان العادة(١).

٢ ـ أثره على الأخلاق

إن للصيام أثراً عظيماً أيضاً على أخلاق المسلم فهو مهذب للسلوك الإنساني ورادعٌ لهوى النفوس فالشخص المؤمن مثلاً الذي ينتظر قدوم هذا الشهر بشوقٍ ولهفةٍ ليلتمس فيه التوبة والمغفرة من الله تجده في رمضان غير الشخص الذي كان قبل قدوم رمضان تجده يتسم بسمات عظيمة، لسانه رطب بذكر الله، قلبه خاشعٌ، عيناه دامعة، بصره يكفه عن النظر إلى الحرام، استبدل الغرور بالتواضع، والغضب والتبرم بالابتسامة اللطيفة، والكلام الخشن باللين سواء داخل البيت أو خارجه، وغير ذلك هو المؤمن المخلص الصادق الذي يلتمس عفو ربه ومغفرته. قال الإمام الغزالي: عن صوم الصالحين: إنه كبت الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور: **الأول**: غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، **والثاني**: حفظ اللسان عن الهذيان، والكذب، والغيبة، والنميمة، والفحش، والجفاء، والخصومة، والمراء **والثالث**: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه، **الرابع**: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد، والرجل وعن المكاره. وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار. **والخامس**: أن لا يكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث

(١) إسلامنا: ص ١٢٣.

يمتلئ جوفه، فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ بالحلال.

والسادس: أن يكون قلبه بعد الإفطار متردداً بين الخوف، والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أم يرد عليه فهو من الممقوتين(١).

قلت: ثم إن هذه المجاهدة للنفس في شهر رمضان لم تأت من فراغ إنما وردت أدلة كثيرة تحث كل مسلم أن يتأهب ويستعد لصيام هذا الشهر الكريم بكل إخلاص قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾(٢). ثم أن الله سبحانه وتعالى وعد الصائمين بالمغفرة والأجر العظيم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾(٣). هذا بعض ما ورد عن الصيام في القرآن الكريم. أما السنة النبوية فقد وردت أحاديث كثيرة مرغبة ومحببة لصيام شهر رمضان المبارك والمثابرة على زيادة العبادة فيه، وفعل الخيرات وترك المنكرات ومنها ما جاء محذراً ومنذراً لكل من تهاون بهذا الشهر ولم يؤد حقه من ذلك قوله ﷺ: حاكياً عن ربه: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي، وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة(٤) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث(٥) يومئذٍ، ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤٌ صائم والذي نفس محمد**

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين: ١/٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) البقرة: (١٨٥).

(٣) الأحزاب: (٣٥).

(٤) جُنَّة: وقاية من النار: أي وقاية وحفظ من المعاصي لكسره الشهوة.

(٥) يرفث: يتكلم بكلام قبيح.

بيده لخلوف[1] فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك، وإذا لقي ربه فرح بصومه»[2] وقد نصح النبي ﷺ الشباب الذين هم مظنة غلبة الشهوة الذين لا يجدون مؤن الزواج بالصيام. فقال: «**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء**»[3] يعني وقاية من شرور النفس وشهواتها، نستفيد من هذا الحديث أن الصيام له أثر عظيم في كسر الشهوة، وتطويع النفس لرب الأرض والسماوات، وقال ﷺ عن من صام شهر رمضان بإيمان صادق واحتساب ذلك الصوم لله رب العالمين: «**من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»[4] هذا بعض ما جاء في السنة النبوية عن رمضان والأحاديث كثيرة فنكتفي بهذا القدر والله ولي الهداية والتوفيق.

٣ ـ أثره على المجتمع

إن للصيام أثراً عظيماً أيضاً على المجتمع كما له أثر على الفرد، فإذا كان هذا الفرد الذي هو عضو من أسرة قد أصبح يتمتع بهذا السلوك القويم والأخلاق الرفيعة في شهر رمضان المبارك فإنه مما لا شك فيه سيؤثر على أفراد أسرته خاصة إذا كان له سلطان عليهم، كالأب، أو الأخ الأكبر الذي له نفوذه، أو فرد مؤثر لصلاحه وتقواه. وهكذا تتسع دائرة هذا السلوك في رمضان حتى تسود معظم شرائح المجتمع ثم يعود الفضل بعد الله تعالى للدعاة العاملين في ميدان الدعوة والصالحين من أهل النفوذ فإذا ساد المجتمع ذلك السلوك القويم في هذا الشهر الكريم تجد كل فرد

---

(١) الخلوف: تغير رائحة الفم.

(٢) رواه البخاري باب (اللباس): ٦٧٣/٢، رقم (١٨٠٥)، ومسلم باب (الصيام): ٨٠٦/٢، رقم (١١٥٠).

(٣) رواه البخاري باب (النكاح): ١٩٥٠/٥، رقم (٤٧٧٨)، ومسلم باب (النكاح): ١٠١٨/٢، رقم (١٤٠٠).

(٤) رواه البخاري فضل ليلة القدر: ١٢/١، رقم (٨٨)، ومسلم: ٥٣٢/١، رقم (٧٦٠).

ينظر إلى أخيه المسلم بعين الشفقة، والرحمة، ويعرف كل واحد معاني أخوة الإيمان يقول السيد سابق: (والصيام فيه معنى المساواة بين الأغنياء، والفقراء في الحرمان، وترك التمتع بالشهوات، وهذا من شأنه أن يرفع من نفس الفقير إذ يجد الغني مثله في القيام بهذه الفريضة، كما أنه يفجر ينابيع الرحمة، والعطف في قلوب الأغنياء، ويبعثهم على مواساة الذين ضاقت بهم سبل العيش، فتتآلف القلوب، وتذهب الأحقاد، ويتعاون الفقراء، والأغنياء على النهوض بالمجتمع، وتوفير الطمأنينة له)[١] ويقول الدكتور/ نظام الدين عبد الحميد: (الصوم يوثق العلاقات بين قلوب الصائمين ويشيع فيهم المحبة، والاخاء، وروح التعاون، لأن الصائم يرتاح نفسياً إلى من هو في مثل حاله وينجذب إليه بالعطف، والمودة لاتحاد غايتهما ووحدة هدفهما وابتغائهما غفران الله ورضوانه)[٢] ثم قال مؤكداً عن آثار ذلك العطف والألفة قائلاً: (وآثار هذا العطف وهذه المودة واضحة جلية في ليالي شهر رمضان حيث يقصد الصائمون المساجد في هذه الليالي أكثر مما يقصدونها في ليالي بقية أشهر السنة وذلك لأداء صلاة العشاء وصلاة التراويح جماعة كل في المسجد الذي في منطقته...)[٣] قلت: فعندما يسود المجتمع هذه السلوكيات الفاضلة بين جميع شرائحه، تقل الجرائم بجميع أنواعها والظلم والتعدي على حقوق الآخرين فيسود الأمن. ثم إن للصيام فوائد صحية للجسم[٤] والحديث طويل ولذيذ عن شهر رمضان وهذا ليس مجال بحثنا.

رابعاً: الحج

يعتبر الحج فريضة أيضاً من فرائض الإسلام وركن من أركانه ثم إن الله سبحانه وتعالى ما شرعه إلَّا لحكم عظيمة، منها إنه يكفر ذنوب

(١) إسلامنا: ص ١٢٤.

(٢) العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية: ص ٩٠.

(٣) العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية: ص ٩٠.

(٤) المرجع نفسه: ص ٩١.

العبد وخطاياه التي اكتسبها مدة عمره التي قضاها، وما ذلك إلَّا رحمة من الله بعباده لأنه يعرف بأنهم يذنبون ويعصون فجعل الصلوات الخمس مكفرات لما بينها، وجعل رمضان مكفر لذنوب الشهور التي سبقته. أما الحج فقد كانت حكمته أكبر من ذلك كما ذكرت وكما أن الصلاة والزكاة والصيام ينابيع للسعادة رأينا ذلك من خلال آثار حكمها التي انعكست على نفس الفرد وأخلاقه والمجتمع أيضاً كذلك الحج فإنه من ينابيع السعادة أيضاً لما له من آثار عظيمة كما سنبين ذلك فيما يأتي:

١ ـ أثره على النفس

إن كل نفس مؤمنة تتوق إلى مراقي العلا، ولما كان الحج مرتبة أعلى المراتب لتكفير الذنوب فإن كل النفوس المؤمنة تتوق إليه، بصفته كذلك وبصفته ركن من أركان الإسلام ولكونه شعيرة تاريخية ذات جذور سابقة سنها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام الذي أذن للناس بالحج قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[١]، وعليه فإنه استجابة لأمر الله عز وجل وتلبية لنداء أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ولما كان كذلك فإن شعائره، تثير في النفس ذكريات عذاباً، إذ أنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين... لذلك لا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول، وتحن إليه، وتقيم لذلك معالم الهداية، أو تستخدمها حافزاً، يرقى بحاضرها، وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى[٢] ولما كانت فريضة الحج بهذه المكانة وبهذه المنزلة العظيمة عند رب العالمين وعند أنبيائه، تعلقت النفوس المؤمنة بحبه والشوق إليه سواء كانت تلك النفوس نفوس أغنياء مقتدرين أم نفوس فقراء غير مقتدرين ذكر أم أنثى ولما كان الأمر كذلك فقد تجلت رحمة الله بعباده الفقراء الذين ليس لهم قدرة على مؤنة تكاليفه بالاستثناء لمن استطاع إليه سبيلًا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ

---

(١) الحج: (٢٧).

(٢) ينظر: إسلامنا: ص ١٢٥.

﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[1]، وقال النبي ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً**»[2] لقد كان هذا الاستثناء مراعاة لنفوس المساكين وهذا من رحمة الإسلام: فالمؤمن الذي يوفق لأداء هذه العبادة الكريمة يستحضر توفيق الله عز وجل له بالإحرام بها، وتسهيل سبيلها فما أسعده حين يصل إلى بيت الله الحرام قاصداً ببدنه البيت وبقلبه رب البيت، وهو يقول مع من حضر من إخوانه المؤمنين من كل حدب: (لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك) إنها لحظات من السعادة تعجز عنها الكلمات وإنما تستشعر قلوب المؤمنين والمؤمنات الذين ذاقوا حلاوتها وسعدت قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم بها، وما أسعد من وفق لأداء هذه الفريضة حين يزور المسجد النبوي الشريف بعد أداء مشاعر الحج، فيزور قبر النبي ﷺ ويسلم على من بجواره من الصحابة الكرام، ويصلي في الروضة الشريفة ما شاء الله له أن يصلي. فقد قال الرسول ﷺ: «**ما بين المنبر وبيت عائشة روضة من رياض الجنة**»[3] قال ابن حجر: (أي كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول السعادة بما يحصل من ملازمة حلق الذكر لا سيما في عهده ﷺ فيكون تشبيهاً بغير أداة، أو المعنى أن العبادة فيها تؤدي إلى الجنة فيكون مجازاً)[4] ثم ما أسعد نفس ذلك المؤمن الذي وفق حين يعود إلى دياره طاهر من ذنوبه وسيئاته كيوم ولدته أمه وهذا ما

---

(1) آل عمران: (97).

(2) رواه البخاري في باب (الإيمان): 1/12، رقم (8)، ومسلم في باب (الإيمان): 1/45، رقم (16).

(3) أخرجه الطبراني في الأوسط. قاله ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) ج4/100، تحقيق عبدالعزيز بن باز، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية - بيروت، ط1 (1410هـ - 1989م).

(4) المصدر نفسه: 4/100.

أخبرنا به النبي ﷺ: «**من حج لله فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه**»[1] إن هذا ليملأ النفس فرحاً وسروراً.

٢ ـ أثره على أخلاق الفرد

يقول السيد سابق: (والحج نوع من السلوك أو لون من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى، والاندماج في حياة روحية خالصة، تمتلئ فيها القلوب بحب الله، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية عليه، بينما يرتدي المرء ملابس الإحرام، وهي ملابس خالية من الزينة، ومن كل ما يثير العجب والخيلاء يقول الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ﴾[2]، تشير هذه الآية إلى أن المرء حينما يدخل في أعمال الحج يجب عليه أن يعيش في جو من العفاف والأدب، فلا يتدنى إلى رفث، ولا يميل إلى فسوق ولا ينطق بكلمة طائشة، أو ينظر نظرة فاحشة كما تشير أيضاً إلى فعل الخير، وهو عمل إيجابي يجعل بكل مؤمن أن يهتم به، ويحرص عليه)[3].

٣ ـ أثره على المجتمع

إن للحج ثماراً يانعة، ومتعددة، تجلب السعادة في نفوس من قدموا لاداء تلك العبادة ومن لم يقدموا كيف ذلك؟ أما كيف ذلك فمن وجوه عدة نذكر أهمها فيما يأتي:

أ ـ إن الحج رحلة سياحية لتجمّع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التي تعود عليهم بالخير، والبركات، سواء أكانت منافع روحية، أم منافع اقتصادية، أم منافع سياسية[4].

---

(١) رواه البخاري، كتاب (الحج): ٢/٥٥٣، رقم (١٤٤٩)، ومسلم باب (الحج): ٢/٩٨٣، رقم (١٣٥٠)، وبلفظ: «**من أتى هذا البيت ولم يرفث..**». الحديث.

(٢) البقرة: (١٩٧).

(٣) إسلامنا: ص ١٢٧.

(٤) ينظر: طريق السعادة: ص ٢١١.

ب - إن فريضة الحج تعد مؤتمر عالمي للأمة الإسلامية فيحضر فيه زعماؤها وأغنياؤها وفقراؤها الذين وقفوا هنالك يجتمعون في صعيدٍ واحد لباسهم واحد ونداؤهم واحد يدعون رباً واحداً، تجمعهم أخوة الإسلام، وتلتقي قلوبهم على طاعة ربهم والتضرع إليه، وتتحقق بينهم المساواة، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود إلَّا بالتقوى، إنها وحدة في المشاعر، ووحدة في الشعائر ووحدة في الهدف وبذلك تزول من النفوس صفاتها الذميمة، وتتخلى عن أمراض الحقد، والأنانية، والتكبر.[(١)]...

جـ - إنه من خلال حضور بعض زعماء المسلمين هذا المؤتمر يزداد التعارف فيما بينهم وتزداد الألفة، والمحبة، ويحصل التعاون في كثير من أمور الخير التي تعود على أمة الإسلام بالنفع فيمكن عقد معاهدات واتفاقات في موسم الحج، وحل قضايا الخلافات السياسية التي بينهم، ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادي، والثقافي،، مما يحتاج إليه كل بلد. فهذا مما يسعدهم ويسعد من لم يحضر أداء هذه العبادة خاصةً حين يسمعون بتلك الأخبار المفرحة[(٢)].

د - إن لهذا التجمع أثراً عظيماً في نفوس أعدائهم فإنهم بذلك يقوون شوكتهم فلا يستهين بهم أعداؤهم خاصة إذا أقبلوا إلى الله بقلوب منكسرة يملؤها الإيمان وعين دامعة، متذللين بين يدي الله على ما بدر منهم من الذنوب والخطايا هذه هي بعض الثمار اليانعة للحج وأسراره. وبهذا نكون قد انتهينا من الحديث عن علاج منغصات السعادة في هذا المبحث من هذا الفصل السادس والأخير. وإن كنت قد أسهبت فيه كثيراً، فما دفعني لذلك إلَّا طول الموضوع وكثرة تشعبه فرأيت أن أعطي الموضوع حقه ومستحقه ولما لهذه

---

(١) ينظر: إسلامنا: ص ١٢٧.

(٢) ينظر: المرجع نفسه: ص ٢٧.

الأمور ـ علاج منغصات السعادة ـ من أهمية عظيمة تعود بالنفع على صاحبها في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فقد رأينا ثمارها اليانعة، وأما في الآخرة فإنها من أهم الينابيع الهامة للظفر بسعادة الآخرة كذلك تلك الفضائل المكملة لتحقيق السعادة التي ذكرتها سابقاً في فصل مستقل فانها موصلة لسعادة الآخرة إذا استخدمت وفق ضوابط الشرع الإسلامي وقواعده.

ولما كان الأمر كذلك فما هي سعادة الآخرة إذاً؟ إن السعادة الأخروية هي السعادة المنشودة التي ينشدها كل مؤمن يتقي الله ويخاف عقابه، لأن من يتقي الله لا يرى سعادات الدنيا تساوي شيء بالنسبة للسعادات الأخروية، وهذه حقيقة، فإن الله سبحانه وتعالى أعد لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى سعادة عظمى في الآخرة فيها من اللذائذ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فما على كل مؤمنٍ إلَّا أن يعتقد بذلك اعتقاداً كاملاً حتى وإن لم يستطع تصور كنهها، لأنه إذا شك في ذلك خاب وخسر وأصبح من الأشقياء والعياذ بالله يقول الراغب الأصفهاني: والسعادات الأخروية ليس لنا تصور كنهها ما دمنا في دار الدنيا، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1]، وكما قال النبي ﷺ عن ربه تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[2]، والسبب عن قصورنا في تصورها شيئان:

أحدهما: أن الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه وإذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى... أكمه توصف له المرأة، هكذا حالنا في اللذة الأخروية فإنا لا نتصورها على الحقيقة إلَّا إذا طالعناها فإذا طالعناها شغلنا الفرح، والتلذذ عن كل ما دونها كما قال

---

(١) السجدة: (١٧).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١٨٥/٣، رقم (٣٠٧٢) ومسلم في صحيحه: ٢١٧٤/٤، رقم (٢٨٢٣).

تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾[1].

وثانيهما: أن لكل قوة من قوى النفس، وجزء من أجزاء البدن لذة تخصصت بها لا يشاركها فيها غيرها، فلذة العين في النظر إلى ما تستحسنه، ولذة السمع في الاستمتاع إلى ما يستطيبه، ولذة اللمس في لمس ما يستلذه، ولذة الوهم في تصور ما يؤمله، ولذة الخيال في تخيل ما يستحسن تصوره، ولذة الفكر في أمر مجهول عندما يتخيله، ولكل واحدة من هذه القوى، والأجزاء، إذا عرض لها آفة تعوقها عن شهوتها وعن إدراك لذتها تكون كالمريض الذي لا يشتهي الماء وكان به ظمأ، وإذا تناوله لم يجد له لذة... وإذا كان كذلك فاللذات الأخروية هي لذات لا تدرك إلَّا بالعقل وعقول أكثر من في هذه الدار مولهة معوقة عن ادراك حقائق اللذات الأخروية فلا تشعر بها كالمريض الذي لا يحس بالجوع، وإن كان جوعه يؤذيه، ولا يشتهي الطعام، وإن كان فقد الطعام يضنيه بل إنما يحس بالجوع إذا زال السبب المؤلم وأيضاً فعقول أكثرنا ناقصة، وجارية مجرى عقول الصبيان الذين لم يبلغوا مبلغ رجال قد عرفوا حقائق الأشياء فكما أن الصبيان ما داموا صغاراً لا يحسون باللذات والآلام التي تعرض للرجال فيتعلمون بالأباطيل، والأضاليل، كذلك من كان في عقله صبياً لم يطلع على الحقائق[2]. قلت نفهم من كلام الراغب بأن الذين شغفوا حباً بهذه الدنيا وغفلوا عن الآخرة وما أعد الله لعباده الصالحين فيها عقولهم كعقول الأطفال ولذلك قال بأن عقول أكثرنا في هذه الدنيا مولهة... بينما الذين سلكوا طريق الهدى بحثاً عن السعادة، الحقة زهدوا عن الدنيا ورغبوا فيها فعرفوا أنها دار فناء ولعب ولهو كما أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾[3]. لذلك تعلقت قلوبهم بها حتى أصبحوا

---

(١) يس: (٥٥).

(٢) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين: ص ٤٤ ـ ٤٥، بتصرف واختصار.

(٣) العنكبوت: (٦٤).

يرونها رأي العين بينما الصنف الثاني ضلوا طرق الهداية وسلكوا طرق الضلال والغواية حتى تاهت عقولهم في ملاذ الدنيا وشهواتها على الرغم أن الله سبحانه وتعالى من رحمته بهم بين لهم ذلك في محكم كتابه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1]. بل لقد زادت عناية الله بهؤلاء إذ كانت عقولهم متحيرة لا تستطيع تصور ما أعد الله لمن اتقاه بوصفه لما أعده لهم بالتشبيه والتمثيل في الدار الآخرة ليقرب ذلك إلى عقولهم يقول الراغب الأصفهاني: ولما أراد الله أن يقرب معرفة تلك اللذات من إفهام الكافة شبهها ومثلها بأنواع ما تدركها حواسهم فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[2]. ليبين للكافة طبيعتها بما عرفوه من طيب المطاعم لذلك قال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ولم يقل: (الجنة) لينبه الخاصة على أن ذلك تصوير، وتمثيل[3] قلت: حقاً ما هو إلا تصوير وتمثيل وكأن الله يقول لهم إذا كنتم تبحثون عن مثل هذه الملاذ فلقد أعددت لمن اتقى أنهاراً من تلك بل وصفها لعباده المؤمنين بأكثر من ذلك في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وعلى الرغم من ذلك فإن الإنسان ليعجز تصور تلك الإعدادات الربانية لعباده المتقين في الجنة يقول الدكتور يوسف القرضاوي: (إن الحياة في هذه الدار هي الحياة الحقة، وإن نعيمها هو النعيم الذي يعجز الخيال البشري عن وصفه إنه ليس نعيماً روحياً خالصاً، ولا نعيماً مادياً صرفاً، إنما هو مزيج من الأمرين ذلك إن الإنسان نفسه ليس روحاً مجردة، ولا مادة بحتة، إنما هو مركب منهما، والإنسان في الآخرة إمتداد لإنسان الدنيا، وإن اختلف الكيف والتفصيل فلا عجب أن يكون في الجنة فاكهةٌ ولحم وطيور وحور عين ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[4]. والنار دار أعدها الله

---

(١) لقمان: (٣٣).

(٢) محمد: (١٥).

(٣) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ص: ٤٦.

(٤) التوبة: (٧٢).

لعقوبة الفجار من الخلق، وهي تجمع العقوبتين المادية والروحية... فهناك العذاب الحسي قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[1] .... وهناك العذاب النفسي الذي يتمثل في الهوان والخزي كقوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[2].. قلت وهذا ما صوره الله سبحانه وتعالى عن كلا الفريقين الاشقياء والسعداء ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾[3]، ثم أن الذين أعرضوا واستهانوا بما أنزل على محمد ﷺ ولم يعملوا بسنته بل كانت حياتهم فجوراً وعصياناً وظلماً وطغياناً يعذبون منذ أن يفارقون هذه الدنيا ويوضعون في قبورهم ثم إن لهم عقاباً آخر يوم القيامة كما سبق بيان ذلك أما عباده المتقين الذين اتبعوا هدى نبيهم وعملوا بالقرآن الذي أنزل إليهم من ربهم فإنهم يسعدون منذ أن يفارقوا هذه الدنيا ويوضعوا في قبورهم فيجدون ما قدموه من أعمال صالحة في الدنيا موافقة لهم في تلك الحفرة أنيسةً لهم فيفرحون ويسرون بها ثم أن للسعداء يوم القيامة مراتب، يقول الإمام ابن تيمية: (وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم (أربع مراتب) فقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[4]. هذه هي مراتب السعداء جعلنا الله منهم).

❊ ❊ ❊

---

(١) النساء: (٥٦).

(٢) المؤمنون: (١٠٨)، والإيمان والحياة: ص ٣٧ ـ ٣٨.

(٣) هود: (١٠٥ ـ ١٠٨).

(٤) النساء: (٦٩)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن محمد بن قاسم: ٢٢١/١١، مكتبة المعارف ـ الرباط، المغرب، ط: (ب: ت).

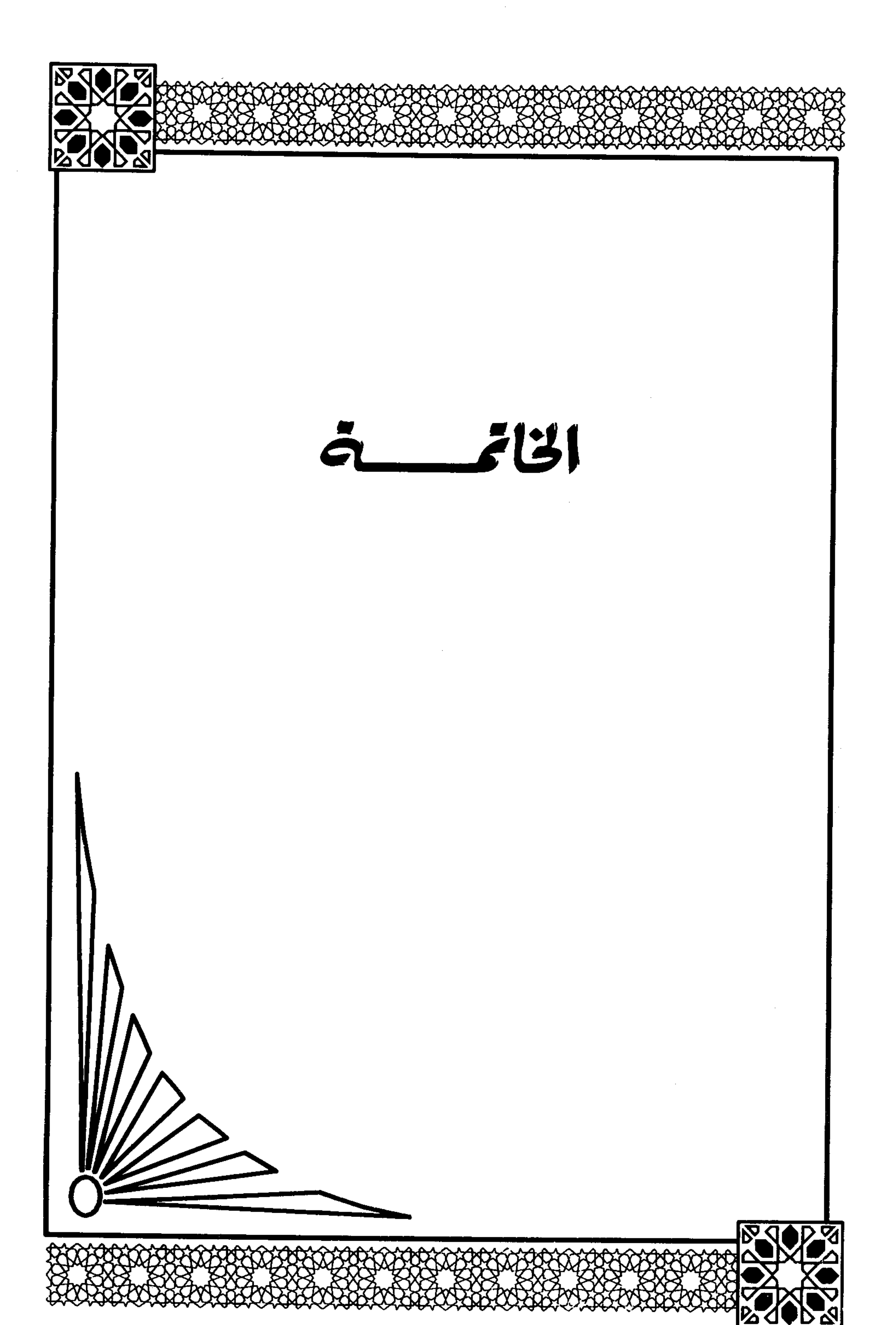

الخاتمة

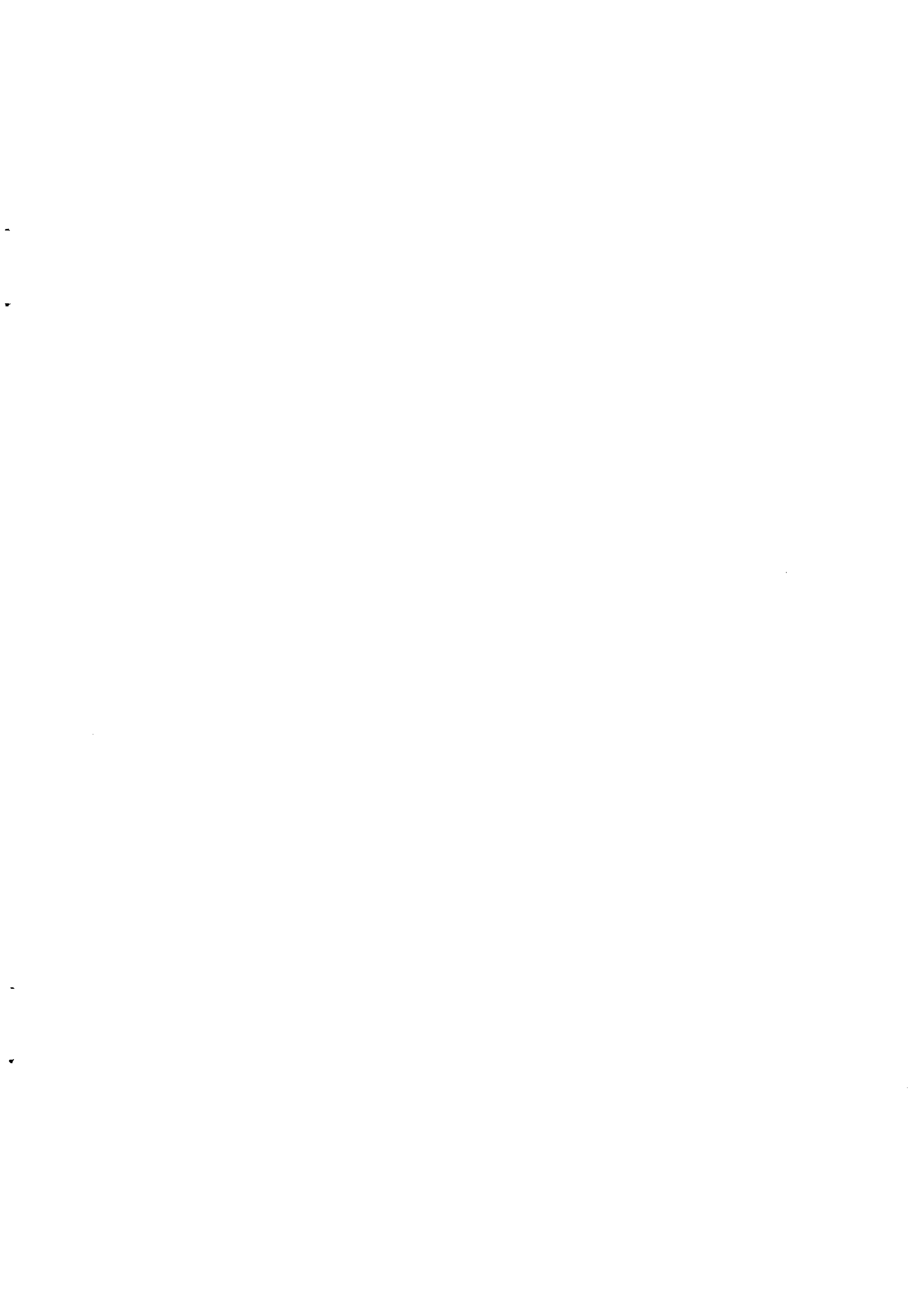

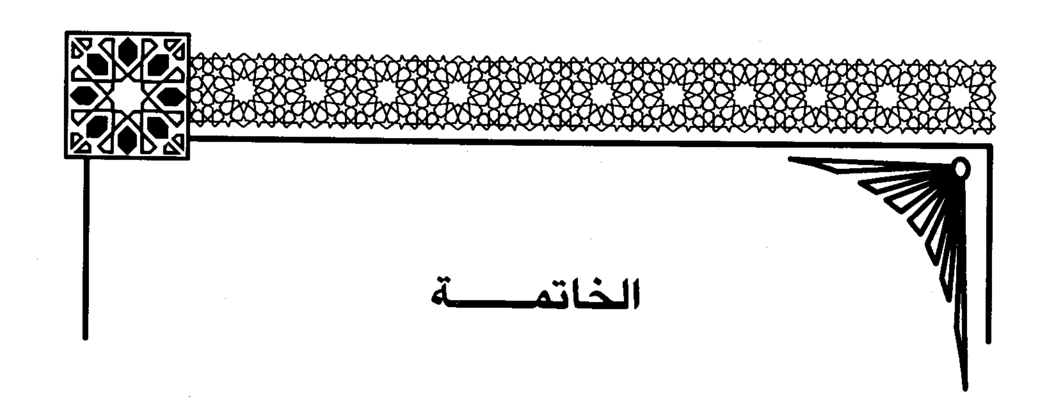

الخاتمـــــة

الحمد لله وأشكره كثيراً إذ هداني لاختيار هذا الموضوع والكتابة عنه فإنه بعد اطلاعي على كثير من المصادر والمراجع وفي مقدمتها الكتاب والسنة، استطعت بعونه تعالى وتوفيقه بعد تتبعي لموضوعات بحثي أن أستخلص منها ما احتوى عليه هذا البحث سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفعني به وينفع به الإسلام والمسلمين. وقد توصلت بعد الانتهاء من كتابته إلى النتائج الآتية:

١ ـ إن السعادة شعور نفسي يتبعه رضا عندما يوفق المرء بين مصالحه الدنيوية والأخروية وفق ضوابط الشرع الحنيف.

٢ ـ إن السعادة تنقسم إلى قسمين دنيوية وأخروية وأن الدنيوية تنقسم إلى سعادة روحية وبدنية وخارجية، وتوفيقية.

٣ ـ إن الباحثين عن السعادة على هذه الدنيا صنفان صنف بحث عن حقيقتها لإسعاد أنفسهم وغيرهم في الدنيا والآخرة وهم الأنبياء، والصحابة، والتابعون، والأولياء، والدعاة، وصنف بحث عن وهميتها فمنهم من حصرها في جانب معين، ومنهم بحث عنها في مجالات شتى وهم الطغاة والجبابرة والعصاة.

٤ ـ إن منغصات السعادة كثيرة جداً وقد ذكرت أبرزها والتي منها: التعليق بغير الله تعالى، وعدم الرضا بالقدر والاستسلام لأمره، والإعراض عن ذكره تعالى، والحزن على ما فات، والحزن على

حاضر، أو مستقبل، والأرق الزائد، والزوجة السوء، ومصاحبة أهل السوء، والحسد المذموم، والكبر، والحقد، والغضب.

٥ ـ إن نسبة من أصبحوا يبحثون عن السعادة الوهمية ركضاً وراء المصالح والمناصب، والملاذ والشهوات الدنيوية تفوق بكثير نسبة من يبحثون عن السعادة الحقة، وما ذلك إلا بسبب الانحراف عن مبادىء الإسلام وتعاليمه في كثير من الأمور من ذلك:

أ ـ عدم تطبيق مبدأ العدالة السماوية ـ الذي جاء به نبي هذه الأمة سيدنا محمد ﷺ ـ من قبل أصحاب السلطة والمحسوبية بين أفراد شعوبهم، يتجلى ذلك في تمادي المسؤولين الظلمة الذين تعيِّنهم الدولة لإدارة مؤسساتها، إن مثل هؤلاء أصبحوا لا يفكرون إلاَّ في مصالحهم وتأسيس مستقبلهم ومن لف لفهم ودار في فلكهم، فلماذا لا يكثر من جراء ذلك من يبحث عن السعادة الوهمية بأي طريق من الطرق؟ في السرقة، في النهب، في الاغتصاب، في الرشوة، وغير ذلك.

ب ـ إن معنى عدم اختيار الرجل المناسب في المكان المناسب تجني الدولة في حق شعوبها لأن تعيين الرجل الأمين المخلص في مؤسسة من مؤسسات الدولة سعادة للأمة لذا يوصي الباحث كل من بيده سلطة إدارية بما في ذلك أجهزة الرقابة والمحاسبة أن يعيدوا النظر في ذلك، ويحاسبوا أنفسهم قبل أن يُحاسبوا بين يدي الله سبحانه وتعالى حين يقف كل واحد منهم في محكمة العدل الإلَهي فيقول رب العالمين لكل مظلوم ظلم تقدم وخذ مظلمتك ممن ظلمك، فالظلم ظلمات يوم القيامة.

جـ ـ توظيف معظم وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة لهدم قيم الأخلاق الفاضلة التي جاء بها الإسلام وذلك ببث ونشر ما يساعد على إفساد جيل المستقبل الذي هو أمل

الأمة، إن مسؤولي الإعلام بهذا الأسلوب يخدمون أعداء الإسلام إنهم لا يسعدون شبابهم وشاباتهم بذلك إنما يجلبون لهم الشقاء بل وعلى أنفسهم في الدنيا والآخرة.

د ـ عدم فصل أموال الزكاة عن الموارد الخاصة بالدولة بحيث تنفق على الفقراء والمساكين. في حين أنهم لو فعلوا ذلك لتحسن المستوى المعيشي للفقراء ـ وسيستطيع الفقير بما يصله من أموال الزكاة إن لم يكن من المسرفين أن يصنع له أي حرفة أو سبب، ولقلة العطالة ـ وسيحس هؤلاء أنهم من كيان المجتمع وسيشعرون بالسعادة.

هـ ـ المغالاة في المهور: إن ظاهرة المغالات في المهور ظاهرة سيئة يذمها الإسلام وينتج عنها من الأمور السيئة والدنيئة ما لا يحمد عقباه، فيكون البديل عن الزواج الشرعي الذي يقصد منه إعفاف النفس عند غير المقتدرين، ومن ضعف إيمانهم الحب، والغرام، والعشق، ومطاردة النساء في الشوارع، وغير ذلك. بل قد تُرتكب الجرائم المحرمة بسبب ذلك وهذا مما يجلب على الشباب والشابات الشقاء في الدنيا بشكل متفشي نسأل الله السلامة والثبات لذا يوصي الباحث ذوي السلطة والمحسوبية الذين حمّلوا أنفسهم ما لا يطيقون أن يراجعوا أنفسهم ويقللوا المهور فإنهم إن فعلوا ذلك أسعدوا الشباب والشابات بل المجتمع بأكمله ثم إن أمر هذه القضية يعود على الآباء أيضاً فعليهم أن يراجعوا ضمائرهم ويتقوا الله في أبنائهم وبناتهم.

٦ ـ إن من أراد السعادة الحقيقية في الدنيا فإنها متمثلة في:

أ ـ الإيمان بجميع أركانه الستة.

ب ـ اتباع سنة النبي ﷺ.

جـ ـ الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، لما لهذه الفروض من

آثار عظيمة في جلب السعادة على الفرد والمجتمع وغيرها من الطاعات التي ذكرت في مواضع متفرقة من البحث.

هذه بعض النتائج الهامة التي حب الباحث أن ينبه إليها ويوصي بها كل إخوانه المسلمين من مسؤولين وغير مسؤولين بعد نفسه أولاً وما ذلك إلاَّ لما لها من أهمية عظيمة تجلب السعادة على الفرد والمجتمع. كما لا ينسى الباحث أن يوصي إخوانه الدعاة إلى الله في شتى ميادين الدعوة في أن يكرسوا جهودهم لدعوة الناس وأخص الشباب والشابات الذين هم أمل الأمة فيدلوهم على الطريق الصحيح في البحث عن السعادة ويحذروهم من سلوك طرق الخسة والرذيلة التي فيها شقاوتهم فإن لهم الأجر الكبير عند الله مهما عانوا في سبيل ذلك من المتاعب.

وسلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

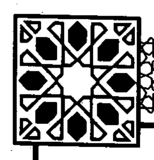

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: ما يأتي:

(أ)

١ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن القيم الجوزية، دار الفكر ـ بيروت، ط: (ب: ت).

٢ ـ إحياء علوم الدين ـ أبي حامد محمد بن محمد الغزالي ـ المتوفى (٥٠٥هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٣ ـ الأدب المفرد ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المتوفى (٢٥٦هـ)، تحقيق/ أحمد القلاش، (١جزء)، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط٣: (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

٤ ـ أدب الدنيا والدين ـ أبي الحسن الماوردي ـ المتوفى (٤٥٠هـ)، تحقيق وتعليق/ مصطفى السقا، المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان، ط٤: (١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م).

٥ ـ الأربعين في أصول الدين ـ الإمام الغزالي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ط٢: (١٩٧٩م).

٦ ـ إسلامنا ـ سيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط: (ب: ت).

٧ ـ أساليب الدعوة والتربية في السنة النبوية ـ د/ زياد محمود العاني ـ شركة الرشيد للطباعة والنشر ـ بغداد، ط: (١٩٩٥م).

٨ ـ أسرار السعادة الزوجية وأسباب النجاح والفشل، تأليف/ محمد محمود عبدالله، دار الرضوان ـ سوريا ـ حلب، ط: (ب: ت).

٩ - أصول الدعوة - د/ عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط٣: (١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م).

١٠ - إعراب القرآن وبيانه - محيي الدين الدرويش - دار ابن كثير - دمشق - سوريا، ط٣: (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

١١ - أمراض القلوب وشفاؤها، يليها التحفة العراقية في الأعمال القلبية - شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، المكتبة الوطنية - بغداد، مطبعة الزمان: (١٩٨٩م).

١٢ - الإيمان والحياة - د/ يوسف القرضاوي - دار الكتب والوثائق بغداد لسنة (١٩٨٩م).

(ت)

١٣ - تاج العروس - محب الدين أبي الفيض محمد مرتضى الواسطي الزبيدي -، دار الفكر - بيروت، ط: (ب: ت).

١٤ - تربية الأولاد في الإسلام - عبدالله ناصح علوان، دار السلام للطباعة والنشر - القاهرة.

١٥ - تزكية النفوس وتربيتها كما يقرره علماء السلف (ابن رجب الحنبلي، ابن القيم، أبي حامد الغزالي)، جمع وترتيب/ أحمد فريد، تحقيق/ ماجد بن أبي الليل، دار القلم - بيروت - لبنان، ط: (ب:ت).

١٦ - التائبون إلى الله - إبراهيم بن عبدالله الحازمي - دار الشريف للنشر والتوزيع، ط: (ب:ت).

١٧ - تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى (٧٧٤هـ)، مكتبة دار التراث - القاهرة، ط: (ب: ت).

١٨ - التفسير الكبير ومفاتيح الغيب - محمد الرازي فخر الدين بن ضياء الدين عمر - المتوفى (٦٠٤هـ)، دار الفكر - بيروت - لبنان، ط٥: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

١٩ - تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين - أبي القاسم الحسن بن الفضل الراغب الأصفهاني، المتوفى (٥٠٠هـ)، مطبعة العرفان - صيدا، ط: (ب: ت).

٢٠ - التكافل الاجتماعي في الإسلام - محمد أبو زهرة، دار الفكر - القاهرة، ط: (ب: ت).

٢١ - التكافل الاجتماعي في الإسلام ودوره في حماية المال العام والخاص - تأليف/ محمد بن أحمد الصالح، إدارة الثقافة والنشر - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض، ط: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).

(ث)

٢٢ ـ ثلاثون سبب للسعادة ـ عايض بن عبدالله القرني، دار ابن حزم ـ بيروت ـ لبنان: ط١: (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م).

(جـ)

٢٣ ـ الجامع الصغير وزياداته ـ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣: (١٤٠٢هـ).

٢٤ ـ جدد حياتك ـ محمد الغزالي ـ دار التوفيق النموذجية ـ الأزهر ـ مصر، ط٢: (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).

٢٥ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ أبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري ـ المتوفى (٦٧١هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٢٦ ـ جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة ـ د/ عمر الأشقر ـ مكتبة الفلاح، دار النفائس، ط: (ب: ت).

(حـ)

٢٧ ـ حول الأخلاق في الفكر الإسلامي ـ د/ أشرف حرفوش، دار دمشق، ط١: (١٩٩٤م).

(خ)

٢٨ ـ الخلق الكامل ـ محمد أحمد جاد المولى، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، دار قتيبة، دمشق، ط: (ب: ت).

(د)

٢٩ ـ دع القلق وابدأ الحياة، تأليف/ ديل كارينجي ـ مؤسسة معهد العلاقات الإنسانية ـ بنيويورك، تعريب/ عبد المنعم محمد الزيادي، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، مكتبة الديواني بغداد، ط٦: (ب: ت).

٣٠ ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ـ محمد بن علام الصديقي الشافعي الأشعري المكي، المتوفى (١٠٥٧هـ)، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط: (ب: ت).

(ر)

٣١ ـ رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط٣: (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).

٣٢ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام: (عمر بن عبدالعزيز، الحسن البصري، أحمد بن حنبل، وغيرهم) تأليف/ أبو الحسن الندوي، دار القلم ـ الكويت، ط٧: (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م).

٣٣ ـ رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ (تقي الدين أحمد بن تيمية)، تأليف/ أبو الحسن الندوي، دار القلم ـ الكويت، ط٣: (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م).

٣٤ ـ رجال من التاريخ ـ تأليف/ علي الطنطاوي...، دار المنار ـ جدة ـ السعودية، ط٧، (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).

٣٥ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ـ شهاب الدين محمد الآلوسي ت: (١٢٧٠هـ) إدارة الطباعة المنيرية ـ مصر، ط: (ب:ت).

٣٦ ـ الرحيق المختوم، بحث في السيرة النبوية، تأليف/ صفي الرحمن المباركفوري، مكتبة الناس، بيروت ـ لبنان، ط: (ب:ت).

(ز)

٣٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد ـ لابن القيم الجوزية ـ شمس الدين أبي عبدالله أبي بكر الزرعي الدمشقي ـ تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤: (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).

(س)

٣٨ ـ سر السعادة ـ سلمان نصيف الدحدوح، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ لبنان، ط٢: (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).

٣٩ ـ السعادة بين الوهم والحقيقة، د/ ناصر العمر، دار الصفوة ـ الرياض، ط١: (١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م).

٤٠ ـ السعادة، حقيقتها، أسبابها ـ محمد المختار الشنقيطي، مكتبة أبي حذيفة السلفية، سنة الإيداع بدار الكتب (٢٠٠٠م).

٤١ ـ السعادة والحضارة ـ تأليف/ جان كزنوف، ترجمه وعلق عليه د/ عادل العوّا، مطبعة جامعة دمشق، ط: (١٣٩١هـ ـ ١٩٧٣م).

٤٢ ـ سنن ابن ماجه ـ محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ـ المتوفى (٢٧٥هـ)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، (٢ جزء)، دار الفكر ـ بيروت، ط: (ب: ت).

٤٣ ـ سنن أبي داود ـ سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ـ المتوفى

(٢٧٥هـ)، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، (٤ أجزاء)، دار الفكر، ط: (ب: ت).
٤٤ ـ سنن البيهقي ـ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ـ المتوفى (٤٥٨هـ)، تحقيق/ محمد عبدالقادر عطا، (١٠ أجزاء)، مكتبة دار الباز ـ مكة المكرمة، ط: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م).
٤٥ ـ سنن الترمذي المسمى (بالجامع الصحيح) ـ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي، المتوفى (٢٧٩هـ)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر وآخرون، (٥ أجزاء)، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط: (ب: ت).
٤٦ ـ سنن النسائي المسمى (المجتبى من السنن) ـ أحمد بن شعيب أبو عبدالرحمن النسائي، المتوفى (٣٠٣هـ)، تحقيق/ عبدالفتاح أبو غدة (٨ أجزاء)، مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب، ط٢: (١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م).
٤٧ ـ السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، تأليف د/ عبد الكريم زيدان، دار إحسان، ط: (ب: ت).

(ش)

٤٨ ـ شرح النووي على صحيح مسلم ـ يحيى بن شرف أبو زكريا محيي الدين النووي، المتوفى (٦٧٦هـ)، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: (ب: ت).

(ص)

٤٩ ـ صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان ـ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي المتوفى (٣٥٤)، تحقيق/ شعيب الأرنؤوط (١٨ جزءاً)، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٢ (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).
٥٠ ـ صحيح البخاري المسمى بـ (الجامع الصحيح المختصر) ـ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي المتوفى (٢٥٦هـ)، تحقيق/ د. مصطفى ديب البغا، (٦ أجزاء)، دار ابن كثير ـ اليمامة ـ بيروت، ط٣: (١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م).
٥١ ـ الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ـ د/ يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م).
٥٢ ـ صفوة التفاسير ـ محمد بن علي الصابوني، دار القرآن الكريم ـ بيروت، ط٤: (١٤٠٢هـ ـ ١٩٨١م).
٥٣ ـ صلاح الأمة ـ تأليف/ د. سيد حسين العفاني ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١: (١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م) (٧ مجلدات).
٥٤ ـ صحيح مسلم ـ مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ـ المتوفى

(٢٦١)، تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي، (٥ أجزاء)، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: (ب: ت).
٥٥ - صور من حياة التابعين د/ عبدالرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي - القاهرة، ط٦: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

(ط)

٥٦ - طبيبك معك - د/ صبري القباني، دار العلم للملايين - بيروت، ط٣: (ب: ت).
٥٧ - طريق السعادة - جمع وترتيب/ أحمد فريد، الدار السلفية، الإسكندرية، ط١: (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

(ع)

٥٨ - العبادة وآثارها النفسية والاجتماعية/ نظام الدين عبدالحميد، مطبعة الخلود - بغداد، سنة الإيداع في المكتبة الوطنية (١٩٨٥م).
٥٩ - العبودية - لشيخ الإسلام ابن تيمية - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، ط: (ب: ت).
٦٠ - العائدون إلى الله (مجموعة قصص من التائبين من مشاهير وعلماء، ودعاة، وغيرهم يروونها بأنفسهم) جمعها/ محمد بن عبدالعزيز المسند، المجموعة الثانية، دار الوطن للنشر - الرياض، ط١: (١٤١١هـ).

(ف)

٦١ - فتح الباري لشرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ)، تحقيق/ عبدالعزيز بن باز، ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار الكتب العلمية - بيروت ط١: (١٤١٠هـ - ١٩٨٩م).
٦٢ - فخر الدين الرازي وجهوده الكلامية والفلسفية - محمد صالح الزركان، دار الفكر - بيروت، ط: (ب: ت).
٦٣ - في ظلال القرآن - سيد قطب، دار النشر - بيروت - القاهرة، ط٩: (١٤٩٩هـ - ١٩٨١م).

(ق)

٦٤ - قرآن كريم - تفسير، وبيان (مع) أسباب النزول للسيوطي (مع) فهارس كاملة للمواضيع والألفاظ، إعداد/ د. محمد حسن الحمصي، مؤسسة نشر إحسان - طهران، ط: (ب: ت).

٦٥ ـ قصص واقعية تربوية هادفة ـ أبي القعقاع محمد بن صالح بن إسحاق، مطبعة النرجس ـ الرياض، ط: (١٤٢٠هـ).
٦٦ ـ القصص القرآني ـ تأليف/ عماد زهير حافظ، دار القلم ـ دمشق، ط١: (١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م).
٦٧ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام ـ عز الدين بن عبدالسلام، تحقيق/ عبداللطيف عبدالرحمن، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م).
٦٨ ـ قصص من الواقع ـ أبي القعقاع ـ محمد بن صالح بن إسحاق ـ مطبعة النرجس، الرياض، ط١ (١٤٢٠هـ).

(ك)

٦٩ ـ كتاب الأخلاق ـ أحمد أمين، دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان، ط: (١٩٦٩م).
٧٠ ـ كتاب الأخلاق الدينية والحكم الشرعية ـ عبدالرحمن الجزيري، مطبعة الأنوار ـ مصر، ط: (ب: ت).
٧١ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ـ إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي ـ المتوفى (١١٦٢)، تحقيق/ أحمد القلاش، (٢ جزء)، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٤ (١٤٠٥هـ).
٧٢ ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل ـ جار الله محمود بن عمر الزمخشري ـ، المتوفى (٥٣٨هـ)، دار المعرفة ـ بيروت، لبنان، ط: (ب: ت).
٧٣ ـ كليات البقاء ـ مصطفى الدين الآلوسي، دار النشر (ب: ت)، ط: (١٢٨١).

(ل)

٧٤ ـ لا تحزن ـ عايض بن عبدالله القرني، مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، ط٢: (١٤١٨هـ ـ ١٩٨٩م).
٧٥ ـ لسان العرب ـ لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، المتوفى (٧١١هـ)، دار صادر ـ بيروت، ط٢: (ب: ت).

(م)

٧٦ ـ مجلة التربية الإسلامية ـ العدد السادس للسنة الثامنة، دار التربية الإسلامية ـ بغداد ـ الكرخ، ط: (محرم الحرام ١٣٨١هـ ـ مارس ١٩٦٦م).

٧٧ ـ مجلة الفتوى (إسلامية، ثقافية، شهرية) العدد (١١٥)، دار الأنبار ـ بغداد ـ ط: (رجب ١٤٢٣هـ ـ أيلول ـ تشرين الأول ٢٠٠٢م).

٧٨ ـ مجمل اللغة ـ لأبي الحسين ـ أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي ـ المتوفى (٣٩٥هـ)، تحقيق/ زهير عبدالمحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، ط: (ب: ت).

٧٩ ـ مجموع فتاوى ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ جمع وترتيب/ عبدالرحمن محمد بن قاسم وابنه محمد، مكتبة المعارف ـ الرباط ـ المغرب، ط: (ب: ت).

٨٠ ـ مختار الصحاح ـ لمحمد أبي بكر عبدالقادر الرازي، مكتبة لبنان، ط (١٩٨٧م).

٨١ ـ مستدرك الحاكم ـ محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، المتوفى (٤٠٥هـ) تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: (١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م).

٨٢ ـ المسك والعنبر من خطب المنبر ـ عايض بن عبدالله القرني ـ مكتبة الإرشاد بالجمهورية اليمنية ـ صنعاء ـ ط١(١٤١٣هـ).

٨٣ ـ مسند أحمد ـ الإمام أحمد بن حنبل ـ المتوفى (٢٤١هـ)، (٦ أجزاء)، مؤسسة قرطبة ـ مصر، ط: (ب: ت).

٨٤ ـ معالم الثقافة الإسلامية ـ د. عبدالكريم عثمان، ومؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط١٥: (١٤١١هـ ـ ١٩٩١م).

٨٥ ـ المعجم الفلسفي، تأليف/ د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ لبنان، دار الكتاب المصري ـ القاهرة، ط: (ب: ت).

٨٦ ـ المعجم الأوسط: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ـ المتوفى (٣٦٠هـ) تحقيق/ طارق بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن إبراهيم الحسين، (١٠ أجزاء)، دار الحرمين ـ القاهرة، ط: (١٤١٥هـ).

٨٧ ـ المعجم الكبير ـ الطبراني، تحقيق/ حمدي بن عبدالمجيد السلفي، (٢٠جزءاً)، مكتبة العلوم والحكم ـ الموصل، ط٢: (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م).

٨٨ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ـ تأليف/ أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، مطبعة الاستقلال الكبرى ـ القاهرة، ط: (ب: ت).

٨٩ ـ مفتاح دار السعادة والمنشور ولاية العلم والإرادة ـ لابن قيم الجوزية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط: (ب: ت).

٩٠ ـ المفردات في غريب القرآن ـ لأبي القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المراغي الأصفهاني المتوفى (٥١هـ) المطبعة الميمنية، مصر ٢ط: (١٣٠٦هـ).

٩١ ـ منهج التربية النبوية للطفل ـ محمد نور بن عبدالحفيظ سويد ـ دار الطباعة والنشر الإسلامية ـ القاهرة، ط٢: (١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م).

٩٢ ـ موطأ مالك ـ أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي، المتوفى (١٧٩هـ)، دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة، ط: (ب: ت).
٩٣ ـ ميزان العمل ـ أبي حامد بن محمد الغزالي، المتوفى (٥٠٥هـ)، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان، ط١: (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).

(ن)

٩٤ ـ النبوة والأنبياء ـ محمد علي الصابوني، دار القلم ـ دمشق، ط٤: (١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م).
٩٥ ـ نظرية السعادة عند فلاسفة الإسلام ـ د. سعيد مراد، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة، ط: (١٩٩٢م).

(و)

٩٦ ـ الوابل الصيب من الكلام الطيب، لابن قيم الجوزية، تحقيق/ إياد عبداللطيف منشورات مكتبة المثنى ـ بغداد، المكتبة الوطنية لسنة (١٩٨٧م).
٩٧ ـ الوصايا العشر إلى فتيات وفتيان وآباء العصر ـ د/ موسى الخطيب، مركز الكتاب للنشر ـ مصر، ط١: (٢٠٠١م).

* * *

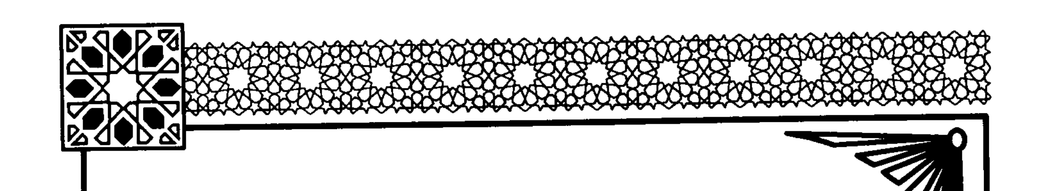

المؤلف في سطور
عبدالله بن محمد غانم العامري
(اليمن)

- ولد في قرية (عنترة) جبل برع ـ شرقي محافظة الحديدة سنة (١٩٦٧م) وفيها نشأ وتلقى تعليمه الأولى.
- نال شهادة (البكالوريوس) من جمهورية العراق (الجامعة الإسلامية ـ جامعة صدام ـ سابقاً) من (قسم الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية) تخصص (أصول دين) عام ١٩٩٩/٢٠٠٠م.
- نال شهادة الدراسة العليا (مرحلة الماجستير) من جمهورية العراق أيضاً (الجامعة الإسلامية) ـ صدام سابقاً ـ وذلك من (كلية الفكر الإسلامي والدعوة والعقيدة الإسلامية) تخصص (فكر إسلامي، ودعوة) عام ٢٠٠٢/٢٠٠٣م.
- قدم الباحث خلال هذه المرحلة الدراسية رسالة علمية تتكون من بحثين تكميليين لنيل درجة الماجستير، ينطبق على كل بحث شروط الرسالة العلمية:

١ ـ البحث الأول: بعنوان (الحسد وعلاجه في القرآن الكريم السنة النبوية) وقد تم مناقشته فيه بتاريخ ٢٠٠٢/٥/٧م وحصل على درجة (امتياز).

٢ ـ البحث الثاني: بعنوان (السعادة في المنظور الإسلامي) وقد تم مناقشته فيه بتاريخ ٢٠٠٣/١٢/٩م وحصل على درجة (امتياز).

- يعمل حالياً موظفاً في وزارة الأوقاف والإرشاد (قطاع الوعظ والإرشاد).
- له عدد من البحوث منها ما تم طبعها ونشرها، ومنها: في الطريق إلى النشر.
- **أولاً: ما تم طبعها ونشرها:**

١ ـ (الحسد وعلاجه في القرآن الكريم والسنة النبوية).

٢ ـ (السعادة في المنظور الإسلامي).

- **ثانياً: أبحاث في طريقها إلى النشر:**

١ ـ الثمار اليانعة للصدقة النافعة.

٢ ـ البدعة (مفهومها وأقسامها).

٣ ـ حقوق الوالدين في القرآن الكريم.

٤ ـ الحسد وموقف الإسلام منه.

٥ ـ مفهوم السعادة لدى الديانات السماوية والوظفية.

٦ ـ الدعوة إلى الله في منهج واضح وأسلوب فاتح.

❊ ❊ ❊